سدرة

(أمنية الغروب)

الطبعة الأولى
1440 هـ
2018 م

اسم الكتاب: سدرة.. (أمنية الغروب)
التأليف: د. هنـــد فـــؤاد
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 256 صفحة
عدد الملازم: 16 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018/22869
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 729 - 6

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

سدرة

(أمنية الغروب)

رواية

د. هند فؤاد

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

إلى كلّ زوجة تضحي حبًّا لعائلتها بإفراط، وتفني عمرها وكيانها حفاظًا على ترابطها وعلى الميثاق الغليظ،

أنت قلب العائلة الدّائم الاخضرار،

لا تقبلي بالخيانة فتغفرينها وأنت لا تقبلين ولا تغفرين الحلال.

(إن كان قدرًا منه لا مفرّ)،

د/ هند فؤاد

مقدّمة

كانت حكاية صامتة في دربٍ من خيال، أكملتها حلمًا بعيد المنال.

د / هند فؤاد

ماذا أقول له إن جاء يسألني؟

إن كنت أكرهه أو كنت أهواه

أأدّعي أنني أصبحت أكرهه

وكيف أكرهه ومَن في الجفن سكناه

وكيف أهرب منه إنّه قدري

هل يملك النهر تغييرًا لمجراه

الحبّ في الأرض بعضٌ مِن تخيّلنا

لو نجده عليها لاخترعناه

ماذا أقول له إن جاء يسألني

إن كنت أهواه

إنّي ألف أهواه.

في العيادة الفخمة، ذات الطابع الكلاسيكي الهادئ المميز حيث كلّ شيء ثمين قد اختير بعناية ودقّة ليعكس شعورًا بالرّاحة النفسيّة على نفوس المرضى الجالسين في قائمة الانتظار. بعد يوم من العمل الشّاق من أيّامها المزدحمة التي اعتادتها منذ أن امْتهنت تلك المهنةَ الصّعبةً ما بين عمليات الولادة ومتابعة حالات الحمل الحرجة والطبيعية منها طيلة اليوم، وبعد انْتهاء الكشف على إحدى حالاتها، شعرت الطّبيبة "شيرين" بدوار هاجمها مرّة أخرى بشراسة بعد أن حاولت تجاهله في بدايته بالانْخراط بالعمل لتنتهي من بقية الحالات في ميعادها، لاحظت الممرضة عليها شحوبَ وجهها وارتجاف يديها أثناء الكشف على غير عادتها. وبعدما أنهت الكشفَ على الحالة مودّعة إيّاها بابتسامتها اللّطيفة المعهودة طلبت الممرضة منها أن تكتفي بهذا القدر من حالات اليوم، ولتعتذر لبقية الحالات، وتغلق العيادة وتذهب إلى بيتها لترتاح من عناء العمل لما يبدو عليها من إرهاق واضح. ولكن شيرين تحاملت على نفسها وأخبرتها أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، وأنّها لا يجب أن تترك المرضى يرحلون يكفيهم مشقّة المجيء بالإضافة إلى آلام المرض الذي يحملونه إليها لتداويه، هكذا كانت الطبيبة شيرين اختصاصيّة أمراض النساء والتوليد تتعامل مع مرضاها بكلّ ودّ ورحمة. لقد كانت شيرين تحبّ عملها وتتقنه وتفني فيه كيانها، فسعادتها كانت تكمنُ في تلك اللحظة، أنْ تولد فيها الروح البيضاء من رحم الظّلام لترى نورَ الحياة على يديها.

انْتهت شيرين من عملها ودخلت لتبدّل ملابسها لتكتشف صدمة لم تتوقّعها، نزيف مرعب فاجأها بنهاية آخر كشفٍ دون أن تشعر، وهذا ما كان سببًا للصّداع والارتجاف الذي حاولت تجاهله، ثمّ عادت إلى الممرضة في قلقٍ وارتياب، وطلبت منها أن تغلق بابَ العيادة، وأن تساعدها فيما ستقوم به من فحصٍ لنفسها بجهاز الأشعة التليفزيونية، والذي تشخص به حالة الأجنّة والرحم في متابعتها لمرضاها.

وبينما كانت تفحص بتمعّن ما يجري بداخل جسدها لم تصدّق شيرين ما رأته على جهاز الأشعّة، وظلّت تحرّك الجهاز على جسدها بدقّة مرارًا وتكرارًا، وبداخلها إنكارٌ لما رأت على الشاشة، حتى استسلمت لما رأته بعينها لأنّها تدركه جيدًا وهي الطبيبة المخضرمة التي تكتشف أصعب الأمراض في أدقّ الحالات. انهمرت دموعها كالسيل دفعةً واحدة وهي تناول الممرضةَ الجهاز برعشة يديها المستسلمة لمشيئة القدر بعد أن اعتدلت في جلستها في وجوم تامّ وقد أدركت أنّ ثمّة أمر عظيم وخطر قريب أضحى حقيقة بين عشيّة ليلة وضحاها سوف يبدّل حياتها تبديلًا، ويرسم لها مصيرًا لم تكنْ تنتظره يباغتها في مثل هذا العمر. وعليها أن تواجهه وحدها قبل النهاية المحسومة، إنّه المرض الذي لا يرحم، وقد أصاب رحمها في مقتل دون إنذار.

سألتها الممرضةُ في قلق واضح: ما الأمر دكتورة، انتابني القلق عليك؟ فردت شيرين بعد أنْ أفاقت من شرودها وهي تمسح عنها دموع الصدمة:

ـ إنّه الأمر العظيم.

انهارت الممرضةُ تبكي بحرقة، وهي التي تعرف نهاية هذا الأمر من خبرتها مع طبيبتها طوال سنوات العمل، تلك الطبيبة الشابّة المتفانية في عملها التي كانت سببًا في شفاء الكثير من الألم، مَن يتحمّل عنها الألم في أسوأ وأصعب اللحظات.

نهضت شيرين من سرير الكشف، وهاتفت صديقتها وزميلتها بالتخصّص، والتي جاءتها على الفور إلى عيادتها لاستكمال الفحص الداخلي بالمنظار، ولسحب بعض العيّنات من الأنسجة والدّم للفحص الدقيق الشامل للتأكّد من تشخصيها بعد إرسالها للمختبر للتبيّن من درجه تقدّم الورم التي سيتحدّد على أثرها بروتوكول أو خطة العلاج، والتي علمت بخبرتها من أوّل وهْلة شاهدته بشكله المرعب على شاشة الأشعة أنه ذلك الخبيث السّرطاني الذي لن يرحمها.

جاءت زميلتها إليها على الفور، وقامت بفحصها جيدًا:

_ لا أعلم ماذا أقول، كنت أدعو من قلبي ألّا أراه.

قالت زميلتها علياء في أسى بالغٍ، وكانت غلالة من الدّمعات الحارة بدأت تتساقط على وجنتيها حزنًا على رفيقتها المسكينة.

_لا تقولي شيئًا يا علياء، لقد رأيته من الوهلة الأولى.

_ شيرين، أنتِ قوية وإيمانك بالله كبير، يجب ألّا نفقد الأمل أبدًا، هكذا نمنح الأمل لأصْعب الحالات التي تقابلنا، وأنت تعلمين أنه لا شيء بعيد عن قدرة الله، لا شيء يعجزه في الشفاء، سوف يتمّ استئصاله بأسرع وقت، وينتهي كلّ شيء وكأنّه لم يكن.

_ أيّ درجة من المرض تشكّين بها علياء؟

صمتت علياء وقد بدا الارتجاف يخنق صوتها رغمًا عنها، ثمّ قالت: سوف نتأكّد بعد الفحص الإشعاعي، وفحص العيّنة مخبريًّا أولًا.

_ لا تحزني يا علياء، إنّي أؤمن بالله وأرضى بقدره.

قالت شيرين مبتسمة من بين دموعها الرّاضية.

احتضنتها صديقتُها بعمق لتشاركها تلك اللّحظة العصيبة من الألم تتحمّله عنها، وهي تقول: سوف يخفف الله عنك كلّ ألم، ولكنّ الوقت يداهمنا، يجب أن نقوم بالعملية بأسرع وقت، ونبدأ بالعلاج فورًا.

_ يجب أن أتهيّأ نفسيًّا أولًا، وأخبر وليد بالأمر.

_ سوف أهتمّ بكلّ شيء، وأستخرج تقارير المختبر والأشعّة بأسرع وقت، إنّي بجوارك حتى ينتهي هذا الكابوس ويتمّ، بإذن الله، شفاؤك.

واحتضنتها مرّة أخرى داعيةً الله أن يخفف عنها، ويعبر بها هذه المحنة في سلام.

بين ليلة وضحاها يصبح الإنسان إنسانًا آخر، يتبدّل حاله إلى حال آخر، لا يعدْ يشبه نفسَه التي كانت بالأمس ورحلت عنه في جوف الليل وحيدة إلى مصير مجهول، وأين هو اليوم وأين الأمس؟

كلّ شيء قد رحلَ مع الأمس لن يعود في الغد، إلّا الشمس، فقط وحدَها الشمس التي تعود.

عادت شيرين إلى منزلها في وقتٍ متأخّر، وقد خلد أولادها الثلاثة إلى النوم، دخلت إلى غرفهم، قبّلتهم بحرارةِ الألم المتّقد في أعماقها، وكأنّه الوداع الأخير، حتى استيقظت "سلمى" ابنتها الصغرى ذات الثمانية أعوام، فوجدتها تمسح عنها دموعها فسألتها بترقّب:

_ أمّي، اشتقت لك، ماذا بك؟!

_ لا شيء حبيبتي، لقد عدت من يوم طويل شاق.

_ أكانت الولادات متعسّرة اليوم؟

_ نعم يا حبيبتي، كانت أصعبَ ما يكون.

ثمّ ضمّتها بقوة إلى صدرها، وهي تربت على شعرها برفق، فقالت سلمى بخوف:

_ لا أريد أن أتزوّج وألد يا أمي، أشعر بالخوف من هذه الفكرة.

_ لا تقولي ذلك يا حبيبتي، سوف تكبرين وتصبحين أجمل أمّ في الدنيا في الوقت المناسب.

_ أريد أن أكون مثلك يا أمّي.

لم تتمالك شيرين دموعَها التي فرطت منها كحبّات عقد ثمين انحدر على وجنتيها في استسلام، فزادت من ضمّها إلى صدرها؛ لربما هدأ ألمُها وأخمدت نارُها المُتّقدة بالقلب المكلوم، ثمّ قالت:

_ستكونين الأفضل يا حبيبتي، ستكونين أنت سلمى الجميلة دومًا.

ثمّ قبّلتها على جبينها قبلة طويلة عميقة، وهمّت لمغادرة الغرفة وابتسمت لها في حنانٍ قائلة: نامي حبيبتي، أحلام سعيدة.

باتت شيرين تتجول في أرجاء البيت الكبير، تتلمّس جدرانه بشغف وهي تمرّر أصابعها عليها وكأنّها تحتضنها بعمق، وكأنّها تحفر عليها أثرها ليبقى جزء من روحها وأنفاسها تسكن هذا المكان على هذه الجدران بعد الرحيل، كانت يداها تتحسّسها بشوقٍ غريب، فكمْ تحمّلت هذه الجدران معها عمرًا طويلًا من الكفاح والصعاب والحبّ الكبير، إنّ كلّ ركن في هذا البيت بُني بالحب، لم يكن "وليد" شريكًا لها في بنائه من أجل الإستقرار فحسب؛ بل كان شريكَ روحها الذي وهبها القدر إيّاه، ما أقسى أن تتحوّل أجمل الأيام بشغفها وحلاوتها إلى بقايا ذكريات بعيدة تسكن عنوةً طرق الرحيل، وتظلّ تمدّنا بنفحات السعادة بين الحين والحين في وحشتنا لتجعلنا نشعر أننا يومًا كنّا على قيْد الحياة.

كانت شيرين تجول بين طرقات البيت الفخم الذي اتّشحت جدرانه السماوية اليوم بلون الرّماد بعدما بدأ الحلمُ الكبير في السقوط، حتّى استقرت بالطابق الأسفل بغرفة المكتب، ثمّ مسحت عنها دموعها الحارة وهي تستخرج مجموعة صورها القديمة من خزانة المكتبة، فتحتها برفق حتّى ألقت نظرتها الحانية على صورتها الصغيرة، كمْ كانت بريئة وهي تبتسم فرحًا للحياة، كمْ كانت مدلّلة على كتف أبيها الذي منحها كلّ الأمان، ومازال إلى الآن يدلّلها وكأنها مازالت في الخامسة، تحسّست ملامحها القديمة

مرورًا بصور المدرسة المليئة بالحماس والحيوية، ثمّ الجامعة.. ثمّ ليلة العمر التي جمعتها بحبيبها الوحيد في هذا المنزل الذي كبر الحبّ فيه مع العشرة أعوام الطوال.

انهمرت الدّموع بغزارة مرّة أخرى لتغرق الصور النابضة بالروح وبالحنين بين يديها، وقلبها يعتصر ألمًا، كيف ستترك كلّ هذا الدّفء وترحل؟ كيف ستترك هذا الحضن وطنَها الذي تسكنه وتأمن فيه ويسكن فيها لتسكن وحيدة في القبر المجهول؟ كيف ستذهب وحيدةً راضية بلقاء ربّها في عالم الآخرة، وتتركهم وحدهم هنا يتعذبون لفراقها حتّى يحين اللقاء، كيف ستخبر وليد بأنّ الفراق قد حسم، وأنّ القدر يرتب للرحيل، وكيف سيحتمّل وقع الخبر؟!!

بدأ صوتُ نحيبها يرتفع رغمًا عنها، ثمّ رفعت يديها الى السماء داعية ربّ السماء في جوف الليل الحزين، أنْ يهوّن عنها وعن قلوب أحبّائها هذا البلاء، ويجنّبهم ألم الفراق.

فتح وليد بابَ المنزل قُبيل الفجر بعد يومٍ شاق من العمل ما بين الجامعة وعيادته الخاصّة وعملياته بالمشفى الذي يمتلكه، فوجدَ ضوء الغرفة مضاءًا فذهب ليطفئه، وإذ به يرى شيرين نائمة بين بحرٍ من الصور والذكريات على سطح المكتب، اقترب منها وأيقظها في هدوء بعد أن قبّل رأسها، وسألها بحنان:

_حبيبتي، لماذا لم تخلدي للنوم بغرفتنا، ولماذا استخرجت كلّ هذه الصور؟

_عذرًا وليد، لم أشعر بالوقت فغفوت بمكاني.

_ماذا بك حبيبتي، هل كنت تبكين؟ سألها وقد بدت علامات الدهشة على وجهه.

نظرت شيرين إلى عينيه بحبّ عميق، وكأنّها ترتوي منها كتائهٍ عطشٍ في قلب الصحراء أبصرَ بقعة ماء فهُرع إليها قبل الموت.

ثمّ وضعت يديها برفق على وجنتيه، وسألته بشوق كبير:

_هل مازلت تحبّني يا وليد كأوّل يوم التقينا؟

_ وهل يحتاج الحبّ بيننا إلى إثبات بالكلمات يا حبيبة الروح والعمر؟

ردّ وليد وهو يضمّها إليه بقوّة الشوق الذي يفيض كلّما تلمّس شوقها إليه وكأنّه أدرك أنّ هذا الشّوق نابعٌ من غياب بضعة أيّام انهمك فيها كلاهما في عمله ولم يكنْ هذا الشيء غريبًا على نظامهما، ولكنْ ثمّة شيء غريب على غير العادة يشعره اليوم، لقد بكت شيرين في حضنه بكاءً لم يرها عليه من قبل، ثمّ قالت مِن بين نحيبها وقوّة ضمّتها إليه بذراعيها المرتجفتين:

_أحبّني يا وليد، اعشقني كثيرًا إلى آخر العمر، أريد أن يكون حبّك هو أخرَ أنفاسي.

قبّلته بعنف من بين السيل المُنهمر من عينيها الحزينة، ومن بين صوتها المتهدج من فرط الخوف، ووليد يضمّها إليه بقوّة الشوق الممتزج بالقلق والريبة، أنّه لأوّل مرّة يرى شيرين بهذا الضعف والاحتياج، ثمّ أمسك برأسها بين كفّيه ونظر بعينيها السّاقطتين في بئر الحزن العميق سائلًا في توجّس:

_أخبريني ما الأمر شيرين؟

ابتسمت بعناء لتخفّف من بركان الألم الثائر بداخلها قائلة بحبّ عميق:

_لا شيء يا حبيبي، فقد تذكّرت يوم التقينا ويوم زواجنا، تذكرت كلّ ما كان بيننا من عمرٍ جميل وذكريات حلوة حفرت كالنقش على قلوبنا، هل تعدني ألّا تنساني بعد الموت يا وليد؟

_ بعد الموت!!

_ أقصد لآخر العمر يا حبيبي، فإنّي أدعو الله أن يجمعنا في الآخرة كما جمعنا في الدنيا سويًّا.

_شيرين، لقد ساورني القلق، ولا أطمئنّ لكلامك اليوم، أخبريني الحقيقة، ما الأمر؟

_ لا شيء وليد لا تقلق، لقد تأثّرت بحالة تحتضر أمامي وقت الوضع وهي متمسّكة بابنها وزوجها لدرجة لم أتحمّلها فانْهَرت بعدها، وتصوّرت لو كنت بمكانها ماذا كنت سأفعل! أحيانًا نعجز أن نحتفظ بمَن نحبّهم رغم تضحيتنا من أجلهم بكلّ شيء، لقد عشت لحظة صعبة قاسيةً على نفسي اليوم، اعذرني حبيبي.

_ رحمها الله. ولكنّ أمر الله نافذ في ميعاده، وأنّ الأسباب خلقت فقط ليتقبلها عقلنا، إنّما الأمر والأجل محسومان، وأظنّها ليست أوّل مرّة تواجهين حالة يتوفّاها الله في ولادتها أيّتها الطبيبة الماهرة.

_ أعرف حبيبي، لا عليك، لقد كان المشهد صعبًا مع تمسّك عائلتها بها بانهيار فلم أحتمل، سوف أجهز لك العشاء.

_ لا أريد عشاءًا يا حبيبتي، أنتِ اليوم أشهى من أيّ عشاء.

واقترب منها يداعبها، ولكنّها تهرّبت وتحجّجت بسوء حالتها النفسية، فتفهّم وليد الأمر ولم يضغط عليها وأخذ بيدها ليصعدا معًا إلى غرفتهما، فدخل هو ليخلد إلى نومه وذهبت هي إلى غرفة الأولاد لتتفقّدهم، وفي حقيقة الأمر إنّها كانت تهرب بكلّ عزمها من المواجهة ومباغتته بالصدمة الكبرى.

مرّت الساعات الباقية تسحب ستارَ الليل الحزين ثقيلة باردة على الأمل الأخضر بالقلوب، كانت دقّات الساعة تعلن صخبها ويرتدّ صداها من على جدران الروح المستسلمة لنداء الموت، تصرعها قبل الميعاد.

ومع إشراقة شمس الصّباح، رحل الليل بصمته المرير ولم ترحل عتمة الحزن العميق عن الرّوح، ولم يزُرِ الكرى العينين المنهكتين أملًا ورجاءًا بألّا ترحل دون أن ترتوي من هذا البيت وهذا الدفء وهذا الحبّ الذي تحيا به ولأجله.

كانت تناجي الله بخشوع ولم تغفل عيناها، ولم يرحل من قلبها المنفطر يقين الدعاء.

مسحت شيرين دموعَها وقامت لتغسل وجهها وتهندم نفسها كي تزيل آثار الألم أمام عائلتها الصغيرة كي لا يلحظون شيئًا من آثاره عليها.. فمِن أجلهم سوف تتحمله عنهم وحدها للنهاية، هكذا كان قرارُها الحاسم في قلب الليل الدامس الظلام.

استيقظت الأسرة في يوم جديد من أيام الحياة، كلّ يقوم بواجباته بنظام متّبع منذ سنوات استعدادًا للمغادرة إلى المدرسة والعمل؛ سلمى ابنتها الصغيرة تذكّرها بألّا تنسى أنْ تحضر اجتماع أولياء الأمر بالمدرسة في الثانية عشرة، وجومانة الكبرى تخبرها بأنّها ستخرج من المدرسة على ميعاد التمرين بالنادي.

خرج الجميع مودّعًا أبويه كوداع كلّ يوم بعد الإفطار بقبلةٍ سريعة قبل اللحاق بالحافلة المدرسية، ولكن اليوم- وعلى غير عادة- الأمّ كانت قبلتها عميقة حارة، وكأنّها كانت تقبّل أرواحهم لا وجناتهم.

بعد خروجهم، كانت شيرين مستقرّة بجوار النافذة في غرفة الجلوس ترتشف قهوتها في شرودٍ لانتظارِ لحظة مناسبة لإخبار وليد بالأمر، بينما كان وليد مازال يستعدّ ويجهز للخروج، رنّ هاتفها وكانت علياء:

_صباح الخير شيرين.

_صباح الخير علياء.

_كيف حالك اليوم؟

_ لم أنَمْ إلى الآن.

_هل أخبرتِ وليد بالأمر؟

_لا ليس بعد.

_شيرين، تعلمين جيدًا أنّ الأمر لا يحتمل أي تأخير.

_أعلم، ولكني لست مهيّأة لذلك الآن، أرجوكِ علياء، أودّ أن أستجمع شتاتي أولًا.

_ ليس الأمر بهذه البساطة، ومرور الوقت ليس في صالحنا يا شيرين.

_ سوف أحادثك لاحقًا، فوليد على وشكِ الذّهاب.

كان وليد يهبط الدّرج حين أنهت شيرين مكالمتها سريعًا كي لا يلحظ شيئًا.

_حبيبتي صباح الخير، ألست ذاهبة إلى المشفى اليوم؟

_ اليوم اجتماع أولياء الأمر لسلمى، سوف أحضره ثمّ أذهب الى المشفى.

_هل أنت بخير؟

كان وليد قد لاحظ شحوبَ وجهها وإجهاد عينيها المتزايد..

_نعم حبيبي بخير، كلّ شيء سيكون على ما يرام.

قالتها بابتسامة تحاول فيها إخفاءَ حزنها.

_حسنًا شيري، سأتأخّر اليوم أيضًا بالمشفى، أراكِ لاحقًا حبيبتي.

وقبل أن يهمّ بالخروج نادته بصوت مليء بالشّوق والخوف والتشتت وهي تمسك بيده بقوّة:

_وليد، أحبك كثيرًا.

تمعّن النظر بعينيها قائلًا: وأنا لا أحبّكِ...

قالها مقتضبًا بعض الشيء، ثمّ سرعان ما انفرجت شفتاه عن ابتسامةِ حبّ مشرقة وهو يقول لها: بل أعشقك.

ترقرقت دمعاتُها بمقلتيها، وقد أغمضت جفنيها برهة، وسحبت إلى رئتيها نفسًا عميقًا ليغمرها أمنًا، وترتوي فيه من عبَقِ الكلمة التي انطلقت من شفتيه للتوّ قبل خروجه لتستقرّ بقلبها المسكين تعينه على التمسّك بالأمل الضعيف، وعادت إلى النافذة لترقبه وهو يستقلّ سيارته تتبعه إلى أنْ تلاشى عن ناظريها في سلام، وقالت بنفسها "كم صرتُ أكره الوداع يا حبيب القلب"

ثمّ جهّزت نفسها للخروج بعد ما ذهبت عائلتُها كلّ إلى جهته وحياته، تاركة صغيرها حمزة نائمًا في رعاية مربّيته.

استقلت سيارتها وظلّت تتجوّل بها في الطرق وكأنّها ضلّت الطريق الذي تحفظه عن ظهر قلب. كانت لا تعرف إلى أين تذهب، إلى أين تهرب من ذلك الكابوس الذي اقتحم حياتَها المستقرّة دون إنذار، ثمّ اهتدت إلى مكان هادئ مكثت فيه تشرب قهوتها في هدوء، قبيل ميعاد الاجتماع بالمدرسة، وبدأت تعود ذاكرتها إلى الوراء حيث سُردت الذّكريات البعيدة عنوةً في أعماقها، تمرّر شريط حياتها الطويل أمام عينيها تذكرها بكلّ الأحداث الكبيرة منها والعابرة، وسردت في مخيلتها حتّى أدق التفاصيل، فلم يحدث أنْ مرّ بحياتها حدثٌ أصعب على نفسها كهذا الحدث الذي لأوّل مرّة يصيبها بالضعف والعجز والخوف من اليأس ومن المجهول وهي العاشقة للحياة.

ورأت في مخيّلتها ما بعد الكابوس والرحيل الإجباري، وبدأت تنهال على رأسها التساؤلات الصعبة المخيفة التي تخشى إجاباتها... "كيف سيتحمّل الأولاد ألم الفقد؟ كيف سيكبرون دونها؟ كيف سيعيش وليد وحيدًا؟ من حقّه ألّا يعيش وحيدًا طوال

العمر، مازال شابًّا جذابًا مرموقًا، وحلمًا لكلّ فتاة، من حقّه أن يستكمل حياته بعدي مع امرأة أخرى، لا أدرى إن كان سيحبّها وستحتلّ مكانتي بقلبه، وهو وطني الذي لم أعرف سواه.

والأولاد، كيف سينقلب حالُهم بين ليلة وضحاها؟ كيف سيتحملون اليتمَ المبكّر؟ كيف سيعيشون من دوني ومع سيدةٍ أخرى تحلّ محلّي بعد الرحيل؟ ربما لن تحفظهم وترعاهم، ربما أهملتهم فهُم ليسوا أولادها، مَن سيحبهم بعدي مثلي؟ لا أحد، لا أحد في هذا الكون يمكن أن يحبّهم كأمّهم أبدًا، لا أحد سوف يتحمّل عنهم العذاب الذي سيسكنهم بعد الفراق طويلًا، ولا أي مواساة يمكنها أن تُضمّد جرحهم المحفور بقلوبهم حتّى يلتئم، والذي ربما يعتادونه، ولكنه لن يلتئم..

ارحمني يا الله من ألم التفكير، وخفّف عنّي سوء المصير. ثمّ أفاقت من شرودها على رنين هاتفها، وكانت أخت وليد "غادة"، ولكنّها فضّلت ألّا تردّ وهي في هذه الحالة المزرية القاسية على روحها. ثمّ انتبهت إلى السّاعة وهي تقترب من الحادية عشرة، فمسحت عنها دموعَها المنهمرة كالسّيل على وجهها دون أن تشعر، ونهضت لتستقلّ سيارتها لتلحق بميعاد الاجتماع بمدرسة سلمى.

وفي الطريق شردت مجددًا، "يجب أن أخبر وليد بالأمر، كيف سيحتمل؟ كيف بعد كلّ هذا الحبّ الكبير والعشرة الطويلة في بيتنا الهادئ المستقر أن تنقلب حياتنا رأسًا على عقبٍ من بعد الأمان إلى الخوف والحرمان ومن بعد السكينة إلى الترقب وانتظار الموت، لا شيء أصعب على النفس من ألم انتظار الفراق المحتوم.

وصلت شيرين إلى المدرسة وصفّت سيارتها وارتدت نظارتها السوداء كي تخفي آثار الحزن عليهما، ودخلت إلى قاعة الاجتماع، وجلست في صمت طويل إلى أن بدأ الاجتماع الذي لم تسمع منه شيئًا واستفاقت وقت نادتها سلمى ابنتها قائلة:

_ما بك يا أمّي؟

_ لا شيء حبيبتي، هل كنت تقولين شيئًا؟

_ أودّ أن أحضر هديّة لميس "هنا"، لقد اختيرت أفضل مدرّسة هذا الشهر مع صفّنا.

_حسنًا حبيبتي، سوف نحضر هدية قيّمة لها كما تشائين.

_شكرًا أمّي سوف ألحق زملائي قبل أن يتصوّروا معها بدوني.

وركضت سلمى لتلحق الصورة التي تجمع ميس "هنا" بصفها وزاحمتهم كي تقف بجوارها لتمسك بيديها.

أطالت شيرين النظرَ إلى الأطفال الذين يحبّون مدرستهم إلى هذا الحدّ، وهي تتمعّن ملامح المدرسة من بعيد، ترى مدى حبّهم، ترى شغفهم بها وتهافتهم عليها، ترى بعينيها قبلةَ سلمى ابنتها إليها بكلّ حبّ وفرح، وسعادتها المنعكسة على عيون الأولاد الذين تفوّق صفّهم في مسابقة الشهر على بقية الصفوف بفضل توجيهاتها واجتهادها معهم.

إنّها "هنا" مدرّسة اللغة العربية، والتي تتلمذ على يديها جومانة الكبرى التي أصبحت في الصفّ العاشر، ثمّ تبعتها سلمى الصغرى في الصف السادس، ثمّ سيتبعهما حمزة عندما يلتحق بالمدرسة فمازال صغيرًا في عامِه الثالث. ذهبت شيرين إلى سلمى وهي تمسك بيدي مدرّستها، وتوقّفت أمامها برهة من الصمت وهي تتمعّن بها من خلف نظارتها السوداء، وكأنّ شيئًا ما يدور برأسها، أو تحاول أن تجمع أفكارها من الشّتات، ثمّ قالت سلمى تغمرها السّعادة لأمّها:

_ لقد فاز صفّنا ببطولة التميّز للشهر بفضل ميس "هنا" يا أمّي.

ابتسمت "هنا" لشيرين ابتسامةً هادئة ومدّت يديها لمصافحتها قائلة:

_ أهلًا دكتورة..

مدّت شيرين يدَها لتعانق يدي "هنا" بسلام حارّ:

_أهلًا ميس "هنا"، مبارك الفوز.

_شكرًا لك، إنّ سلمى من الطالبات المتميّزات بالفريق العلمي، يومًا ما ستصبح مهندسة كبيرة، لم أطلب منها ذلك لتسلك طريقًا غير الطبّ المتميّز فيه أبواها، بل هي مَن أخبرتني بحلمها..

قالت ومازالت مبتسمة:

_ طالما ستقفين بجوارها للنهاية ستحقّق حلمها، وتصبح أعظم مهندسة.

لم تفهم "هنا" أنّ هناك مغزًى من وراء الكلمات، ولكنّها أثنت على سلمى بكلّ فخر لأنّها من أفضل الطالبات عندها علمًا وخلقًا، وهذا بالطبع يرجع لتأسيس البيت أولًا بجانب المدرسة، ثمّ استأذنت منها لتتابع بقية أولياء الأمور الذين يفخرون بها وبأولادهم المتفوّقين معها، وظلّت شيرين تتبعها بنظراتها محدقة في كلّ حركة وابتسامة منها، ثمّ غادرت بابنتها، وغيّرت وجهتها وقرّرت أن تكافئ سلمى على تفوّقها وتكريمها بأنْ تصطحبها لتختار هديّة قيمة لمدرّستها، وأيضًا هديّة لنفسها مكافأة لها. فرحت سلمى كثيرًا واحتضنت أمّها فرحًا حيث أطالت شيرين ضمّها إلى حضنها بعمق، وقبّلتها، ثمّ انطلقت بالسيارة، وأثناء الطريق سألتها شيرين:

_هل تحبّين ميس "هنا " يا سلمى؟

_ نعم يا أمّي كثيرًا.

_لماذا؟

_لأنّها تحبّنا وتشجّعنا دائمًا ولا تعنّفنا أبدًا حتّى وإن أخطأنا، كما إنّها تشعل روح الحماس بيننا بشكل كبير فتجعلنا نتنافس على التفوّق، بالإضافة إلى أنها حنونة جدًّا، ودائمًا مبتسمة.

_ من المؤكّد أنّ أولادها محظوظون مثلكم؟

_ لا يا أمّي ليس لديها أولاد، إنها لم تتزوّج.

رمقتها شيرين رمقَةً سريعة لأنّها كانت تتوقّع أن تكون الاجابة بأنّها لا تعلم، ولكن خاب ظنّها، ثمّ قالت بشيء من الدعابة:

_يبدو أنكم تعرفون عنها كلّ شيء.

_نعم يا أمّي، هي تعتبرنا جميعًا أولادها، لذلك نحبّها كثيرًا.

_حسنًا حبيبتي، اختاري لها أفضل هدية تناسبها وتفرحها، وأظنّ أنك تعرفين ما الذي سوف يعجبها.

_أريد أن أهديها حاسوبًا جديدًا فلديها حاسوبًا متهالكًا، وهي مازالت تدرس بالجامعة لتنهي الدكتوراة.

_حسنًا حبيبتي، سوف نبتاع لها أفضل حاسوب ليساعدها على الدراسة.

_شكرًا أمّي، أنت أجمل أمّ بالوجود.

_ أنا أمْ ميس "هنا"؟

قالتها بدعابة تحمل الكثيرَ من الأسى بباطنها، ولكنّ الابنة لم تفهم المغزى من السؤال وأجابتها بكلّ براءة:

_ أنتما الاثنتان.

ارتشقت الكلمة بقلب الأمّ كسهمٍ صائبٍ، يؤكّد لها مخاوفها وظنونها التي بدأ القدر يسوقها إليها.

وبعدما انتهت من شراء الهدية وأوصلتها إلى البيت عادت إلى عيادتها بعد الظهيرة وقد هاتفتها علياء مرّة أخرى لتطمئنّ عليها:

_هل أخبرت وليد يا شيرين؟

_لا، ليس بعد.

_لماذا يا شيرين؟ قلت لك الوقت يداهمنا، لا تستهيني بالأمر، إنك طبيبة كبيرة.

_نعم أعلم يا علياء، ولكنّ الأمر لا يتعلق بالوقت ولا بالمرض والعلم، الأمر يتعلق بعائلتي ونفسيّتهم وتقبّلهم للصدمة غير المهيئين لها الآن على الإطلاق.

_أتودّين ألّا تخبرينهم؟ إن كان على الأولاد فيمكن إخفاء الأمر عنهم في الفترة الأولى حتّى يتهيئون لتقبّله، أمّا وليد فيستحيل إخفاء الأمر عنه.

_ لا أريد أن أشعر أنّ كلّ هذا الحبّ الساكن قلوبهم لي سيتحوّل فجأة إلى شفقة.. ورعاية لأمّ ولزوجة مريضة مسكينة تنتظر الموت، سيتعذّب معها كلّ مَن تحبهم ولا تودّ أن تشاهد لحظة ألم أو عذاب واحدة بأعينهم...

ثمّ انهارت باكية رغمًا عنها.

_لا يا شيرين، أرجوكِ لا تفكّري بهذا اليأس، أنت لست بهذا الضعف، وهذا قضاء الله، ومن المفترض أن تتقاسماه سويًّا بالرضا أنتِ وزوجك، هذا واجبُه أن يكون بجوارك في المحنة، ليس شفقة ولا تفضّلًا.

ـ إنّي منهكة نفسيًّا تمامًا، أشعر بحاجتي للارتواء منهم قبل الرحيل، ولا أريد الألم أنْ يصيب قلوبَهم يكفيهم ما سيحملونه من حزنٍ بعد الرحيل.

ـ شيرين، اتركي الأمرَ برُمتّه لله، ولا تفكّري بهذه السلبية، إنّ هذا أشدّ خطرًا على مناعتك من المرض، يجب أن تقاومي وتقاتلي الانهزام النفسي، ما سيهزم المرض يا شيرين هو اليقينُ والإيمان وحسنُ الظنّ بالله، وأنّ هذا الإيمان الراسخ والعزيمة الذاتية أهمّ من أي شيء حتّى أنّه أهمّ من العلاج الذي لا غنى عنه.

ـونِعْم بالله، سوف أمرّ عندك بالمشفى غدًا لأبدأ الإجراءات.

ـ اليوم وليس غدًا، وإنْ لم تخبري وليد سأخبره بنفسي.

ـحسنًا سأخبره يا علياء.

ـفي رعاية الله حبيبتي.

عادت شيرين إلى البيت ينهكها الفكرُ ويرهبها، وبينما كانت تسبح في خضمّ أفكارها الحزينة، جاءتها جومانه تخبرها بمشكلة مع إحدى صديقاتها بالنادي أثناء التدريب، ولكنّ شيرين كانت تنصت إليها في وجومٍ ملحوظ، ثمّ سألتها سؤالًا مباغتًا بعيدًا عن ذلك الأمر مقاطعة لها:

ـأخبريني يا جومانه، هل مازلتِ تحبّين ميس "هنا"؟

ـ بالطبع أمّي، رغم أنّها لم تعد تدّرسني ولكنّي أُحبّها كثيرًا.

ـلماذا؟

ـلأنّها لطيفة وطيبة، وتحبّ كلّ طلابها، وتهتمّ بهم كثيرًا، كنّا نتفوّق على أنفسنا بمساعدتها، إنّها عبقرية وحنونة. لماذا تسألين يا أمّي؟

_كنت أُفكّر أن أكلّمها لتهتمّ بسلمى بشكلٍ خاص، لتعطها دروسًا بالبيت وأنتِ أيضًا..

_حقًّا أمّي؟ أتمنّى ذلك، ولكني أعرف أنها لا تعطي دروسًا خصوصية.

_ سوف أتحدّث معها في الأمر، ولكن أودّ منكِ أن تطلبين أنتِ منها ذلك أيضًا.

_بالتأكيد أمّي، كم أسعدني هذا القرار.

ثمّ جاءت سلمى بعد أن جهزت الهديّة التي ابتاعتها لمدرّستها لتريها لأمّها في شكلها النّهائي البديع بعد أن كتبت لها في بطاقة صغيرة أرفقتها بالهدية، "أحبّك كثيرًا ميس هنا، ابنتك سلمى".

بعد أن اجترعت شيرين ألم الكلمة بغصّة مريرة، مرّت سحابة من الدمعات كانت على وشك الانهمار، ثمّ تمالكت نفسها سريعًا وقبّلت سلمى قبلةً عميقة مفعمة بالحنان وقالت لها:

_ سوف آتي معك غدًا لنقدّم لها الهدية سويًّا.

فرحت سلمى كثيرًا، واحتضنت أمّها امتنانًا وفرحًا حتّى تركتها لتخلد إلى النوم تحلم باللّحظة التي سوف تسعد فيها مدرّستها بالهدية في الغد القريب، بينما كانت الأمّ تفكّر في حسم أمرٍ ما، أصبح الآن لا مفرّ من حسمه قبل خضوعها للعملية الجراحية التي ربّما لا تعود بعدها إلى مكانها في هذا البيت، الوطن.

ثمّ قالت بنفسها، "لقد فرض القدر مشيئته التي ليس منها مفرّ، وهذه حكمته وإنّي راضية بلقائك يا ربّ العالمين".

لم يعدْ وليد في هذه الليلة إلى المنزل بعد أن اتّصل وأخبرها أنّ لديه عمليات إضافية لحالات حرجة، وسوف يبيت ليلته بالمشفى إلى أنْ ينتهي ويطمئن على حالاته.

وفي اليوم التالي، اصطحبت شيرين ابنتيها إلى المدرسة، ومجرّد ما وقعت عينا سلمى على "هنا" وهي قادمة من بعيد بهيئتها البسيطة، فهي ليست على قدرٍ كافٍ من الجمال الأخّاذ، إنّها فتاة عادية متوسطة الطول، ذات عينين داكنتين كحيلتين جذابتين مفعمتين بالحنان تستقرّ فوقهما نظارة طبية رقيقة، ذات بشرة حنطية تميل إلى الاسمرار، وأنف أفطس بعض الشيء وشفتين متوسطتين متناسقتين مع حجم وجهها الحادّ بعض الشيء رغم ما يخفيه وراءه من طيبة وحنان، نحيفة القوام ممّا يعطها سنًّا أصغر من سنّها الحقيقي الذي قد تجاوز العقد الرابع بقليل، يبدو شعرها الذي يظهر لونه من تحت حجابها أسودًا كالليل قبل أن تتخلله بعض شعرات الشيب في مقدّمته وقد تصبّغت بحمرة تكسوها بل تواريها عن الزمان، أمّا شيرين التي كانت تتفحّصها بتمعّن من سيارتها كانت تعلم بقرارة نفسها ألّا مجال للمقارنة بينها وبين هنا، فهي المشوقة القوام بيضاء البشرة الناعمة منذ نعومة أظافرها ذات العينين العسليتين الواسعتين كالمها تلمعان في أشعة الشمس كقطعتي ذهب براقتين، وأنفها الدّقيق يرتفع فوق شفتين رقيقتين مرتسمتين بعناية تمنحها جاذبية ملحوظة، كان جمالُها الأخّاذ هو أولَ ما يلفت النظر إليها من مدرّسيها وأساتذتها بالجامعة حتّى وليد الذي أحبّها وتزوّجها كان منبهرًا في أوّل لقاء بينهما بهذا الجمال الذي سوف يفتك به المرض اللّعين في لمح البصر، هكذا شردت في المستقبل الذي شوّه لها ذلك الجمال الذي كان سِمةً أساسية من سماتها بجانب ذكائها وتفوّقها دراسيًّا وعمليًّا، لقد كانت حلمًا للحالمين بعيدَ المنال، ثمّ أفاقت لتشاهد لهفة سلمى وهي تقدّم لهنا الهدية بكلّ سعادة.. ابتسمت "هنا" وقبّلتها، وأخبرتها أن تضع الهدية بحقيبتها حتّى ينتهي اليوم الدّراسي، ثمّ تقدّمت جومانه إليها

وعانقتها بودّ كبير، وكانت شيرين ترقب تصرفات ابنتيها معها، ثمّ انتبهت "هنا" إليها وهي تترجّل من السيارة في اتجاهها فرحّبت بها بذات الابتسامة:

_صباح الخير دكتورة.

_أهلًا ميس "هنا"، أودّ الحديث معك على انفرادٍ إذا سمحتِ.

_ولكنّ الحصة الأولى ستبدأ بعد قليل.

_أعلم ذلك لن آخذ من وقتك الكثير.

_ حسًنا، تفضّلي بمكتبي.

_لا، هنا مناسب.. (في أرض المدرسة).

_ حسنًا تفضّلي.

_ أوّد أن أطلبَ منك دون أن تخجليننني أن تهتمّي بدروس سلمى وجومانه أيضًا، أعلم أنّك لم تدرّسيها منذ انتقلت للصف العاشر، ولكنّها تحتاج إلى دعمك وتوجيهاتك.

_ ولكنّي لا أعطي دروسًا خصوصية كما تعلمين وتعلم جومانة.

_ أعلم ذلك، ولكن سيكون فضلًا منك إن اعتبرتِ الأمرَ خدمة جليلة تقومين بها، فإني في الفترة القادمة سأنشغل عنهنّ كثيرًا رغمًا عني، وأبوهنّ أيضًا غير متواجد في أغلب الأوقات، وأخشى أن تضيع عليهنّ الدروس أو أنْ يقلّ مستواهنّ عما عهدناه.

_يمكن لجومانه أن تراسلني في أيّ وقت لأشرح لها ما تريد فمكتبي مفتوح دائمًا لكلّ الطلبة، وبالنسبة لسلمى إنّي أهتمّ بها بالصف، وأظنّني لا أقصر بحقّها ولا بحقّ زملائها.

_أعلم ذلك ولكنّ الأمر ربما...

صمتت قليلًا، ثمّ طلبت من جومانه وسلمى أن تنصرفا إلى صفّيهما.. ثمّ عاودت الكلام معها بانفراد تمامًا..

_ميس "هنا"، أودّ أن تعتبريهنّ بناتك، تمرّ أسرتي بفترة عصيبة لن أستطيع شرح الأمر بشكل مستفيض الآن، وكلّ ما أخشاه أن يؤثّر ذلك على مستواهنّ ونفسيتهن، أنتِ بالنسبة لهنّ لست مجرّد مدرّسة، بل أنت الوحيدة من بين كلّ المدرسين والمدرّسات التي تستطيع أن تدعمهنّ وتهتمّ بهنّ في أصعب اللحظات.

_ما الأمر يا دكتورة؟ لقد انتابني القلق من حديثك.

_يومًا ما سأخبرك بكلّ شيء ولكن ليس الآن، أرجوكِ، الأمر لن يصعب على إنسانة نبيلة مثلك، كلّ ما أطلبه منك فقط هو رعايتهم والاهتمام بدروسهن في الأوقات التي تناسبك، وأعدُك ألّا يخرج الأمر من بيننا كي لا يتسبّب لك بحرج أمام زملائك الذين يعلمون أنّك لا تقدمين على الدروس الخصوصية، أرجوك ألّا ترديني خائبة، يومًا ما ستعرفين أنّك قمت بعمل إنساني كبير لهولاء الفتيات.

_ حسنًا، دعيني أفكّر، ولو أنّي مازلت أشعر بالقلق.

_ فكّري، وكلّ ما تشترطينه سوف أنفّذه دون تردّد.

_ لن أشترط شيئًا، ولكن يجب أن أعرف ما هو الأمرُ الخطير الذي تعتقدين أنه سيؤثّر سلبًا عليهنّ، كي أستطيع تقييم الأمر.

_أعدُك أني سأخبرك في الوقت المناسب، ولكن لا تصعّبي الأمر عليّ الآن.

_ حسنًا دكتورة، سوف أفكّر بالأمر، وأردّ عليك.

_ لن ترفضي، أثقُ بنبلك وحبك للأولاد.

تركتها شيرين وقد كانت دمعاتها محتشدةً على الهاوية حتّى انهمرت بمجرد أن استدارت عنها كالمطر خبئته خلف نظارتها السوداء.

مضت "هنا" إلى الصفّ وهي في حيرةٍ من أمرها، إنّ حديث الدكتورة معها مثير للريبة، ولكنّها تعلم جيدًا مدى احترام هذه السيدة وتربيتها الحسنة لبناتها، فهي ليست في قلقٍ منها، ولكنّ القلق فيما تقول، وماذا عن مبدئها هي، إنّ الأمر محسوم لديها فلا دروس خارج المدرسة منذ بدأت عملها بالتدريس، إنّ مهمّتها هي تعليم الأجيال ووضعهم على أوّل الطريق ليبنوا طريقهم الى مستقبلهم بقدراتهم وعزيمتهم على أسس من العلم السليم.

وعندما انتهت من حصّتها خرجت وراءها سلمى لتعطيها الهدية فشكرتها (هنا) وسألتها عمّا بها، فأخبرتها سلمى ببراءةٍ بأنّه حاسوب حديث ليساعدها على الدّراسة. صُدمت "هنا"، وسرعان ما ترجم الأمرُ بعقلها وارتبط بما قالته الدكتورة في الصباح، وشكّت أنْ يكون هذا الحاسوب مقابل الدّروس التي طلبتها لابنتيها، نظرت "هنا" إلى سلمى بابتسامة مصطنعة تخفي بها التّوجس المختلج بصدرها قائلة:

_شكرًا حبيبتي، لديّ حاسوب جيد.

_ولكنْ يا ميس "هنا" إنّه هدية..

وقاطعتها "هنا" وهي تهمّ بالانصراف:

_حبيبتي، أشكر لك شعورَك الطيب، ولكنّ هديتي الحقيقية هي تفوقك الدراسي الذي يسعدني، أعيدي الحاسوب إلى حقيبتك واشكري لي والدتك كثيرًا.

ومضت "هنا" بطريقها دون أن تنتظر من الطفلة ردًّا.

عادت سلمى إلى البيت تشوبها علاماتُ الحزن جرّاء رفض هنا الهدية، وأخبرت أمّها بما حدث، ففهمت شيرين على الفور سببَ رفضها للهدية، وقالت لسلمى:

_ لا عليك حبيبتي، يجب أن نحترم أسبابَ الآخرين حتّى وإنْ لم نعرفها.

_أخشى أن تكون تضايقت منّي ميس "هنا" يا أمّي.

_ألهذا الحدّ تحرصين على إسعادها؟

_نعم يا أمّي هي كذلك تحرص دائمًا.

صمتت شيرين وهي تعرف جيدًا أنّها لن تستطيع أن تشرح لابنتها لماذا رفضت مدرّستها الهدية الثمينة، ولكنّها تأكّدت من اعتزازها بنفسها ومن مدى تعلّق ابنتها بها إلى حدّ كبير، ممّا زادها إصرارًا على ما تنويه.

وفي المساء، في لقاء يجمع الزوجين بعد غياب أيامٍ انهمك فيها كلاهما بعمله، بدأ وليد بمداعبة زوجته التي كانت تبدي جمودًا غير معهود وكأنّها إليه لم تشتَق، فانتبه قائلًا:

_ اشتقت إليك كثيرًا حبيبتي، أما تشتاقين لي؟

_ إنّي أشتاق إليك حتّى وأنت معي يا حبيب القلب.

_لماذا لا أشعر بلهفتك اليوم؟

قالها وهو يقبّل وجنتيها ويتلمّس شعرها الذهبي المنسدل كالحرير على كتفيها..

_بل أنّني أتلهّف إليك اليوم أكثرَ من أي يوم، ولكني أودّ ألا أرى بعينيك بعد تلك اللّحظة شعورًا آخر.

_أي شعور تقصدين؟

انتبه وليد وقد توقّف عن مداعبتها.

_شعور شفقة سيحلّ محلّ الحبّ والشغف.

_أي شفقة شيرين، لا أفهمك؟

وبعد هنيهة من الصمت المرير شردت بها شيرين، هزمها خوفُها وآثرت ألّا تخبره بما يختلجها من ألم نابض بين جوانحها بعدما كانت عازمة أن تخبره بالأمر في تلك اللحظة، ثمّ قالت بهدوء بعد أن تراجعت:

_ لا شيء وليد، تصبح على خير.

أطفأت الضوء بجوارها، وأعطته ظهرها وهي تعلم جيدًا كم تؤلمه بهروبها، ولكنّها ظنّت أن احتماله لهذا الألم أهون كثيرًا من ألم الصدمة الذي سيجتاحه إن أخبرته بالحقيقة.

نهض وليد من الفراش واتّجه إلى مكتبه ممتعضًا بعضَ الشيء، وأشعل سيجار ينفث به عن إحباطه وعن تعجّبه من تصرفات زوجته الغريبة منذ بضعة أيام، وقضى ليلته محاولًا القراءة حتّى خَلد على الأريكة إلى النوم العميق، بينما كانت شيرين لا تكفّ على وسادتها عن البكاء راجيةً ربّها أن يهوّن على قلبها وقلب زوجها هذه المحنة العصيبة.

وفي صباح اليوم التالي، خرج الجميع إلى حيث وجهته، وظلّت شيرين بمكانها تفكّر في البرودة التي بدت لها على وجه زوجها في الصباح حيث غادر سريعًا وهي تعلم أنّها السبب في ذلك بعدما أعطته ظهرَها عمدًا بالأمس رغم أنها لم تفعل ذلك معه من قبل إلّا في أوقات الإرهاق بعد العمل الشاق، وكان هو يقدّر ذلك، ظلّت تفكّر كيف سيتحمّل الجفاء في الأيام العصيبة القادمة، كيف ستتحمّله هي؛ حيث سيكون أمرًا واقعًا لا مفرّ منه ولا محالة.

ثمّ جاءها اتّصال من علياء بأنّ نتائج المختبر قد ظهرت وعليها الحضور للاطّلاع عليها بنفسها. كانت شيرين لأوّل مرّة تقود سيارتها بارتجاف وانهيار لم تستطع

السّيطرة عليه، ومجرّد ما أنْ وصلت إلى المشفى استقبلتها صديقتها بابتسامة مُصطنعة باهتة، وقد حاولت جاهدةً أن تصمد أمامها كي تحتمل عنها لحظة انهيارها، ولكنّ الصّدمة التي قابلتها شيرين بمجرّد دخولها كانت رؤيتها وليد، لقد سبقها وليد إلى المشفى ليعرف ما الأمر الذي تخفيه عنه منذ بضعه أيام، إنّها عشرة العمر وحبّه الأوّل والأخير، إنّه يفهم جيدًا تغيّراتها دون حاجة إلى الكلام، ولكنّ الأمر في هذه المرّة كان غير مفهوم، لقد صار بين ليلة وضحاها لا يعرفها ويشعر بمسافة كبيرة من الفتور قد حفرت بينهما لا يعرف له سببًا، فجاء ليعرف السبب، حيث قابلته علياء صديقتهما وزميلة شيرين بالتخصّص، وأخبرته بنتيجة الفحص غير المُبشّر، فكان أوّل مَن أصيب بالصدمة وأوّل مَن تحمّلها عن رفيقة دربه التي حتمًا تواجه الآن أصعبَ شعور يمكن أن تصاب به أمّ وزوجة وطبيبة مخضرمة تدرك خطورة الأمر ولن تستطيع أن تمنح نفسَها أملًا طويلًا..

رأتْ شيرين بعيني وليد آثار الدموع التي كانت كافيه لتقرأ بهما ما يحتويه التقرير، وهنا انهار صمودُها بين ذراعيه وضمّها بقوّة الألم الذي شبّ بصدره المحترق عليها ولم تستطع علياء مقاومة الانهيار لما رأته منهما، فالأمر الأن أصبح مؤكّدًا، إنّه سرطان "عنق الرحم".

_شيرين، أهذا ما كنت تخفينه عنّي يا حبيبة القلب والروح؟ أهذا ما لا يجب أن نتحمّله سويًّا رغم كلّ ما تحمّلناه طيلة الدرب سويًّا؟

_ لا أريد لك العذاب ولا لأولادنا يا وليد، إنّه قدري وحدي.

_ لن أسمح لك أنْ تقولي إنّه قدرُك وحدك، كيف يكون قدرك وحدك وأنت أجمل قدر لنا؟

لم تستطعْ شيرين النطقَ وهي في حالة الانهيار الذي حطّم مقاومتها تمامًا في هذه اللّحظة العصيبة، ثمّ قال وليد وهو يمسح عنها دموعها بثبات:

_نحن معًا على الدّرب كما تعاهدنا من البداية، على الدرب حتّى النهاية، ولا أحد يدري متى ولا كيف تأتي النّهاية سوى كاتبها، وربّ العالمين أبدًا لن يخذلنا ولن يضيّعنا.

ثمّ وجّه كلامه إلى علياء:

_ اسمعي علياء، قومي بالإجراءات اللازمة لاستلام حالات شيرين عنها، سوف نسافر إلى ألمانيا فورًا للقيام بعملية الاستئصال هناك بأسرع وقت، دون أن يتسبّب ذلك في التأثير على عملها هنا، ولا أودّ أن يبلغ الخبرُ أحدًا من الزملاء بالمشفى أو بعيادتها وبين مرضاها حتّى تتماثل للشفاء التّام، وتعود كما كانت بل وأفضل ممّا كانت، إنّها محنة عصيبة وسوف تمرّ بسلام، كم مرّت علينا من محن وانتهت وبقينا.

ثمّ قال لها وهو يقبّل يديها ورأسها:

_سوف تصمدين يا حبيبتي، لطالما صمدتِ فوق المستحيل.

ثمّ خرجا معًا ممسكًا بيديها يعبران ممرّ المشفى الذي أضحى اليوم مرعبًا طويلًا مظلمًا غير أي يوم سلكاه فيه.

وفي السيارة وقد كفّت شيرين إلى حدّ ما عن البكاء، وقالت له باهتمام:

_وليد، من فضلك اتّجه إلى المدرسة.

_أي مدرسة؟

_مدرسة سلمى، أم أقول لك، سوف أستقلّ سيارتي وأنت عُدْ إلى عملك.

_ لن أتركك تقودين وأنت بهذه الحالة.

_أنا بخير وليد لا تقلق، لا يجب أن تتأخّر عن عملك، ولا يجب أن أتأخّر عن سلمى لأنّي وعدتها أننا سنخرج سويًّا اليوم لنشتري بعض الأغراض.

قالت له وقد دبّرت هذه الحجّة فورًا برأسها كي تستطيع اللحاق بـ "هنا" قبل انصرافها بعد انتهاء اليوم الدراسي، ثمّ نزلت من سيارته واتّجهت إلى سيارتها مودّعة له بنظرة عميقة يلونها الحبّ العميق.

وصلت شيرين إلى المدرسة، وظلّت داخل سيارتها شاردة، بينما تنتظر خروج سلمى بل الأحرى إنها تنتظر "هنا"، وبينما كانت تشرد وتمسح عنها دموعها التي تساقطت عنوةً بعد علم وليد بأمر مرضها، ورأت دموعَه التي لم ترها إلّا يوم فراق أبيه فهي تعرف جيدًا إنّ دموعه عصيّة ولا تنحدر أبدًا إلّا لأمرٍ جلل يصيب مَن يحب.

وباتت الأسئلة القاهرة تدور برأسها، هل سينساني؟ هل سأصبح له مجرد ذكري تمرّ عليها السنوات، تسكن القبر بعدما سكنت القلب، هل سيأتي ليزورني باستمرار أم ستشغله الحياة عن ذكْري، ليت الموتَ يهاجمنا دفعة واحدة فيرحمنا من الموت ألف مرّة في هذا العذاب بانتظاره.

انتبهت شيرين وقت فتح باب المدرسة، ورأت "هنا" تغادر، في حين أن سلمى لم تخرج، فنادتها فرحّبت بها في شيء من الفتور:

_أهلًا دكتورة..

_ أهلًا "هنا"، يمكنني أن أُوصلك.

تعجّبت "هنا" وابتسمت ابتسامة باهتة، وقالت:

_أشكرك، لا داع لذلك.

ـ الحقيقة أني أودّ التحدّث معك قليلًا بمكان نشرب به بعض القهوة، أرجو ألّا ترفضي، الأمر لا يحتمل الرفض أو التأخير.

ـ أظنّ يا دكتورة أنّني فهمت ما ترمين إليه بهديتك الثمينة التي جاءت بها سلمى، ولكنّي آسفة فلن أستطيع أن أغيّر مبدئي الخاصّ وقناعتي.

ـأرجوك لا تسيئي الظنّ بي وبسلمى، إنّها مَن اقترحت أن تحضر الحاسوب لأنّها رأت أنّه مناسب لك في عملك، وأظنّ أنها فعلت ذلك بعفوية لأنّها تحبّك وليس لي أي علاقة بهذا الأمر، من فضلك اركبي ودعينا نتحدّث سويًّا في أمر آخر يجب أن أخبرك به الآن.

وبعد تردّد وترقّب بدا على وجه "هنا"، استقلت السيارة بجوار شيرين وانطلقت بها إلى حيث مكان هادئ قريب.

وبعد أن طلبا القهوة، كانت شيرين تبدي جمودًا وشرودًا غريبًا، بينما "هنا" تنتظر أن تبدأ الكلام حتّى تنهي هذا التوتر المخيم عليها وتقطع من عقلها الظنون، فبادرتها شيرين قاطعة الصمت المرير:

ـ لن أخفي الأمرَ عليك، بإيجاز لقد علمت اليوم أنّي مصابة بورم خبيث في درجة متقدّمة، ولا أعلم إلى أيّ مصير سوف أترك أطفالي، لذلك طلبت منك رعايتهم لأنك أكثرُ مَن يرعاهم بصدق، وأكثر مَن يحبّونها بصدق، هذا كلّ ما في الأمر.

جمّدت الصدمة "هنا" في مكانها، ولم تعرف ماذا تقول، وقد انهمرت دموع شيرين انهمارًا قويًّا صامتًا وأكملت "هنا":

ـ دكتورة، أرجوك، هوّني على نفسك، إنّ الله رحيم بنا ويرعانا جميعًا، وأبدًا لم ولنْ يخذلنا، سوف يتمّ الله عليك شفاءك لتبقين بين عائلتك ومن أجلهم، فقط ثقي به.

_ أشكرك على مواساتك الرّقيقة، ولكنّ الأمر لا يحتمل أي مواساة، سوف أسافر في خلال أيام لإجراء عملية جراحية بالخارج، وسوف أترك أولادي، ولا أعلم إن كنت سأعود وألقاهم أمْ أنها ستكون المرّة الأخيرة.

_أرجوك دكتورة، اتركي الأمر لله وحده، وكلّ شيء سيصبح بإذنه على ما يرام. واعتبري أولادك أمانةً عندي حتّى عودتك سالمة معافاة بإذن الله.

_هذا ما عهدته فيك من نُبل، ولي طلب أخير، أرجو أن تعتبرينني أختًا لكِ فلا تنادني دكتورة، أشعر أنّك في هذه اللحظة أقربُ لي من الأقربين، الذين لم أبلغهم بعد بهذا الأمر.

_ وأنك لأكثر من أخت، كم وددت لو كانت لي أخت.

_ ليس لديك أخوة؟

_ لي أخان مسافران.

_وأبواك؟

_أعيش مع أمّي أرعاها بعد فراق أبي الذي لم أره.

_ إنسانة جميلة الرّوح مثلك لماذا لم تتزوّج؟

شردت "هنا" وقد انكسرت نظرتها إلى المدى، ويبدو أنها تذكّرت شيئًا لا تودّ أن تذكره، فابتسمت وقالت:

_ نحن لا نملك أقدارنا دائمًا.

_نعم نحن لا نملك شيئًا على الإطلاق.

قالت شيرين بيأس واستسلام، ثمّ استطردت:

_ أودّ أن تنتقلي للبقاء مع الأولاد بالبيت بفترةِ سفري، لا أودّ تركهم بمفردهم مع المربّية.

_اعذريني دكتورة، لا يمكن أن أظلّ بالبيت، يمكنك أن تتركيهم وتأمنيهم فسوف أهتمّ بهم، كما أنّ الأمر يجب أن يبدو طبيعيًّا أمام الأولاد، فتصرّفي كعادتك معهم في سفراتك للخارج.

_ لا أودّ أن أثقل عليك يا "هنا"، ولكن أرجوك ألّا تتركينهم للحزن.

_ لن أتركهم أبدًا، هُم بأمانتي حتّى تعودي سالمة معافاة.

ثمّ أخرجت شيرين ورقة صغيرة من حافظتها وكتبت عليها أرقام الهواتف وأعطتها لها قائلة:

_هذا رقمي، وهذا رقم وليد زوجي، سيرافقني ويكون على اتّصال بالأولاد وبكِ.

_حسنًا دكتورة.

_ لست دكتورة، قلت لي للتوّ أنّي أخت لكِ.

_ حسنًا شيرين، سوف أطمئنّ عليك دائمًا.

انتهى اللقاء، ورغم أن "هنا" قد تعاطفت مع هذه الأم الحزينة بكلّ جوارحها، وقرّرت أن تحمل معها بعضًا من ألمها برعايتها للأولاد الذين تحبّهم، إلّا أنّ الأمر الذي حسمته شيرين بأعماقها كان أكبرَ من مجرّد رعايتها الأولاد، الأمر الذي لم تفصح عنه حقيقةً هو اختيارها لرعاية وليد أيضًا، ولكنّها لا تستطيع أن تخبرها بذلك الآن ولا تستطيع أن تخبر وليد؛ فهي تعرف أنه سيرفض هذا الأمر رفضًا قاطعًا، ولكنّها

كانت ترى أنّ هذا هو أنسب شيء يطمئنها على عائلتها بعد الرحيل، وعلى وليد أن يتقبّله من الآن، ثمّ خرج صوتها من الأعماق وقالت لنفسها:

ـ ربما لن يمنحك وليد قلبه، ولكنّه سيتفهّم جيدًا أنك الأنسب لرعاية أولاده بعدي.

***

كانت شيرين تحضر نفسها للسفر بعد أن أتمّ وليد جميع الإجراءات مع المشفى بألمانيا، وقد راسل الطبيب هناك، وأرسل له جميع التقارير الطبية مصارعًا الوقت العصيب، وكان يقوم بتحويل حالاته التي ارتبط بمواعيد عمليات معها إلى زميل له حتّى لا يتأخّر موعد عملياتهم. لقد أصبح في الموقف الذي لا يستطيع أن يقبل فيه فكرة ضياع الوقت والتأخّر لأي سبب عن مريض مهْما كانت أسبابه، وبينما كان وليد الجرّاح المعروف جالسًا بمكتبه أمام تقارير الفحوصات التي تخصّ زوجته ينظر إليها بعين الصمت المرير والتي جمد على سطحها أحرّ الدّموع، في تلك اللحظة مرّ أمام مخيّلته أوّل يوم التقاها حيث كان معيدًا جديدًا بالقسم وهي لاتزال طبيبة امتياز حديثة التّخرج، كانت تحت التّدريب بقسمه، لقد لفت نظرَه جمالها الأخّاذ يوم تعقّمت وحضرت معه أوّل عملية لها، وبينما كان يعمل ويشرح للنواب وأطباء الامتياز ما يقوم به أثناء العملية إذ بها سقطت أرضًا دون أيّ إنذار بجواره، فالتقطها زملاؤها وأخرجوها من الغرفة سريعًا، وبعد انتهائه من العملية خرج فورًا لا يدري لماذا كان يبحث عنها ليطمئنّ عليها، ولكنها كانت قد غادرت بعد إفاقتها خجلًا ممّا حدث، غابت بعدها بضعة أيام حيث كان ينتظر أنْ يراها، وكلّ يوم كان يسأل عنها زملاءها، حتّى عادت إلى العمل بعد بضعة أيام فرقص قلبُه طربًا وفرحًا فأدرك أنها هي مَن يبحث عنها لتشاركه حياته. كان وليد الابن الأكبر لأبوين ميسورين الحال، كان يحب

أباه كثيرًا، والذي تربّى على يديه هو وإخوته تربية سليمة، جعلت النّظام والتفاني في العمل هي سماتهم وأسلوب حياتهم، فلم يكنْ وليد ولا إخوته من الأبناء المدلّلين ولا مِن هؤلاء الشبّان الذين يقعون في غرام الفتيات مرارًا ويطاردونهم تكرارًا قبيل الزّواج استهتارًا بلا أي هدف؛ لأنّ الله كان رقيبًا عليهم في سرّهم قبل علانيتهم ولأنّهم لم يعرفوا في بيت والديهم إلّا المعنى الحقيقي للأخلاق الحميدة وللمودّة والرحمة المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالاستقرار، وقد ربّاهم والدهم أيضًا على الالتزام الديني ومراقبة الله في أفعالهم وأعمالهم، لذلك عندما خفق قلبُه للمرة الأولى ناحية تلك الفتاة التي خطفته بجمالها من أوّل وهلة؛ أدرك يومَها أنّ هذه الفتاة هي من سيسعى أن تكون شريكته طوال العمر، كان يفكّر في جمالها الأخّاذ ونظراتها الخجولة كلّما أصابت عيناه عينيها فتهرب منهما خجلًا يورّد وجنتيْها ويبعث طيفًا من الأمل في انتظار اللقاء الجديد..

بدأت أحاديثهما تزداد عذوبة في كلّ مرّة يقضيان فيها الوقت الطويل ما بين غرفة العمليات وغرف المتابعة والإفاقة، تحدّثا سويًّا عن طموحهما وأحلامهما في المستقبل وقد شعر وليد أنّها أنسب مَن يمضي معه في طريق طموحه لما تتميز به من قوّة وطموح وتفانٍ في العمل وإخلاص، كان ينبهر كلّما رأى عذوبة ابتسامتها التي تشرق على وجهها البريء كلّما شفيت حالة صعبة بعد عملية دقيقة، كانت صديقةً للمرضى يحبّونها، وينتظرون مواعيدها بشغف كما كان ينتظرها هو أيضًا، وبعد انتهاء تدريبها وقرب انتهاء العام حيث اختارت هي تخصّص الولادة، وكانت تحلم به منذ التحاقها بالكلية، وقد جمد قلبُها لاقتحام غرفة العمليات بلا تردّد أو رهبة وأصبحت بكفاءتها وعلمها تستطيع الإمساك بالمشرط دون عناء ولا إغماء لتولد بين يديها الحياة. صارحها بإعجابه مباشرة بعد أن أخذ موافقة أهله في الارتباط بها، وتمّت خطبتهما في

جوّ عائلي بهيج، ولم يمرّ وقتٌ طويل حتّى تزوّجا بكلّ يسرٍ ليكملا معًا درب الحياة الطويل لآخر العمر.

_هل جاء آخر العمر بهذه السّرعة يا حبيبتي؟ إنّي حقًا لا أصدق.

قال وليد بنفسه وهو يتمزّق بداخله ألمًا وحزنًا، إنّ أجمل سنوات العمر قد تسرّبت من بيننا وحان وقت الرحيل، ثمّ وضع رأسه بين كفّيه داعيًا الله أن يهون الألم على روحها النقيّة، وأنْ يعينه على احتمال الفراق إنْ كان هو القدرَ المحتوم.

دخل يوسف إليه، ويوسف هو شريكه بالمشفى وزوج أخته غادة وصديقه المقرّب، وقد انتبه لوليد في وجومه وهو يمسح دمعاته سريعًا فوْر دخوله:

_ وليد!! ما الأمر؟ لمَ كلّ هذا الحزن على وجهك؟ ولم قرّرت السفر فجأة لألمانيا.

ثمّ أشار له على التقارير الموجودة على سطح المكتب، فاطّلع يوسف عليها وقد عقد حاجبيه في اقتضاب مفاجئ ملتزمًا الصّمت من وقع الصدمة بعدما قرأ اسم المريضة ليجدها شيرين، وبعد برهة بادر وليد قائلًا بصوت تهدّج من الألم:

_إنني أواجه أصعب فراق بحياتي بعد والدي يا يوسف.

_لا أدري ماذا أقول، ولكنّ معجزات الشفاء تتحقّق رغم الاستحالة التي نعرفها نحن الأطباء، فحسابات الله غير حساباتنا، مهما ادّعينا من مهارة ومعرفة.

_ أي شفاء يا يوسف؟ لديك حالة ورم خبيث متقدّمة، عن أي شفاء تتحدث وأنت طبيب قرأ الآلاف من الكتب والمراجع العلمية وتعامل مع الآلاف من المرضى.

_ الله أكبر من كلّ هذا يا وليد، ونحن ما أوتينا من العلم إلّا قليلًا، يجب أن تثق في الله فقط، هذه المحنة العصيبة لن تمرّ إلّا باليقين بأنّ الله قادر على كلّ شيء. اهدأ وليد، سوف أرتّب أموري لألحقكما بألمانيا، لا يجب أن تكون وحدك في هذه المحنة.

_ لا تخبر غادة ولا أمّي ولا أيّ أحد من العائلة يا يوسف من فضلك.

_ لماذا يا وليد؟ لا يجب أن نترككما في هذه المحنة.

_ لا تريد شيرين ذلك، أنت تعرفها.

_ حسنًا، لا تحمل همّ الأولاد، سوف أخبر غادة أنّكم في سفرة لمؤتمر طبي بالخارج لتقيم مع الأولاد حتّى عودتكما. متى حدّدت السفر؟

_باكر.

_إذًا هيّا لأوصلك إلى البيت، يجب أن تنال قسطًا من الرّاحة، وأودّ التحدّث مع شيرين قليلًا.

_ لا أظنّها ستخبر أحدًا من العائلة عن هذا الأمر الآن على الأقلّ حتّى نجتاز شوطًا من العلاج وتستعيد الأمل في الشفاء.

_ حسنًا وليد، كان الله معكما وأتمّ عليها شفاءه العاجل.

وشيرين تلك الأمّ المسكونة بأنهار الحنين، وذلك الخوف الرهيب الذي تملك منها في تلك الليلة المريرة الصعبة على روحها وهي تحتضن بعينيها جدران هذا البيت الدافئة، ووجوه أولادها الأبرياء التي ظلت تتمعّنها بحبّ عميق يفيض من القلب المكلوم، ليشعر لآخر مرّة بالسّكينة والأمان، إلام سأترك جدران مملكتي وأرحل وحيدة؟ كيف تكون تلك هي الليلةَ الأخيرة التي أرى فيها صغاري وعمري الذي

أزهر بهذا البيت دهرًا أن تكون تلك نهايته، يا له من ابتلاءٍ قاتل يا ربّي، كيف سأحتمل فراق أحبّائي تلك المرّة في صمت وثبات.

وانْهارت تمامًا، حتّى عاد وليد ليجدَها في حالة يرثى لها، وسألها بقلق:

_ شيرين، حبيبتي ماذا حدث؟

_ وليد، أرجوك، لا أريد السفر.

_ولكن...

_ أرجوك وليد، أريد أن أبقى هنا.

احتضنها وليد بقوة محاولًا تهدئتها وإخماد الحزن المضرم في أعماقه، ولم يستطع أن يقنعها لأنّه هو ذاته كان يرهب تلك السفرة.

_حسنًا حبيبتي، لنبقى هنا كما تحبّين ولنستعين بأكفأ الأطباء الزملاء الذين سوف يبذلون قصارى جهدهم بالتأكيد. (قال حاسمًا).

وفي اليوم التالي، وقد اتّخذا قرار البقاء، وقد ألغى وليد السفر بعد انهيار شيرين وعدم قدرتها على تحمّل وداع أولادها وداعًا قاسيًا من فرط خوفها أن يكون الأخير. ذهبا معًا إلى أستاذٍ كبير بالجامعة قد عملت معه شيرين لسنوات قبل أن يلمع اسمها في ذات التخصّص، واستقلّت بعيادتها فيما بعد، وعملها بالمشفى التي يملكها زوجها.

وفي عيادة الطبيب الكبير، جلس الزوجان المستسلمان لمشيئة القدر، حيث بادرهما الدكتور بكلام يشوبه الحزن والاقتضاب:

_لا أدري ماذا أقول وأنتما من أمْهر وأكفأ الأطباء، ولا أستطيع إخفاء صعوبة الأمر عليكما أو تزيينه بالأمل البعيد، لا بدّ من استئصالٍ للورم بأسرع وقتٍ خوفًا من انتشاره، بل من الأفضل استئصال الرّحم بأكمله في مثل تلك الحالات الصعبة،

وأنتِ تعلمين ذلك دكتورة شيرين، وهذه هي الخطوة الأولى في الطريق الطويل للعلاج، وسوف نبدأ فورًا العلاج الكيميائي والإشعاعي والمتابعة الدقيقة للتطورات حسب الأوضاع المستجدّة.

_أثقُ بقرارك بروفيسور، ولنبدأ اليوم.

قال وليد متحمسًا مطمئنًا ممسكًا بيدِ زوجته التي كان الصمت البليغ هو لغتَها الوحيدة في هذه اللحظات العصيبة.

_سَلّمي الأمر كلّه لله يا ابنتي، أنت قوية وستتجاوزين المحنة بإذن الله.

قال الطبيب الكبير محاولًا أن يهدّئ من روْع الطبيبة المنكسرة الحزينة..

هكذا يحوّلنا الابتلاء فجأة من وضع المُشفِق لوضع المُشفَق عليه، هكذا تحوّلت الطبيبة التي تعاملت مع آلاف الحالات وأصعبها بكلّ حسم وجَدّ إلى حالة لا تستطيع التعامل مع نفسها، نحن نفقد تلك القوة التي نمنحها للآخرين ونساعد بها الآخرين عندما يتعلّق الأمر بنا وبضعفنا، فنستسلم وكأنّنا لم نكن يومًا أقوياء. في مثل هذا الابتلاء نحن لا نستمدّ القوّة من ذواتنا المسكينة، التي نشفق عليها وعلى ضعفها بالبكاء والدّعاء، لا نستمدّها إلّا يقينًا بربّ العالمين.

تمّ حجز شيرين بالمشفى لتحضيرها على الفور دون تأخير، واتّصل وليد بأمّه وغادة لتذهب لتقيم مع الأولاد حتّى عودتها بعد بضعة أيّام ولم يخبرهما بالأمر. وبينما كان وليد يقوم باتصالاته لترتيب كلّ الأمور كانت هي أيضًا تقوم باتصال واحد فقط، مع "هنا":

_ كيف حالك يا "هنا"؟

_الحمد لله دكتورة، كيف حالك؟

ـ سوف أجري العملية اليوم، ولا أعلم ماذا بعد، لقد ودّعت أولادي في الصباح، وإنّهم الآن في أمانتك، فربما كانت هذه محادثتي الأخيرة.

انتفضت "هنا" من مقعدها، وقالت بتوتر خيّم على نبرة صوتها:

ـ ستتعافين بإذن الله، كوني على يقين.

ـ أرجوك يا "هنا"، لا تتركي الأولاد الذين لا يعرفون شيئًا عن مصيرهم المرتقب، لا تتركينهم يتألمون، إنهم أولادك من الآن، وداعًا.

وأغلقت الخط وارتجف قلب "هنا" قلقًا، إنه شعور غامض يجتاحها، يرجّ كيانها، لأنّها مَن تشعر كيف يكون اليتم المبكّر وأثره ألمًا واقعًا على قلوب هؤلاء المساكين مثلما كان واقعًا على قلبها طويلًا!، فتضرّعت إلى الله بقلبها في هذه اللحظة العصيبة أنْ يحيط برحمته هذه الأمّ ويعيدها سالمة من أجل أولادها، ويرفع عنها آلامها القاسية، وينقذها من براثن هذا المرض اللعين.

ـوليد، أحبّك كثيرًا..

قالت شيرين في اللّحظة الفاصلة بين الحياة والموت، والتي فتحت فيها غرفة العمليات على مصراعيها ليتسلّل إلى الروح رهبتها، للمرّة الأولى ترهبها الطبيبة المُخضرمة مثل هذه الرهبة القاتلة ولا تعلم أي مصير ينتظرها بداخلها رغم كلّ محاولات الثبات الذي تتمسّك به، ممسكة بيدي شريك العمر والقلب تودّ ألّا تتركها أبدًا...

ـحبيبتي، عديني أنّك لن تتركيني أبدًا كما عاهدتني منذ زواجنا يا شيرين.

قال وليد وقد انفلت زمام التماسك والصمود، وانْهمرت دمعات الخوف الأخيرة، وهو يقبّل رأسها ويديها بشغف عميق.

_لا تنسني يا وليد، لا تنسني يا حبيب العمر.

في لحظات الفراق الأخير، نتمنّى أن يتوقّف الكون عن الدوران، والزمان عن الرحيل، نتمنّى أنْ نطيل النظر في عيْن مَن نحب طويلًا، نضمّهم قبل أن يضمّنا الفراق، نتمنّى أن نخبرهم بكلّ شيء يختلجنا بشكل عشوائي ويجتاحنا بلا ترتيب ولا أسباب، نتمنّى أن نخبرهم بما لم نخبرهم به من قبْل مرّة واحدة، أن نعشقهم كما لو لم نعشقهم من قبل، وألّا نصمت في هذه المرّة قبل الصمت المحسوم.

افترقت الأيدي المتعانقة، ودخلت شيرين إلى مصيرها وحدها، وجلس وليد بطرقة المشفى وحيدًا، ضائعًا، في انتظار رحمة القدر.

في هذه اللحظة التي يعجز الطبيب عجزًا عن مداواة نفسه، حتّى أنه لم يعدْ يتذكر حرفًا من كتابٍ طبي أو مرجع علمي يواسيه ويخفّف عنه حزنه المرير، مهْما كان الأملُ موجودًا أو مفقودًا، كلّ ما يردّده في أعماقه هي أحرف الكتاب الإلهي وكلماته الشّافية... في هذه اللحظات الحاسمة يكون اللهُ هو السميع الوحيد، هو الجوار الوحيد، هو المنجّي الوحيد ولا منجٍّ سواه.

مرّ شريط الذّكرى البعيدة أمام وليد يقطع ضجيج الانتظار "ذلك الشاب الصغير الذي ظهر نبوغُه بالدراسة منذ الصغر فكان أقرانُه يطلقون عليه النابغة، لقد كان موهوبًا، قبل أن يكون مجتهدًا، وقد صقل اجتهاده موهبته الفذّة في التحصيل الدراسي بشكل مُلْفت لنظر جميع مدرّسيه في كلّ المراحل، فكان تفوّقه ملحوظًا، لقد كان لا يعرف الهزيمة أمام مسألةٍ صعبة في الرياضيات أو معادلة كميائية غير مفهومة، كلّ شيء بالنسبة له كان سلسًا ممّا كان يزيد التفاف رفاقه حوله ليشرح لهم ما لا يستطيعون استيعابه من أوّل وهلة مثله، وأحيانًا ما كان ذلك يثير بعض الأحقاد بداخل بعضهم

ممّا كان يشعل روحَ المنافسة التي كانت تشغفه شغفًا وهو يعرف جيدًا أنها محسومة له في النهاية"..

"لم أعرف يومًا الهزيمة التي تكسر الروح وتوهنها إلّا اليوم"

قال في قرارة نفسه، ثمّ عاد شاردًا إلى بعيد الذكريات...

(كنت متفوّقًا بالفطرة، أحبّ الدراسة والعلم والقراءة دائمًا، إلى أن قرّر أبي السفر للعمل بالخليج، وكان عليه أن يصطحب عائلته معه، كنت بوقتها بالصف السابع ولم يكنْ لي حقّ اختيار بقائي بعيدًا عن والدي، فأكملت بقية مراحل تعليمي إلى الثانوي بالخارج، لقد تلقيت أفضل تربيةٍ وأفضل تعليمٍ من أبي المهندس المخضرم الذي أدار أكبرَ الشركات بالخليج، هكذا نشأت في بيتٍ مستقرّ ميسور بين أهل متفاهمين مترابطين لا ينقصهم شيء. لقد كنت منعوتًا بين رفاقي العرب وغيرهم بالفرعون النّابغة، وكنت دائمًا الأوّل عليهم بلا منازع رغم وجود بعض المنافسين وأغلبهم من أبناء وطني المصريين الذين لا أعلم لماذا يبرعون بالخارج إلى حدّ كبير بينما لا يستطيعوا أن ينجحوا بالأرض الخضراء وطنهم الأمّ، ربما نحن نعرف الأسباب جيدًا ولكنّنا نخشى أن نذكرها حتّى في أنفسنا، حتّى إنني صرت فيما بعد أوصي رفاقي ألّا ينعتونني بالفرعون، حتّى وأنا أعلم جيدًا بداخلي أنهم ينسبونني إلى مجد الحضارة التي زالت عن مصر عبْر القرون المظلمة، ولكنّ الفرعون كانت تعني لي معنى آخر لا أحبّ أن أكون عليه ولو بالمزح، ثمّ عدتُ إلى الوطن لألتحق بالطب، الحلم الذي كنت على يقينٍ به، لأصبح ذات يوم جرّاحًا كبيرًا، يعالج أصعب الحالات ولا يرهب الموت... إنّ الأمل الذي كان يولد من جديد بعدما تكتب لمريض ميئوس منه على يدي حياة جديدة؛ كان كفيلًا بأنْ يجعلني متّقد الحماس دائمًا لأخرج كلّ ما عندي من مهارة ليس فقط بالعلم، بل بإبداع، بمجرّد ما أن أدخل في حالتي بغرفة العمليات، أشعر بأنني أبدأ العزف

بأصابعي على قيثارة ساحرة لحنًا بديعًا يسري بين شرايين وأوردة المريض، أشعر وكأنّ سيمفونية مكتملة النغمات يسمع سحرها المريض في غيبوبته وتبعث إلى روحي شبقها وشغفها حتّى أنتهي كمايسترو ينهي سيمفونيته العذبة بنغمٍ ساحر يسري في الوجدان يحيي ما تبقّى في الروح من أمل. وتصلُ روحي إلى بالغ نشوتها وقت النهاية، حيث تدبّ بروح المريض الحياة من جديد.

وإلى الآن ينعتني رفاقي بالمجنون، رجل الصعاب، متحدّي الخطر، هذا الرجل لا يستطيع الآن أن يقف على قدميه ليرى رفيقة دربه على طاولة الموت، لا يستطيع في تلك اللحظة أن يتذكّر مِن أين يمسك المشرط، ومن أين يشقّ الجرح، ومن أين يقفله ويضّمده بخفة أصابعه الذهبية التي تجمدت في تلك اللحظة، في تلك اللحظة تنحّى الطبيبُ الكبير عنّي وتوارى، وتملّك منّي الطفل الضائع الذي يبكي خوفًا من الفقد ولا يعرف دون وطنه عنوانًا"..

"صوت عقارب الساعة صاخب جدًّا لا يحتمل، لماذا تفتعل هذا الضجيج المزعج بهذه القسوة في أشدّ اللحظات، لماذا يختلج مع كلّ دقة من دقات الساعة قلبي المرتجف من الخوف، هذا هو إذًا الخوفُ اللعين، الرهبة من مواجهة الموت، من مواجهة المجهول، شعور الفقد الأليم الذي لا أستطيع احتماله على نفسي لقلّة ما احتملته بعد عودة حالاتي الميئوسة إلى الحياة، أنا حقًّا لا أعرف كيف عليّ أن أحتمل هذا الفراق وكيف عليّ أن أصمد، فإنّي اعتدت دومًا ألّا أخشى الموت، واليوم فقط عرفت كيف أخشاه".

ووضع رأسَه بين كفّيه متضرّعًا في صمت يناجي ربّه مناجاة خفية لعلها طوق النجاة.

حتى رنّ هاتفه، رقم لا يعرفه فهو لم يكن يردّ على أرقام العائلة التي لا تعرف شيئًا عن الأمر إلّا يوسف، ربما تكون إحدى حالاته والطبيب لا يتأخّر أبدًا عن حالاته حتّى وهو يمرّ بأصعب الظروف:

_نعم، مَن معي؟

_ آسفة دكتور وليد، أنا "هنا" مدرّسة الأولاد بالمدرسة.

_نعم، تفضّلي..

_ أريد أن أطمئنّ كيف حال الدكتورة شيرين، أعلم أنها تخضع لعملية كبرى، أخبرتني بهذا الأمر صباحًا.

_ مازالت بغرفة العمليات.

_ آسفة لإزعاجك، ولكنّي وددت الاطمئنان.

_شكرًا لك، من فضلك لا تخبري أحدًا من الأولاد، هُم لا يعلمون.

_نعم، أعرف ذلك لقد أخبرتني الدكتورة، سوف أعاود الاتصال للاطمئنان عليها لاحقًا.

ثمّ أغلق الهاتف متعجّبًا من هذا الفعل الذي قامت به شيرين لتخبر مدرّسة الأولاد، وتساءل بداخله لماذا أخبرتها شيرين بأمرٍ لم تخبر عائلتها به؟ وبينما كان يجهد نفسَه بالتفكير خرج الطبيب وقد فتحت غرفة العمليات على مصراعيها بالأمل البعيد، انتفض وليد يتفحّص ملامح الطبيب التي كانت واجمة لا تعبّر عن شيء، حتّى اقترب منه وكان وليد ينظر إليه نظراتِ توسّل ألّا يخبره بالنهاية، ثمّ قال:

_ استأصلنا الورم بفضل الله دون الحاجة لاستئصال الرّحم بأكمله، وحالتها مستقرّة وسوف نتابع القضاء على توابعه مع قسم الأورام بعد وضع بروتوكول

للعلاج الكيميائي والإشعاعي، وقبل ذلك الإرادة، أقولها مرّة أخرى، الإرادة يا دكتور وليد.

_حمدًا لله..

قال وليد فرحًا وحمدًا بعدما تسلّلت السّكينة إلى أعماقه في تلك اللحظة، رغم المشقّة التي ستبدأ في رحلة العلاج الأصعب، ولكن في مثل تلك الحالات المستعصية مجرد أن يهب ريحُ الأمل على الأرواح فقد تمنحها حياة جديدة وعمرًا جديدًا..

خرجت شيرين من العمليات إلى الإفاقة، وحينها اتّصل بيوسف ليخبره بالخبر، وإنّ الأمل مازال موجودًا في الشفاء، هنّأه يوسف بنجاح العملية، والذي كان لا يعلم أنهما بمصر ولم يسافرا، فشرح له وليد الأمر فجاءه يوسف على وجْه السرعة:

_ حمدًا لله على سلامة شيرين، أعطني التقرير الجراحي لنبدأ فورًا مع فريق علاج الأورام.

_سوف أقوم باللازم يا يوسف لا تقلق، يكفيني أنّ الأمل مازال حيًّا.

_حسنًا وليد، هل ستخبر الأهل؟ أظنّ أنه يتوجّب عليك الآن أن تخبرهم.

_لا أعرف، ربما تخبرهم شيرين كما أخبرت مدرسة الأولاد، ولا أفهم لماذا أخبرتها!!

_ لا أعرف ولكن ربّما أوصتها بالأولاد.

قال يوسف ولم يطِلِ التفكير بالأمر الذي رآه عاديًّا، ثمّ استطرد:

_ كيف حالتها الآن؟

_مازالت في الإفاقة، ولكنّ حالتها مستقرّة.

تردّدت "هنا" كثيرًا وهي تفكّر بتشتت هل تعاود الاتّصال للاطمئنان على شيرين أم لا، لقد كانت في قلق كبير، ثمّ فضّلت أن تتّصل بسلمى وتطمئنّ عليها وعلى أخواتها،

حيث تفاجئت سلمى باتّصالها فهي لا تعتاد بها الاتّصال، وسألتها إن كانت تريد شيئًا أو إنْ كان هناك صعوبة في فهْم الدروس فلتمرّ عليها في اليوم التالي بعد انتهاء اليوم الدراسي، ثمّ عاودت التردّد بشأن الاتصال بوليد مرّة أخرى، ثمّ تراجعت.

استفاقت شيرين لتجد وليد بجوارها مبتسمًا، وهو يربتُ على رأسها ويقبّل يديها قائلًا:

_لقد وعدتني ألّا تتركيني، وها قد أوفيت وعدكِ.

ابتسمت شيرين وسألته:

_ماذا أخبرك الطبيب بعد العملية؟

_أوصى بالإرادة، وأنا أعرف إرادتك وقوّتك يا حبيبتي.

_اشتقت لأولادي يا وليد، متى سأخرج من هنا؟

_إنّهم لا يعرفون أننا مازلنا بمصر شيرين، وسوف يسألون لماذا لمْ نسافر، سوف نبقى هنا حتّى يحدّد لنا قسم الأورام بروتوكول بداية جلسات العلاج الكيميائي.

_ اتّصل بجومانة، أريد أن أسمع صوتهم.

_حسنًا يا حبيبتي، ولكنْ كوني مرتاحة.

واتّصل بجومانه أمامها لتسمع صوتها، ثمّ حادثته سلمى، وسألته عن أمّها فأخبرها أنّها مازالت بالمؤتمر، فقالت له:

_ حسنًا، أخبرها أني اشتقت إليها كثيرًا، وأخبرها أيضًا يا أبي أنّ ميس "هنا" اتّصلت بي مرّتين اليوم.

_ميس هنا!! أهي مدرّستك؟

_ نعم يا أبي، مدرّسة اللغة العربية.

_ حسنًا حبيبتي سأخبرها، انتبهي لنفسك ولدراستك.

كانت شيرين تستمع إلى المحادثة بوهنٍ وفرح، وبعد أن انتهى وليد، سألها:

_ مَن تكون ميس "هنا"؟ لقد اتصلت بي أيضًا لتطمئنّ عنكِ وقت كنتِ بالعمليات وأخبرتني أنها تعلم بالأمر.

حاولت شيرين الهرب من الإجابة بعشوائية فهي لم تكنْ بكامل وعيها كي تجيب وليد عمّن اختارتها بديلًا عنها زوجةً له فهو لن يستوعب الأمر ولن يتقبّله في هذا الوقت، فقالت له:

_ أشعر بالألم ينتابني مجدّدًا، لا أستطيع الكلام والحراك.

_ حسنًا حبيبتي، ارتاحي الآن.

واستدعى المُمرضة لتحضر حقنة أخرى من مسكن الألم، لتخلد شيرين إلى النوم مرّة أخرى.

مرّت بضعة أيام وقد استقرّت حالة شيرين إلى حدٍّ ما، ولكنّ الخطر لم يزل بكامله، فلا أمهر طبيب يستطيع أن يتوقّع متى يعاود المرض هجمته الشرسة، وفي أيّ مرحلة سيفتك بفريسته، إنّه صراع ضارٍ بينه وبين الجسد وبين الزمن، بينه وبين الإرادة، وإنّما القدر فقط مَن يحسم النهاية.

بدأت شيرين تتهيّأ وتستعدّ للوضع الجديد في رحلة العلاج الصعبة للقضاء على توابع الورم، والذي باتت لا تعرف هل ستتغلّب بإرادتها عليه أم هل سيهزمها ويعاود هجمته رغم إرادتها؟

وبينما كان وليد يقوم بإجراءات الخروج من المشفى اتّصلت هي بـ "هنا" فردّت عليها بلهفة تدلّ على مدى قلقها:

_ دكتورة شيرين! الحمد لله على سلامتك.

_شكرًا لكِ "هنا"، أخبرتك من قبل ألّا تنادني بدكتورة.

_كنت قلقة جدًّا بشأنكِ، ولم أعرف كيف أطمئن، لقد اتّصلت بالدكتور وليد وكان صوته حزينًا جدًّا فلم أستطع أن أعاود الاتّصال، هل أنتِ بخير؟

_ استئصلت الورم، ولكن هذه ليست النهاية إنها فقط البداية..

_ كلّ شيء سيصبح على ما يرام، فقط ثقي بالله.

_إنْ شاء الله ، هل فكّرت بالأمر؟

_ أيّ أمر؟

_ أن تهتمين بدروس الأولاد..

_ نعم لقد اتّصلت بسلمى واطمأننت عليها وطلبت منها....

قاطعتها شيرين:

_ أرجوك يا "هنا"، إنّي في المرحلة القادمة لن أستطيع رعايتهم كما كنت من قبل ولا أريدهم أن يشعروا بالتقصير منّي، لقد اخترتك لأنّي أعلم جيدًا كم يحبونك وكم أنت حريصة عليهم.

_ماذا عليّ أنْ أفعل لأثبت ذلك؟ (قالت "هنا")

_ابقي بجانبي، إنّي بحاجة إليكِ.

_سوف أكون بجانبك، لن أتخلّ عن واجبي.

_عديني أنكِ لن تتخلّي عنّي.

صمتت "هنا" هنيهة وقد شعرت بالإشفاق يغمرها تجاه هذه الأمّ المسكينة، ثمّ وعدتها بعد أن حسم قلبُها الأمرَ رغم أن عقلها لم يكن ليحسمه بعد.

خرجت شيرين من المشفى إلى بيتها في شوقٍ كبير، تبدي تماسكًا مصطنعًا كي لا تؤثّر الصدمة على أولادها، وقد اتّفقت مع وليد بأن يخبرهم أنها أصيبت بوعكة بسيطة أثناء عودتهم من سفرتهم.

مرّت الأيام وقد بدأت شيرين الخضوع للعلاج الكيميائي، وفي أول جلسة كان الألم لا يُحتمل فقضت الليلة بالمشفى غريبة لا تعرف مَن كانت بالأمس، التي كانت لا تخشى الضعف اليوم هي أضعفُ مِن طفل مازال يتعلّم الوقوف وحده على قدميه ولا يستطيع، فيسقط.

ثمّ عادت إلى البيت في الصباح بصحبة وليد ويوسف، ودخلت إلى غرفتها لتخلد إلى النّوم في وهن، ويوسف كان مواسيًا لوليد الذي انتابه الحزن العميق والذي لم يستطعْ أن يقاومه وهو يرى وردته المتفتحة قد بدأ يصيبها الذبول الذي تمكّن من الرّوح المتشبّثة بالحياة.

_هذا ما يحدث مع أوّل جلسات للعلاج الكيميائي، أنت تعلم كلّ ذلك جيدًا يا وليد لا يجب أن أراك منهارًا، صمودك هو الأمل الوحيد لصمودها.

"صدمة الدّواء لخلايا الجسم بأكملها واستثارته القويّة لمناعته والتي بدورها تبدأ في الاحتشاد المهيب لمحاربه خلايا الورم العنيف بشراسة في حرب ضارية يموت فيها الكثير من خلايا الجسد حتّى السليمة منها، من أجل أن تموت الخلايا المستعمرة قبل أنْ تتكاثر وتتوحّش وتفتك بالروح، إنّ هذه الحرب العنيفة بداخل الجسد لا يحتملها إلّا الراغب في الحياة لا يقاومها إلّا مَن يسكنه الأمل، ومن أجل ذلك الأمل فقط يجب أنْ نتحمّل كلّ الآلام مهْما كانت شدّتها وذروتها، ورغم قوّة الدواء وصعوبته إلّا أنّه بدون الحبّ والأمل لا يحمي من الاستسلام والانهزام".

_بين ليلة وضحاها تغيّر كلّ شيء يا يوسف، سلب الخوف من بين أيدينا العمر

والحياة، كم هو قصير ذلك العمر! وكم هي عابرة تلك الحياة! كلّ ما أرجوه من الله ألّا يؤذيني فيها، ليس سهلًا على نفسي أن أرى حبيبتي تتألّم كلّ هذا الألم وأنا أقف عاجزًا لا أستطيع أنْ أحمله عنها أو أشاركها فيه، مرعبة تلك الصورة التي تتراءى أمام مخيّلتي لو شاء القدر الفراق في لحظة، لا أدرى كيف سأحتمل فيها الفراق.

_في مثل هذه اللحظات العصيبة لا يجب أن يكون اليأس مسيطرًا على قلوبنا وعقولنا يا وليد، إنّ اليقين بالله هو طوق النجاة الوحيد من أشدّ الصعاب.

_ أتوسّل إلى الله أنْ يرأف بحالي ويخفّف عنها آلامها.

وبعد سويعات من الاستسلام، استيقظت شيرين بوهنٍ ملحوظ وأمسكت بهاتفها وقامت بإرسال رسالة إلى "هنا".. "أرجوك، احضري مع سلمى اليوم، أودّ رؤيتك، ربّما لا يمنحني القدر فرصة أخرى".

وكانت سلمى على وشكِ الخروج من المدْرسة آنذاك فنادتها "هنا" بعد أن اطّلعت على الرّسالة التي عصفت بقلبها عصفًا، وقالت لها وهي تستقلّ الحافلة المدرسية،

_سلمى، انتظريني سوف أعود معك إلى البيت.

نظرت إليها سلمى في دهشة، وقبْل أن تسألها عن السبب أجابتها..

_ أودّ زيارة والدتك لأمرٍ ما.

لم تفهم الطفلة مغزى الكلام، فما تعرفه أنّ أمّها مَن تأتي إلى المدرسة لتباشر كلّ الأمور المتعلقة بها، ولم يحدث من قبل أن تزورهم ميس "هنا" تحديدًا بالبيت.

وعادت "هنا" بالحافلة المدرسية مع سلمى، ودخلت إلى البيت، وبينما صعدت سلمى لتخبر أمّها كانت "هنا" تتّخذ مقعدها في الرّدهة الفسيحة وتجول بنظرها بين أرجاء البيت الكبير الفخم الذي أختيرت كلّ قطعة ثمينة فيه بعنايةٍ فائقة، تدلّ على

ارْتقاء وذوْق رفيع، في كلّ ركنٍ من أركانه الواسعة، ربما لم تعرف هنا مثل هذا الثراء في بيتها المتواضع، ولكنّها كانت لا تضع نفسها في مقارنات أبدًا، لقد نشأت على القناعة وعدم التطلّع إلى ما ليس بيديها، ربّيت أن تجعل ما بين يديها رائعًا وكافيًا لها، وأنْ ترى مِن بين تفاصيله جماله الخاص، ورغم أنّ إخوتها كانوا دائمًا ما يتطلّعون إلى حلم الثّراء الذي لن يحقّقونه إلّا في السفر، إلّا أنّها لم تكنْ تفكّر مثلهم لشدّة ارتباطها بالأشياء التي تملكها وبهويتها وبالأرض وبأمّها والبيت الصغير وأحلامها البسيطة التي كانت تبعث في نفسها السّعادة والرضا. لم تحلم هنا بمثل هذا البيت الكبير الأنيق من قبل، حتّى مع هيثم حبّها القديم، الذّكرى التي تحيا بداخلها رغم الفراق الطويل، والذي قد سافر ليبدأ في تأسيس الحياة الزوجية معها، لم تكن تنتظر منه سوى بيت عاديّ، صغيرًا كان أم كبيرًا، لم يكن في حسبانها، لم تكن تحلم إلّا باليوم الذي سيجمعهما فيه بيتٌ مليء بالدّفء والحبّ، ولكنّ القدر لم يمهلهما البقاء.

هبطت شيرين الدرجَ ببطء من الطابق الأعلى، واستقبلتها بابتسامة وهنة، وطلبت من سلمى أن تتركها مع ميس "هنا" لمناقشة بعض الأمور..

_ حمدًا لله على سلامتك.

بادرت "هنا" وكانت ترى علامات الشحوب والإنهاك واضحة عليها.

_ أشكرك يا "هنا"، لقد قضيت يومًا من أصعب ما مرّ عليّ من أيام في حياتي، الحمد لله على كلّ شيء.

_ سوف تتعافين وتعودين أفضل ممّا كنت.

_ إنّي أحتسب مصابي عند الله، كلّ ما أخشاه هُم عائلتي والألم الذي سيصيبهم من بعدي.

_ لا تقولي ذلك.

ـ إنّ الله حباني بعائلة جميلة، وزوج رائع، وأب حنون، بالإضافة أنه طبيب ناجح يحبّه كلّ مرضاه والأطباء العاملين معه وأنا منهم، إنّ وليد حقًّا رجلٌ رائع بكلّ المقاييس، يتحمّل مسئولية كلّ شيء، ولا يتخلّى عن دوره أبدًا، لولاه بجانبي في هذه المحنة لكنت استسلمت للموت، لذلك فهو يحمل على عاتقه الكثير من الضغوط الصعبة في هذه الفترة وحده، بالإضافة إلى الألم الكبير الذي يشاركني فيه، فإنني له لست مجرّد زوجة، بل توأم الرّوح، ولا أدري كيف سيحتمل رجلٌ مازال في أوج شبابه أن يقضي بقيّة عمره وحيدًا!!

ـ في الحقيقة إنّك تفكرين في علم الغيب كثيرًا، وربّما كان ذلك مرهقًا، اتركي كلّ شيء يحدث كما كتبه الله، المهمّ الآن أن تكون كلّ عزيمتك هي أن تعبري المحنة بسلام.

ـ الأمرُ ليس بهذه البساطة يا "هنا"، الأمرّ يتعلق بأسرة تغيّر حالها بين يوم وليلة، أسرة لم تعرف يومًا كيف ستمضي خلال الحياة من دون عامود من أعمدتها الأساسية، وإنّي أخشى أن أتركهم للضياع.

وبينما كانت "هنا" تشرد في كلامها الذي تعيده على مسامعها كلّ مرة ومازال مبهمًا مغزاه بالنسبة لها، ولكنّها كانت تعتبره نوعًا من الفضفضة بما أنّها لم تخبر أحدًا عمّا تمرّ به سواها، فكانت تنصت إليها باهتمام. وفي تلك اللحظة دخل وليد إلى البيت عائدًا من عمله صاعدًا إلى غرفته حيث لم ينتبه أنّ هناك ضيفًا إلّا بعد أن نادته شيرين:

ـ تعال وليد، أقدّم لك ميس "هنا".

ـ أهلًا بك.

ومدّ يده لمصافحتها، فصافحته بابتسامةٍ قصيرة تقطع بها حيرتها.

نظرت شيرين إلى الأيادي المتصافحة سريعًا لأوّل مرّة بتمعن، ثمّ استطردت بابتسامة وهي تجول بين أعينهما:

_ كان وليد يسألني عنك ويودّ رؤيتك يا "هنا".

تحوّلت نظرة "هنا" عنه فورًا وقد بدتْ عليها علامات الاضطراب، بينما صُدم وليد من كلمة زوجته التي لم يفهمها، فقال ردًّا سريعًا يهدّئ وقع التحرّج الذي حدث لهما على السواء:

_ بالطبع كنت أودّ أن أعرفك، فشيرين لا تكفّ عن الحديث عنك وعن اهتمامك البالغ بالأولاد.

_ هذا واجبي.

قالت هنا بشيء من الاقتضاب.

_ بالإضافة إلى أنّك تعرفين ما تمرّ به أسرتنا من محنة، فإنّي أشكر لك اهتمامك بالسؤال وبالزّيارة.

ولم ينتظر منها ردًّا، لقد كان يحاول أنْ ينهي حرجَ هذا الموقف بلطف مصطنع، ثمّ استأذن ليصعد إلى غرفته، بينما استأذنت "هنا" لتغادر، فسمحت لها شيرين على وعد آخر باللقاء.

وفي الطريق، ظلّت "هنا" شاردة فيما فعلته شيرين، والذي لم تجدْ له تفسيرًا مقنعًا..

_لماذا استدعتني؟ لتعيد على مسامعي نفس الكلام؟ لا أظن ذلك. لماذا اضطرب زوجها حرجًا وقتَ قدّمتني إليه بهذه الطريقة؟ إنّ طريقتها كانت غريبة

بكلذ المقاييس، أمّا عن وليد، لا أعرف، أظنّه شعر بالحرج مثلما شعرت تمامًا، لماذا حدّثتني عنه وهو لا يخصّني أو يهمّني على الإطلاق؟

أمّا وليد فقد كان يسأل ابنته عن هذه المدرّسة إن كانت انتهت من درسها فأخبرته سلمى بأنّها لا تعطها دروسًا، وعندما سألها عن سبب وجودها أشارت بأنّها لا تعلم، وعندما عاد إلى غرفته وجد شيرين قد انتهت من ضيافتها وقالت له وهو يبدل ملابسه:

ـ لماذا لم ترحّب بـ "هنا"؟

ـ إنّني لم أخبرك من قبل أنّني أودّ رؤيتها يا شيرين!!

ـ ولكنك سألتني عنها مَن تكون..

ـ سألتك لأنّ الأمر غريب، أن تحكي لها تفاصيل لم تخبري بها عائلتك بعد..

صمتت شيرين وشردت قليلًا، ثمّ أكمل:

ـ ما الأمرُ حبيبتي؟ ما سرّ اهتمامك المبالَغ بهذه المدرّسة؟

ـ أريدها أن تهتمّ بالأولاد، فالأولاد يحبّونها كثيرًا، ولم أجد أفضل منها لتهتمّ بهم في غيابي.

ـ حبيبتي، يجب أن تطردي هذه الأفكار السلبيّة من رأسك؛ لأنّك ستصبحين بخير من أجلنا.

ظلّت شيرين في حيرتها طوال الليل تفكّر في طريقة تفتح بها الموضوع مع وليد، وأيضًا مع "هنا"؛ لأنّها قد حسمته نهائيًّا بعد تفكير مرهق طويل، ثمّ عزمت على الإفصاح بقرارها في تلك الليلة:

ـوليد، ما رأيك بـ "هنا"؟

_ كيف!! لا أفهم.

_ أن تكون زوجة لك.

حدق وليد بها في ذهول، بينما كان يتصفّح حاسوبه بجوارها على الفراش، ولم يستوعب صاعقة الكلمة التي اخترقت مسمعيْه، بينما هي كانت تتحدث بجدية واضحة، ثمّ قال بترقب وهدوء:

_ لم أخبرك أنّني أودّ الزواج.

_ ولكنّك ستتزوج ذات يوم بعد رحيلي، لماذا لا نختارها من الآن سويًّا، هي أكثر من ستحب الأولاد وترعاهم وترعاك.

_إنّي مندهش جدًّا، لا أصدق ما تقولين حقًّا!

_ اسمعني وليد، هذه المرأة ليس لديها أولاد، ولم تتزوّج من الأساس، لذلك أفهم جيدًا دافعها في حبّ الأولاد، وأعلم أنّها أكثر من سيحافظ عليهم، والأهمّ من ذلك أنهم هُم يحبّونها، وهذا ما جعلني أختارها تحديدًا لتصبح زوجةً لك وأمًّا لهم من بعدي.

_ اسمعي شيرين، يبدو أنّك حقًّا مُنهكة ومتعبة، دعي الغيب لربّ العالمين، إنّي لا أريد الزواج، لأنّني مكتفٍ بحياتي معك، وأحبّك يا شيرين، لا تفسدي حياتنا بأفكار لا داعي لها.

_ولكنْ يا وليد...

_ انتهى الأمر، لن أتزوّج من "هنا" أو مِن سواها، ارتاحي واخْلدي إلى النوم، أحلام سعيدة حبيبتي..

ثمّ تظاهر وليد بأنه راح في النّوم بعدما أغلق حاسوبه سريعًا كي ينهي هذا الحديث الغريب، بينما كان هذا الأمر قد بدأ يؤرّقه ويثير قلقًا حاول أن يتجاهله بابتسامة ساخرة.

وفي اليوم التالي، استدعت شيرين "هنا" مرّة أخرى، ولكنّها اعتذرت عن المجيء إلى البيت، ولكن بعد إلحاح كبيرٍ من شيرين، جاءتها على مضض.

_ آسفة لأنّني أطلب منك طلبات كثيرة في هذه الفترة العصيبة يا "هنا".

_ لا أبدًا، ولكنّني أهتمّ بالأولاد بالفعل في المدرسة، فلا داعي للمجيء إلى البيت.

_اسمعيني "هنا"، إنّ وجودك بينهم بالبيت وخصوصًا مع سلمى سوف يشغل وقتهم عن التفكير فيما يحدث لي من تعب مستمرّ، وخصوصًا بعد جلسات العلاج التي تنهكني تمامًا، وجودُك معها سوف يحمسها ويرفع معنوياتها أكثر، واعتبري ذلك خدمة جليلة ستقومين بها بلا أجر، إنْ كان هذا الأمر هو سبب رفضك. ولكن أرجوك ألّا ترفضي، إنّي في حاجة إليك حتّى يستقرّ البيت على الوضع الجديد دون أن ينهار الأولاد.

_ ولكن...

_ أرجوك، لا أعلم ما الذي يخبئه القدرُ لهؤلاء الأولاد، مع كلّ يوم تزداد حالتي فيه سوءًا، وأزداد خوفًا عليهم.

وبعد صمت وتردّد في أعماق "هنا" وهي ترى ذلك الخوف يتمكّن من روح هذه المسكينة على أولادها في محنتها العصيبة؛ وافقت وهي لا تدري هل وافقت فقط لهذا السبب أم أنّ شيئًا خفيًّا يقودها للبقاء.

ثمّ نادت شيرين على ابنتها سلمى تبلغها بأنّ ميس "هنا" سوف تبدأ في تدريسها بالبيت، ففرحت سلمى كثيرًا، واحتضنت ميس "هنا" التي كان القلق مازال يساورها، وبينما طلبت من سلمى أن تريَها غرفتها، اقترحت شيرين أنْ يستخدما البهو الكبير أو الحديقة بالخارج لتصبح "هنا" على راحتها، بينما كانت شيرين في قرارة نفسها تضعها أمامَ أعين وليد مباشرة حين عودته وخروجه.

عاد وليد من عمله ليجد "هنا" وسلمى يستذكران الدّروس في البهو، فألقى التحية باقتضاب واضح ناظرًا إليها نظرةً خاطفة ثاقبة ثمّ اتّجه إلى أعلى.

أبدت "هنا" عدم الاكتراث، إلى أنْ قالت لها سلمى وقد قبّلت أبيها قبل أن يهرب من المواجهة صاعدًا إلى غرفته:

ـ هذا أبي.

ـ أعرف حبيبتي، لنكمل الدرس.

ـ أتعرفين، إني أحبّ أبي كثيرًا، إنه يشتري لي الألعاب التي أحبّها، ويأخذني وجومانة في نهاية الأسبوع إلى الملهى والسينما، إنه أفضل أب في الدنيا.

ـ حسنًا حبيبتي، هذا رائع، لنكمل الدرس.

كانت "هنا" تحاول تجاهل الحديث عنه والهرب بكلّ الطرق.

ـ أين كان يصحبك أبوك يا ميس "هنا"؟

ـ إني لم أرَ أبي يا سلمى، لقد فارق الحياة قبل أن أراه.

صمتت سلمى برهة، ثمّ قالت:

ـ حسنًا، سوف أخبر أبي أن تخرجي معنا، هو لن يمانع.

ابتسمت "هنا" من بين وخْز الألم الذي بدأ يزداد بها غصّة تخنقها: لا يا حبيبتي، إنه أبوك أنت، هيّا لنكمل الدرس.

بينما كان وليد بغرفته مع شيرين يتظاهر بالتجاهل، رغم أنّ ترقبًا ما كان يُربكه من الدّاخل، جلس ليراجع بعض التقارير على حاسوبه، بينما سألته شيرين سؤالًا قصيرًا زاد من ارتباكه:

ـ هل رأيت "هنا"؟

نظر إليها نظرة ثاقبة مقتضبة، ثمّ عاد ليندمج في حاسوبه ولم يجبها.

ـ إنّها سوف تأتي لتهتمّ بدروس سلمى وجومانة، يجب أن تحسن استقبالها.

ـماذا عساي أنْ أفعل لها شيرين!! هل أقف على الباب في انتظار تشريفها؟

ـ لمَ هذه العصبية وليد؟! فقط رحّب بها، لا تقابلها بمثل هذه الصرامة.

ـ لن أقابلها لا بصرامة ولا بغيرها، هي ضيفتك أنت، وأنتِ مَن يتولّاها.

ـ ولكنّني دعوتها على الغداء اليوم، ماذا ستظنّ إن تناولنا معها الغداء من دونك وأنت بالبيت؟

ـ شيرين، إنك تفرضين عليّ آراءً غير منطقية وغير مقبولة.

ـ وليد، إنْ كنت ستفعل ذلك فإنك تفعله لأجلي ولأجل أولادنا، أرجوك يا وليد.

ـ أرجوك أنت شيرين، لا تصعّبي حياتنا، نحن معًا سعداء راضين حتّى في أصعب اللحظات، لمَ علينا أن نبحث عمّن يتولّانا، والله هو مَن يتولّانا؟ تراجعي حبيبتي عن هذه الأفكار الغريبة، أرجوكِ، فإنّي لا أحبّ ولا أكتفي بامرأة سواك.

ـ إذًا لتشاركنا الغداء بشكل طبيعي، ورحّب بها كضيف مثل أي ضيف.

وبعد نظرة صمت طويلة منه استجاب لها..

بينما أمرت شيرين بتجهيز الغداء، استأذنت "هنا" لتغادر، ولكن شيرين أصرّت عليها البقاء، وبإلحاح من سلمى بينما كان وليد يلتزم الصمت ويبدي اللامبالاة، وتحججت "هنا" بأنها لا تترك أمّها بمفردها، فأصرّت شيرين اليوم فقط، ومع الضغط الهائل، وافقت على مضض، وجلس الجميع على الطاولة في جوٍّ يشوبه التوتر والترقب الخفي..

_ كنت أحكي لميس "هنا" عنك يا أبي.

قالت سلمى بعفوية صدمت وليد، فقالت شيرين بابتسام:

_ وماذا قلت لها يا سلمى؟

_ قلت إنّ أبي حقًّا رائع، ولأنّ ميس "هنا" ليس لديها أب؛ فما رأيك يا أبي أن تخرج معنا بنهاية الأسبوع.

_ ولكنّ ميس "هنا" لم تعد صغيرة يا حبيبتي.

قالها وليد باقتضاب ملحوظ لم يستطع إخفاءه، أثار شيئًا من الألم بداخل "هنا" التي كانت تنصت بقلق وتتناول الطعام ببطء وتوجّس.

ثمّ قالت شيرين محاولة تلطيف الأجواء المشحونة بالتوتر:

_ هل كنت مجتهدة في دروسك مع ميس "هنا"؟ إنّها لا تحبّ إلّا المجتهدين.

_ بالطبع يا أمّي، ألست مجتهدة معك يا ميس "هنا"؟

_ طبعًا حبيبتي.

فقال وليد لسلمى وهو يغادر الطاولة بعدما تظاهر بالانتهاء من طعامه:

_ حسنًا، أتمنّى سماع ذلك دومًا، وأراه بنفسي بنتائج الاختبارات.

ثمّ نظر إلى "هنا" نظرةً حادّة، وقد فشل في أن يرسم ابتسامة تخفّف حدّتها قائلًا:

_أستأذنكم؛ لدي عمل، شرفنا بحضورك أستاذة "هنا".

ابتسمت "هنا" بمعاناة قائلة: تفضّل دكتور.

وغادر وليد إلى غرفته، بينما انتهت "هنا"، وأصرّت على المغادرة لأنّها قد تأخّرت على أمّها، وخرجت من هذا البيت لتتنفّس الصعداء بعد هذا الارتباك العاصف الذي اجتاحها، ولم تحاول أن تفكّر فيما حدث كثيرًا، لعلّ تجاهله هو أفضل شيء لإخماد هذا الوهج الذي اشتعل رغمًا عنها بين جوانحها، بينما استعدّ وليد ليخرج إلى عيادته، فقالت له شيرين:

_ وليد...

وقبل أنْ تكمل حديثها قاطعها بحسم:

_ شيرين، لا تتحدثي معي عن هذه المدرّسة، اتفقنا؟ أراكِ لاحقًا.

وغادر دون التفاتٍ إلى عيادته.

وفي اليوم التالي، أرسلت شيرين رسالة إلى "هنا" تخبرها بأنّ لديها جلسة علاج اليوم، وأنها تعود منها في حالة سيئة جدًّا، وطلبت منها أن تعود مع سلمى كي تبقى معها، بينما سيهتمّ بها وليد بالمشفى حتّى تتحسّن وتعود.

عادت "هنا" مع سلمى بعد انتهاء اليوم الدراسي، وهي تعرف أنّ أبويها ليسا بالبيت ربّما كان ذلك مريحًا لها بعض الشيء، وبينما كانت سلمى تمسك بيديها لتصعد معها إلى غرفتها، فتحت الفتاة بابَ غرفة أمّها تبحث عنها كعادتها بعد عودتها من المدْرسة فلم تجدها، ولكن عينا "هنا" علقت في تلك اللحظة بالصورة الكبيرة التي تتوسّط الحائط بالغرفة الفخمة الشّاسعة التي اطّلعت عليها لأوّل مرّة.. لأوّل وهلة، صورة زواجهما

العملاقة، وظلّت عيناها لا تحيد عن الصورة حتّى أغلقت سلمى الباب سريعًا قائلة: أمّي لم تعد بعد، ثمّ رافقتها إلى غرفتها ليبدأ الدرس، وبعد بضعة ساعات كانت أطالتها "هنا" عن عمد حتّى عودة شيرين، سمعت صوتها وقد عادت برفقة وليد، وصعدا إلى غرفتهما مباشرة لأنّ حالتها كانت تبدو ليست على ما يرام، بينما كانت "هنا" قد استعدّت للمغادرة، وعلى باب الغرفة قابلها وليد وهو يغلق باب غرفته على زوجته النّائمة من التعب بعد جلسة شاقة ويوم مُنهك، التقت الأعين الحائرة قدرًا فلم تستطع "هنا" أن تسأله عن حال شيرين أمام طفلتها التي لا تعرف شيئًا، فاكتفت بالاستئذان للمغادرة، بينما كان هو يخبر سلمى بأنّ أمّها نائمة لتتركها حتّى تستيقظ، فعادت سلمى إلى غرفتها بعدما ودّعت مدرّستها على موعد للقاء في الغد.

كانت "هنا" تهبط الدرج سريعًا وكأنّها تهرب من الوهج المتّقد بأعماقها في هذه النظرة العابرة، إنّ وليد كما كانت تقول عنه شيرين رجلٌ جذاب، فما رأته من جاذبيته ليس فقط في هيئته الخارجية الأنيقة، ولا لشكله فهو طويل القامة نوعًا، متناسق القوام عريض المنكبين، تعطيه تلك اللّحية الخفيفة على وجهه الدقيق ذو الملامح الحادة مظهرًا جذّابًا، وبؤبؤ العينين البنيتين الواسعتين وسط بياض ناصع تبعثان ذكاءً وتفيضان جاذبية من خلف حدّتهما ووقارهما، وتبرز عمقهما نظارته الطبية الأنيقة وشفتيه الغليظتين وأنفه المدبّبة وشعره الكثّ المنسدل مائلًا على جانب جبينه الصغير؛ كان يعطيه سنًّا أصغر من سنّه الذي يكبرها ببضعة أعوام، تلك الملامح الشرقية التي يزيدها السّمار جاذبية، كانت مُلْفتة للأنظار حقًّا، ولكن ما شعرته "هنا" في نظرته تلك اللحظة هو جاذبية من نوع آخر، جاذبية نبعتْ من حنانه المتّقد في عينيه، هذا الأب الحنون والزوج المحبّ لزوجته في مثل هذه المحنة الصعبة، جاذبية كانت تراها فقط في أحلامها البعيدة المراس.

وبينما كانت "هنا" تغادر والخادمة مودّعة إيّاها بترحيب، سمعت صوت وليد ينادي الخادمة بصوت يدلّ استغاثة لتصعد إليه بسرعة، فأدركت أنّ الأمر خطير يتعلّق بشيرين، أسرعت الخادمة إلى أعلى فلم تجدْ نفسها إلّا وهي تلحق بها رغم تردّدها، كانت "هنا" تقف أمام الغرفة في تردّد كبير، تحاول أن تغادر ولكن شيء يجبرها على البقاء، حتّى خرجت الخادمة بعد دقائق تحمل ملابس وملاءات متّسخة، فسألتها إنْ كانت الدكتورة بخير، فأخبرتها أنّها تتقيّأ كثيرًا، وكان عليها أن تبدل الملاءات، كان باب الغرفة مفتوحًا بعد خروج الخادمة، وقد سمعت وليد وهو يقول لها "اصمدي يا حبيبتي، سوف يصبح كلّ شيء على ما يرام"، وسمعتها تقول له "أشعر بالموت يزحف بجسدي يا وليد، ولا أستطيع أن أقاومه أكثر من ذلك"، لم تحتمل "هنا" سماع هذا الكلام، وما لبثت إلّا أنْ وقفت على الباب لتشاهد وليد يقوم بحقن بعض العقاقير في الأنبوب الوريدي الثابت بيد شيرين، والتي يبدو شحوب جسدها اليوم مقلقًا للغاية، ظلّت "هنا" ترقبهم في صمت حتّى انتبه لها وليد، فنظر إليها نظرة ثاقبة حادة، فانتبهت على إثرها شيرين، وقالت لها:

_ ادخلي يا "هنا"، وأغلقي الباب خلفك.

تردّدت "هنا" في الدخول، ولكنّها انصاعت لرغبتها وللشيء الخفي الذي يقودها رغمًا، وظلّت واقفة بالباب بعد أن أغلقته.

بعد نظرة الوهن التي تملّكت من شيرين في تلك اللحظة الحاسمة بادرت:

_ في هذه اللحظة العصيبة التي تجمع ثلاثتنا، لا أعرف كيف سأغادر هذا البيت الذي طالما حييت به وبنيته معك يا وليد على المودّة والحبّ الكبير، ولكنه أمر القدر، القدر الذي لن نستطيع أن نمنعه، رغم تعلق قلوبنا بأحبائنا.

_شيرين، أرجوك لا تقولي هذا الكلام.

قالت "هنا" وهي تشعر بالأسى.

_ أثقُ أنني سأكون بخير إنْ قبلت أنتِ أن تكوني معي في هذا البيت يا "هنا".

صدمت "هنا" وتحدقت عيناها عن ارتجافٍ زلزل كيانها فالتزمت الصمت، واستطردت شيرين بينما كان الاثنان ينصتان إليها واجمَيْن:

_ أعرف جيدًا أنّ ما أطلبه منكما خارجَ حدود المنطق والعقل، ولكنّه شيء لا يعرفه إلّا مَن يرى الموت يقترب وهو يحاول أن يجمع أحبّاءه جميعًا ليترابطوا ويتماسكوا معًا كي يهوّنوا على بعضهم البعض ألَمَ الفراق.

"وإنّ كلّ ما أطلبه يا "هنا" أن تقبلي أنْ تكوني زوجةً لوليد وأمًّا لأولادي من بعدي"

ثمّ تبعها وليد في حنقٍ محاولًا ألّا يفلت زمام انفعاله:

_ شيرين، أرجوك ارتاحي الآن.

ثمّ تبعته "هنا" وهي في حالةٍ من الدّهشة الكبيرة وعدم الاستيعاب لما سمعته وخفقان قلبها يرجفها، لم تشعره منذ وقت طويل:

_ شيرين، سوف تتعافين وتعودين كما كنتِ في مملكتك مع زوجك الذي يحبّك وبين أولادك ولن يكون لك أيّ بديل.

_ وإنْ كانت هذه رغبتي الوحيدة منكما في نزعي الأخير؟

صمت وليد صمتًا تامًّا، وصمتت "هنا".

وكأنّ القدر كان يرتّب مشيئته لتتآلف القلوب دون إرادة منها، رغم ما ينفيه العقل من اللامنطق، إلّا أنّ التقاء القلوب وتآلفها قدرًا لا يعرف أبدًا المنطق ولا الأسباب.

راحت شيرين في النّوم الهادئ بعدما بدأ مفعول المهدّئ الذي حقنه وليد يسري في عروقها، ثمّ خرجت "هنا" غير مستوعبة لما سمعت، وخرج وليد وراءها، حيث طلب منها وهو يوصلها لأسفل لتغادر أنْ تعذر شيرين فيما تمرّ به من تخبّط وتشتّت وألم، فأخبرته أنها لا تأسف سوى على حالتها، وقد اضطرّ أن يشرح لها مدى السوء الذي تمرّ به منذ بداية الجلسات، ولا يعرف إنْ كانت ستستجيب وينهزم المرض نهائيًّا أم سيعاود هجمتَه بضراوة فيما بعد. لم يتحدّثا في أمر الزواج، فكلّ منهما كان على يقين استحالة أن يحدث هذا الأمر بينهما، فهو ضربٌ من خيال، فقط في خيال شيرين المسكين.

لم تنمْ "هنا" ليلتها وهي تعيد التفكير مرارًا وتكرارًا فيما قالته شيرين اليوم، وتذكّرت ملامح وليد المقتضبة الرافضة للأمر، ممّا عزّز رفضها بداخلها رفضًا قاطعًا، إنها رفضت من قبل أن تصبح زوجة ثانية لهؤلاء الذين كانوا يتقدّمون إليها منذ تخطّت الثلاثين من عمرها، فكلّ ما كان يقال لها آنذاك، "إنّك تقدمت بالعمر ولا يوجد أشخاص لم يتزوّجوا من قبل قد وصلوا إلى هذا العمر مثلك، وإنْ كان فهُم لا يفضلون الزّواج ممّن هنّ قد تجاوزن الثلاثين، فإنّك لن تجدي إلّا من له ظروفًا خاصّة، مطّلق أو أرمل ويعول ويريدك لتربية أولاده، أو متزوج ويودّ الزواج بأخرى لأي سبب كان، هكذا فرض المجتمع العقيم فرضَه القاطع بمصادرة حقّ الفتاة في الانتظار لفرصة عادلة لتبدأ حياةً سعيدة مستقرّة، وقد جعل الفتاة التي لم يكتب الله لها الزواج وهو بيده وبمشيئته؛ أشبه بحصان عجوز يخرج قسرًا وقهرًا من السّباق، وتطلق على أحلامه الرصاص، "ولكنّها كانت ترفض لأنّها رغم قلّة فرصها في كلّ عام يمنحها الزّمن عمرًا كانت تتمسّك أكثر بحلمها البسيط، في أن تجدَ ذلك الذي تشعر في وجوده الأمان الذي تفتقر إليه وتتوق إليه بأحلامها البيضاء، دون أن تقدّم

تنازلات من كرامتها، حتّى أدركت مع الزمن أنّ التنازلات فرضٌ في هذا المستنقع العفن مفروض، فارتضت وحدتها عن قناعة، ثمّ قالت في نفسها: أخشى أن يكون ما أشعره تجاهك يا وليد هو ذلك الأمان الذي حلمته وانتظرته طويلًا.

ثمّ عاودت اللوم على نفسها تخاطبها من الأعماق: "ولكنّه يحبّ زوجته.. هكذا قالت شيرين، هكذا رأيت لهفته عليها، ليس لأنّها مريضة فحسب، هكذا رأيت رفضه واضحًا في عينيه وهي تطلب منه أن يتزوّج سواها، فهذا الأمر رفضه قد أصبح محسومًا، زوج محبّ لزوجته مكتفيًا بها، فما حاجته لأنْ يتزوّج سواها، حتّى وإن رضخ لرغبتها ووافق على الزّواج بي، سيكون ذلك من أجلها وليس من أجلي، لأنّه لم ولنْ يحبّني، فلننْسَ هذا الأمر، ومن الأفضل ألّا أذهب إلى هذا البيت كي لا ألتقيه أبدًا، ولا أدري لماذا شعرت بهذه العاصفة تجتاحني عندما نظرت في عميق عينيه، ثمّة شيء غريب يصيبني وقتَ أنظر إليه، شيء لا أدري كيف ينساب بين عروقي كالماء يُزهر كلّ ما في طريقه من أمنياتٍ ذابلة في أعماق جرداء، إنّه شيء أقوى منّي يأسرني إليه، يرسم طيفًا من الفرح على جدران روحي الباهتة في وجوده، يمنحني سكينةً غريبة، لا أريد أنْ أسمّي ما أشعره تجاهه حبًّا، إنني لم ألتقِه إلّا مرّات عابرات، لا أعرفه ولا يعرفني، جمعنا قدرٌ غريب لا أعرف حكمته، وسيفرقنا لأنّني لستُ مَن عاهدته منذ بداية الطريق، فإنّي أخشى التعلّق به بعد هذا الحرمان الطويل، حتمًا إنْ تعلّقت به فإنّني سوف أتعذب كثيرًا وحدي بعد الفراق، لأنّه حتمًا سيحين الفراق".

في اليوم التالي، اتّصلت بها شيرين بعدما استفاقت من نوْمتها وتعبها، وكانت "هنا" قد انْتهت من حصّتها، وتستعدّ للحصّة التالية بصف آخر..،

_ كيف حالك اليوم يا شيرين؟

_ بخير، مازلت أتنفّس.

_ قلقت جدًّا بشأنك بالأمس.

_ شكرًا "هنا"، هل فكّرت فيما طلبت منك أنت ووليد؟

_هذا الأمر غيرُ معقول يا شيرين، كيف تطلبين من زوجك أن يتزوّج بأخرى؟ ولماذا أنا؟

_حسنًا؛ لأنّك مَن أستطيع أنْ أئتمنها عليه وعلى أولادي، فإني أعلم جيدًا كم تحبينهم وكم يحبونك، هذا هو السبب الأقوى.

_ ولكنه ليس سببًا لأتزوّج من زوجك.

_ بل إنّه سببٌ قوي، فكّري جيدًا يا "هنا"، ودَعينا نتحدّث بصراحة دون حساسية، إنّك في حاجة إلى رجل يرعاك ويحميك الآن، ربما لأنّك حرمت أبيك مبكرًا وإخوتك يستقلّون بحياتهم بعيدًا، وأيضًا أنت في حاجةٍ لأولاد تحبينهم ويحبّونك. وهذا احتياج أيّ أنثي فطريًّا مهْما بلغت من العمر. إنْ كان كلّ ذلك سيتحقّق لك مع وليد فلِمَ ترفضين!؟

_ إنّ هذا الأمر مستحيل، سوف يتسبّب بمشاكل لا أريد تحمّل عواقبها، الأولاد سوف يكرهونني لأنّهم سيعتقدون أنّي سلبت أبيهم من بينهم ومن أمّهم، فهم لا يعرفون السببَ الحقيقي لذلك، وأنتِ ترهقين نفسك بالتفكير بعلم الغيب كثيرًا بدلًا من أنْ تفكّري في المقاومة من أجلهم، ورغم إصْرارك على ذلك القرار الذي تضحّين فيه بنفسك وحلمك واستقرارك فإنّك لن تحتملي أنْ تشاهدي زوجك مع أخرى في الواقع، فلا داعي لأنْ تبعدنا أحلامنا الحسّاسة عن الواقع يا شيرين.

_ كما توقّعت أنْ أسمع هذا الكلام من إنسانة نبيلة تشعر بغيرها وعزيزة على نفسها، اسمعي يا "هنا"، لنعتبرها صفقة متبادلة، أنا أضع الآن أمانتي عندك بشكلٍ شرعي، حفاظًا عليهم من الضّياع لأنّني لا أئتمن أيّ امرأة أخرى كي تراعي أولادي

وتحبّهم كما تراعينهم أنتِ، وفي المقابل سوف تكونين مع رجلٍ يحميك ويرعاك جيدًا، فـ وليد رجلٌ محترم يعرف الله ولا يتخلّى عن مسئوليّاته أبدًا سيحسن رعايتك ولن يخذلك أبدًا.

ـ وأنتِ؟ ماذا عنكِ أنت يا شيرين؟ هل فكّرت كيف ستتحملين هذا الأمر في مثل هذه الظروف العصيبة؟

ـ سوف أكون بخير عندما أشعر أنّ أولادي وزوجي بخير، صدّقيني ربّما لن أتحمّله إنْ حلّت محلّي امرأة سواكِ، لا تقلقي كلّ هذا القلق ستكونين بخير معنا، ولن تحدث هذه المشاكل التي ترهبينها لأنّني مسئولة عن اختياري لكِ، لا تحبيبني بالرفض أرجوكِ قبل أن تفكّري جيدًا بشكل عقلاني، ولكن لا تطيلي التفكير لأنني لن أطيلَ البقاء ولا الانتظار.

ورغم أنّ شيرين قد تركتها تسقط في جبّ هذا الصراع الذي اشتعل في أعماقها بين عقلها وقلبها، صراع ما بين رفض المبدأ وما بين عدم القدرة على رفض الفرصة التي ربما لن تتكرّر في هذا العمر، ليس لأنّ هي مَن اقترحت، ولكن لأن هذا الشعور المُبْهم الذي يتخلخلها كلّما سمعت اسمه كان كافيًا ليمنحها السكينة، ربما لا يكون شعورًا حقيقيًّا يمكن أن يولد في بضعة أيام في بعض النظرات العابرة أو الكلمات المقتضبة الخاطفة، إلّا أنّه أخفق القلب الذي لا يعرف المنطق له، والذي لا نستطيع أن نملك عليه سلطانًا.

وبعد معاودة شيرين نقاش الأمر مع وليد بشيء من الإلحاح، موضّحة له نفس الأسباب المتعلّقة بالأولاد، وأنّها تثق بحبّه لها ويقينها باستحالة أنّ أي امرأة أخرى يمكن أن تسكن قلبه، وأنّه ليس مطلوبًا منه إلّا أن يعاملها بالحسنى لوجه الله حتّى وإنْ لم يكن يحبّها، فالمعاملة الحسنة تطيل العشرة الطيبة والمودّة.

أمّا الحبّ، فلا يستطيع أحد أن يعرف سرّه، إنّه إكسير الحياة ولونها الزاهي وطعمها الحلو، كيف ينشأ وكيف يموت دون أن نعرف سرّه، قدرًا وبلا سبب، لا يملك أحدٌ الإجابةَ على هذا السؤال.

خضع وليد بعد نقاش طويل لقرار زوجته ربّما لأنّه قد تسلّل إليه الخوف من فرط إصرارها وحديثها عن الموت حتّى لا يواجه وحده لحظة الفقد، وربما ذلك ما يجعلها ترتاح قبل فراقها، وخضعت "هنا" استجابةً لنداء قلبها الخفي.

وتزوّجا في صمتٍ غريب وسط صدمةٍ ونكران الجميع من الأهل والأصدقاء الذين كانوا يضربون المثلَ بالزّوجين الحميمين طوال سنوات الزواج الطويلة لا أحد يعلم أنّ في تلك اللحظة الفاصلة لم يكن أحدٌ من ثلاثتهم يشعر إلّا بالحمل الذي يحمله وحده على عاتقه من أجل الاحتفاظ بالعهد للآخرين، حتّى ينقضي الأمر.

واليوم أغلق عليهما الباب معًا لتبدأ حياة جديدة مرتقبة خلف الأبواب المغلقة، إمّا أحلام تحقّقت، أو وئدت عمدًا بلا رحمة ولا رجعة، أو تلاشت كالسراب.

ورغم رهْبة الموقف ووقْعه المؤلم على ثلاثتهم، كانت شيرين هي الأشدّ ألمًا من بينهم، وكان عليها أن تقضي ليلتها الأولى وحيدة دون زوجها مع حزنها وألمها المضاعف، حيث قالت لنفسها "ما الفرق بين ليلتي هذه وحيدة وليلتي الأولى في القبر".

***

أسائل دائمًا نفسي

لماذا لا يكون الحبّ في الدنيا

لكلّ الناس، كلّ الناس

مثل أشعّة الفجر

لماذا لا يكون الحبّ في بلدي طبيعيًّا

ومنسابًا كما شعري على ظهري

لماذا لا يحبّ الناس في لينٍ وفي يسر

طبيعيًّا ضروريًّا كلقيا الثغر بالثغر

لماذا لا يكون الحبّ مثل الماء في النهر

أليس الحبّ للإنسان عمرًا داخل العمر.

بينما كان وليد يقف بعيدا صامتًا بغرفته الجديدة الغريبة بالطابق الأخير الذي تجهز لاستقبال الزوجة الثانية بناءً على رغبة الزوجة الأولى، وفي ليلته الأولى كان يبدي علامات الجمود الممتزج بالترقّب والقلق على وجهه المبتئس، محاولًا إخفاء ما يُضمره من ضيق في هذا الوضع الغريب الذي فرضه القدر.

بينما كانت "هنا" تختلس إليه النظرات المترقبة في توتّر بالغ، وهي لا تحرك ساكنًا على الأريكة، وقد تاهت من بين شفتيها الأحرف والكلمات.

أشعل وليد سيجارته لينفث في دخّانها رماد قلبه المحترق، وهو ينظر من خلف زجاج الشّرفة إلى السماء لعلّه يجد أمارة أو علامة تهديه إلى الصواب في هذا الطريق الموحش المفقود فيه قلبه في ظلمة هذه الليلة البائسة الحزينة.

ظلّ هذا الوضع قرابةَ السّاعة، لا أحد يبادر، ولا يستسلم لا للنوم ولا للقدر.

ثمّ تحرّك وليد وكأنه مقدمٌ على فعل شيء قد حسمه طيلة فترة الصمت، والتقط هاتفه بشغف الإنسان الضائع الذي اهتدى إلى ضالته:

_ شيرين حبيبتي، ماذا تفعلين الآن؟

_وليد، اشتقت إليك حبيبي، كنت أخشى أن تنام ليلتك دون أن أسمع صوتك.

_ لا أستطيع أن أبتعد عنك شيرين، لا أستطيع أن أتنفّس، أشعر بالضياع.

_حبيبي....

قالتها شيرين ولم تستطع أن تحبسَ دمعاتها من السقوط ليتهدّج صوتها بالألم رغمًا عنها.

_ لا تبكي حبيبتي، إنتِ مَن اختار لنا هذا الوضع، ولقد رضخت لرغبتك كي تكوني بخير.

_حسنًا حبيبي لا عليك، أنا بخير طالما أنتَ بخير، كنت في حاجة لأسمع صوتك، لا تنسَ أن تتناول زبديّتك بالعسل والجوز، إنّها أكلتك المفضّلة وقت القراءة وقبل النوم،

_ شيرين، أحبّك كثيرًا.

أغلقت شيرين الهاتف مع زوجها برعشة يديها الجليديّتين وألم عتيد ينخر روحها في ضعفها نخرًا، في تلك اللحظة شعرت بحنين جارف إليه وكأنّها لأوّل مرّة تفتقده طويلًا وكأنّها تحتضنه بدموعها الغزيرة، تودّعه الوداع الأخير وكأنّها تنتظره أن يهرب إليها ويعود، ورغم بُعده بضعة أمتار قلائل إلّا أنّها تشعر بأميال تفصل بينهما في تلك اللحظة القاسية على القلب الوحيد الذي لا يصدق أنّه لم يعد قادرًا على البقاء في موطنه دون ساكنه ورفيقه، كانت ترتوي بكلّ كلمة ينطقها مطرًا ينهمر على روحها العَطْشى، كانت تحتوي صمته الحزين، أنفاسه المتوهجة بالألم، وكأنها لم ترتو منه منذ وقتٍ بعيد، لم يستطع ثباتها المصطنع أن يصمدَ أكثر من ذلك فانْهار، وانهارت تبكي بحرقة لم تعهدها تلك المرأة القوية من قبل، بل هي الآن الطفلة الضعيفة، حزينة، خائفة تشعر أنّها فقدت حضن أبيها ورفيق دربها وضلّت عنه ولا تعرف سبيلًا للرجوع.

"خدعتك يا وليد كما خدعت نفسي عنوة، لست بهذه القوّة لأحتمل فراقك يا حبيبي، كيف أقوى على الألم وأنا أفقد سكني وموطني، وأمنحهما بيدي لامرأة أخرى تشاركني بك وأتظاهر بالرّضا، أشعر بالتّيه والفقد الرهيب، لم أشعر يومًا في البعد أنّك عني تغيب كما أشعر الآن بمرّ الغياب، لم أشعر بمثل هذا الألم الذي ينزف بكلّ جوارحي ينخرني أشدّ من المرض، يكسرني ويهزمني، أيّ فعلة فعلت أنا؟ هل أخطأت

في حقّك وفي حقّ روحي التي تتلهّف عليك الآن يا حبيبي وأنت مع سواها أم كان هذا هو الصواب؟ لقد أردتُ أن أحميك من الفقد والضياع بعدي، ففقدتك وافتقدت.

وبعد أن أنهى وليد محادثته التي لم يكترث أن تكون أمامها وكأنّه كان قاصد الفعل، كانت هذه الكلمات تخترق مسامع "هنا" تمزّق كلّ حواجز الصمت والصمود لترتشق بروحها الهشّة، روحها المنهكة، بلا عطف ولا تقدير ظلّت مكانها لا تحرّك ساكنًا، تنشغل بهاتفها بملامح احْتقان يكتنز سحابة حزن عميق مارة على المقلتين على وشك الانهمار، وبينما كان وليد قد استعاد شتاته بعد حديثه مع شيرين وهمّ ليبدّل ثيابه ليقضي ما تبقى من ليلته صامتًا، وكأنّه تعمّد أن يخبرها ضمنًا وعلنًا أنه لا يريدها في هذه الليلة، وأنّه سيبقى بقلبه وتفكيره مع حبيبته التي تبعد عنه بضعة أمتار في غرفةٍ أخرى، وإنْ كان مرغمًا على عدم الوصول إليها، خرج وليد من الحمّام ومازالت "هنا" في مكانها لا ترفع عينيها من هاتفها، وقد كان ستار الدموع الحارة المتساقطة على وجنتيها قد افترش ثوبها الأبيض الناصع بسواد الحزن الكحيل بجفونها في صمتٍ قد غشيَهما تمامًا عن النّظر، ولكنّ كبرياءها كان يمنعها من أن ترفعهما إليه، نظر وليد إليها وقد شعر بوقع هذه المكالمة ألمًا على نفسها، فحاول أن يتحدّث بلطف مصطنع:

_ لا داعٍ لهذا البكاء، لقد كان الحديث أمامك، يجب أن تسعدي بذلك.

لم تردّ "هنا" ولم ترفع عينيها من هاتفها وكأنّها تبدي عدمَ الاكتراث، والحقيقة إنّها لا تعرف ما هذه الفوضى التي اجتاحت أعماقها حيث أنها تشتت تمامًا وأصبحت لا تدري ماذا تقول.

أكمل وليد كلامه بعد برهة صمت:

_ هل ستبقين بمكانك هذا طيلة الليلة؟ يجب أن ترتاحي، وأنا سوف أنهي قراءة بحث.

_لماذا تزوّجتني، وقبلت هذا الوضع الضائع كما أخبرت زوجتك؟ أما كان يجب أن تحسما هذا الأمر سويًّا قبل أن تتحسّرا عليه أمامي؟

انتبه وليد على نبرتها المتهدّجة بالحزن، المختلطة بنحيب الدمعات التي انْهمرت سيلًا لا يتوقّف، ثمّ قال بهدوء:

_يجب أن تسألي نفسَك هذا السؤال، لماذا قبلت أنتِ هذا الوضع؟

_ قبلت لأنّني في أشدّ الحاجة لعائلة، لقد مضي العمر على طاولة الانتظار باهتًا، ولأنّ الفرص في الاستقرار والأمن قد تضاءلت بفضل مجتمع عفِن، سلبني حقّي في الحلم بفرصة عادلة أشعر فيها بالأمان دون إرغام وخوف، ولأنّ من أبسط حقوقي في هذه الحياة أن أكون أمًّا حقيقية، وليس أمًّا روحية، أو أمًّا بديلة لأن قد فات الأوان، إنّه القدر الذي فرض عليّ أن أقبل ما لم أفكّر يومًا أن أقبله.

_ هذا قدرك، كلّ شيء يحدث في هذه الحياة ما هو إلّا قدر لا ندرك حكمته.

_ حسنًا، وقد صرت من اليوم قدرك، وعليك أنت أيضًا أن تقبله؛ لأنّك كنت تعلم حكمته وقت قبلته.

كان وليد يرى نظراتِها المشتّتة التائهة، والتي لا تستطيع أن تثبتهما بعينيه هربًا وخجلًا وألمًا، وحبًّا لم يشعره في هذه اللحظة القاسية، ثمّ استطردت مصطنعة الهدوء:

_مِن فضلك، لا تعاملني معاملةَ الضيف الثقيل حتّى وإنْ كنت لك كذلك، فالكريم يحسن إلى الغرباء. وإذا وددت الحديث والبقاء مع زوجتك؛ ابقَ معها كما تشاء دون أن تجرحني، فإنّي قبل أن أكون مجرّد قدر مفروض، فأنا إنسان له شعور وكرامة.

شعر وليد بشيء من الشّفقة لأنّه قد تجاوز الحد المقبول للتعبير عن مشاعره دون احترام شعور الآخر، ثمّ قال بهدوء:

_ آسف، تقبّلي اعتذاري، وتفهّمي تشتّتي وتخبّطي الذي يجعلني أتصرّف بعشوائية رغمًا عني، لم أقصد أن أجرحك.

_حسنًا، لي طلب أخير إذا سمحت.

_ ما هو؟

_ أودّ قضاء الليلة بمفردي.

قالتها وهي تمسح عنها دمعاتِها بكبرياء الأنثى المرفوضة، وقد حسمت قرارها بعد أنْ أدركت أنّ هذه المكالمة كانت إعلانًا صريحًا لرفضها، فردّت عن كبريائها الأذى في هذا القرار.

وكأنّ وليد بعد أن تلقّى الصدمة من هذا المطلب، حيث أنه اعتقد أنها غيرة المرأة البديهية من امرأة أخرى، ولكنها خيّبت له ظنّه، وبنفس الوقت لم يستطع أن يمنع بداخله شعورَه بالراحة الذي تسلل إليه بعد هذا القرار، وشعر وكأنها أطلقت سراحه من هذا الأسر اللعين، ورغم تلك الانفراجة التي ظهرت على ملامحه الحادة ولم يفلح أن يخفيها، نهض من مكانه قائلًا لها بهدوء يشوبه بعض الحماس الخفي:

_ حسنًا، كوني على راحتك، تصبحين على خير.

وخرج من الغرفة يتنفّس الصّعداء مهرولًا إلى غرفته حيث حبيبته الأولى ليلقي بحمله الثقيل من على أكتافه ويستسلم لينفجر بين أضلعه شغفًا وشوقًا وكأنّه اللقاء الأوّل بين أحضانها.

وكأنّه يجب أن يكون هناك محفّزٌ خارجي يستثير الحبّ والشّوق الرّاكد بين الزوجين كلّ حين وحين ليتجدّد النهر الرّاكد بينهما، فإنْ طالت العلاقة باستقرارها بلا منغّصات ولا دواخل عليها مضت بلا وعي في طريق الملل والرتابة، إلى أنْ

تصعقها صاعقة مباغتة تزلزل الأعماق وتعصف بالقلوب الهادئة وتثير وهجَ الشّوق والشغف بينهما من جديد، ويا لسوء العاصفة عندما تأتي بروح أخرى جامحة عطشى إلى الأمان، وقلب أخضر آخر يفيض عطاءً، روح تتوق إلى الحبّ الحقيقي، إلى الوطن الذي يحويها ويأمنها وهي تظنّ أنّها وجدته واستقرّت به بعدما فتح لها أبوابه الموصدة، وحين فتحت أبواب قلبها للفارس المقدام، ليشاركها حلمًا بسيطًا، يستفيق هو ليدرك أنّ ما فعل من مغامرة اقتحام لقلبٍ عطش كانت فقط من دافع الملل، لتكتشف الروح التي ظنّت أنها آمنة في النهاية، إنّها لم تكن إلّا ضيفًا في مغامرة عابرة تستثير بحلمها شغفًا خامدًا به لشريكته الأولى، لحياته الأولى، أمّا هي فكانت مهربًا مؤقتًا، كانت محاولة لتحريك الرّاكد، ولتحترق من أجلهما في صمتٍ لا يهمّ شعورها ولا ألمها، ثمّ ترحل عنهما في سلام لتتركهم يهنئون، فهُمْ لبعضهم سوف يغفرون.

ولكنّ "هنا" يجب أن تقاوم هذا الاحتراق في صمت؛ لأنّ الفارس في هذه المغامرة لا يراها ولم يطاردها شغفًا ولا عشقًا؛ لأنّ الفارس لا يحبّها منذ البداية ولا يعرفها ولا يكترث لعذابها ولا لشعورها تجاهه الذي لم يصله؛ فالأمور المتّضحة كالشمس والقلوب المغلقة منذ البداية لا يجب أن تصدمنا أو نقول إنّها خذلتنا كما تفعل بنا، القلوب التي أسكنتنا بها وتسلّلت إلينا عن عمدٍ وسبْق إصرار مرارًا وتكرارًا حتّى صدّقناها، والتي كانت تغدقنا عشقًا كاذبًا وتمنحنا آمالًا زائفة من أجل رغبة مللٍ عابرة ستنتهي، وتنهينا.

باتت "هنا" ليلتها بمفردها في ليلة العمر الأولى بين سيلٍ جارف من دموع الحزن العميق، ومرّ بمخيّلتها شريط طويل من الألم الذي حاربت الزّمان كي تقتله بداخلها كي يندمل الجرحُ الغائر الذي لا يلبث أن ينشقّ مع كلّ سيل من الألم الجديد.

"ماذا عساي أن أقول لك يا حبيبي، إنّي تزوّجت بهذه الطريقة البائسة الحزينة لأنني كنت معك على العهد، أحببتك منذ أن التقيتك للمرّة الأولى بذلك القطار الذي كنت أستقلّه من مدينتي إلى الجامعة، وكنت أشعر أيضًا أنّك تبادلني ذات الشعور في صمت، ارتبطت أعيننا قبل قلوبنا، بات اللّقاء بيننا دلالة ومؤشّرًا على الزمان والمكان، فنحن نلتقي دون اتفاقٍ كلّ يوم في هذه الساعة وفي هذا المكان، حتّى صرنا جزءًا منه، لم تكنْ تسكن بمدينتي ولكنّي كنت أتهيّأ لألقاك منذ اللحظة التي كان يخرج منها القطار ليتوقّف بمحطتك، فأرقب الأبوابَ بلهفة يسبقها خفقان قلبي المنتظر وقت تتعلّق عيناي بالأبواب حتّى تصعد، وأراك فيشرقُ بداخلي فرحًا يسري خفيًّا يلون الروح الباهتة حين أراك، لقد اعتدت أنْ تستقلّ العربة التي تعمدت أنا ألّا أغيرها ولا أغيّر مقعدي فيها حتّى لا أفقدك ذات يوم. وحتى وإن أنت فقدتني لتعرف لي دليلًا وأثرًا، حتّى جاء اليوم الذي تحدّثنا فيه معًا بعد رقابة طويلة ليتأكّد كلانا أننا لا ننتظر أحدًا إلّا بعضنا.

كنت تدرس الهندسة بينما كنت أدرس بكلية التربية، حدّثتني دومًا عن أحلامك في الطيران حول العالم وأحلامك في السفر، وكنت أحدّثك عن المتنبي وشوقي وناجي والعقاد وإيليا والسباعي وإدريس ومحفوظ وطه حسين، الذين كنت أدرسهم وأعشقهم وكنت قارئًا رائعًا لما أكتبه من أبيات شعر ومقالات، وأكبر وداعم لي، أحببتك وأنا التي لم تعرف للحبّ قبلك سبيلًا، وتمنّيت أن تشعر بهذا الحبّ دون حاجة لأن أبذل جهدًا لتشعره، دعوت الله كثيرًا حتّى استجاب، واعترفتَ لي ذات يوم بهذا الحبّ ولكن لأنّنا من عائلات بسيطة لا تملك من متاع الدنيا إلّا الكفاح فيها للحفاظ على ما يسترنا ويكفينا؛ كان علينا أنْ نبدأ معًا طريق الكفاح والصمود، لم أكن جميلة بقدر كافٍ ليلتفّ حولي الخاطبون، ولم أكن من ذوي الثّروة والنفوذ ليحوم حولي

المنتفعون، ولكن كلّ ذلك لم يكن مهمًّا طالمًا أنّي وجدت ذلك الإنسان الذي هوت إليه نفسي وصبتْ إليه روحي، فكنت أنت عالمي وحلمي الوحيد، وعاهدتك ألّا أتركك في أصعب اللّحظات قبل أجملها، ولو أنني كنت أشعر أنّ كلّ الذي أقضيه معك هو أجمل اللحظات في كلّ فصول العمر.

حتّى جئتني ذاتَ يوم بالبشارة التي كنت تحلم بها طويلًا، بعدما تخرجت والتي قذفتها بوجهي كقنبلة ألم تفجّرت بين ضلوعي حين قلت لي وأنت محلّق من السعادة:

_"هنا"، لقد حصلتُ على فرصة عمري لأعمل بالكويت.

_ستسافر يا هيثم؟

_لِمَ لا أراك سعيدة من أجلي يا "هنا" وأنتِ تعلمين كم انتظرت هذه الفرصة منذ تخرّجي.

_نعم، إني سعيدة من أجلك، ولكن لا أدري كيف سأحتمل فراقك.

_حبيبتي، بعد عام سأعود لأخطبك من أهلك، على الأقلّ أكون قد جمعت بعض المال الذي يؤهّلني لأتكلّم بلا خوف من الرفض.

_لِمَ لا تأتي لتكلّمهم قبل السفر يا هيثم وتشرح لهم ظروفك؟!

_ هل سيقبل عمّك؟ هل سيقبل إخوتك بضَعْف إمكاناتي؟

_سوف أقنعهم.

_"هنا"، تعرفين كلّ ظروفي الصعبة، فقط بضعة أشهر سوف تمرّ، وستزهر بارقة الأمل الجديد.

_قلت لك سوف أقنعهم، كلّ ما عليك هو أنْ تطلبني منهم، ثمّ تسافر، وإنّي سوف أنتظرك كما عاهدتك حتّى تعود.

_حسنًا، لا أحبّ أن أراكِ بهذا الحزن والعبس، سوف أتّصل بأخيك وعمّك، وأحدّد معهم موعدًا.

وقد كان، وجاء هيثم وأهلُه البسطاء إلى بيتنا المتواضع، وجلس معه عمّي يتوسط إخوتي ليتّفقون معه، لقد فقدت أبي من قبل هذا اليوم بأعوام طوال، وقد كنت شرحت لهم ظروفه، ورغم مبالغة إخوتي في بعض الطلبات بموافقة عمّي، إلّا أنّ هيثم أعاد عليهم شرح إمكاناته المحدودة التي ستتحسّن بعد عام من السفر، وقد أقنعهم على مضضٍ أن يصبروا عليه عامًا حتّى عودته ليتمّ الزواج. وتمّت خطبتنا التي كانت تسبق سفر هيثم بيومين، فإنّي حتّى لم أستطع وداعه، الذي لم أستوعب إلى تلك اللحظة أنّه كان الوداع الأخير.

سافر هيثم وتركني لمرّ الانتظار، وغيض الأحلام التي حلمناها سويًّا، والتي تنتظرنا متى يعود، ولكنه لم يعد.

لقد اندلعت حرب الكويت في الغزو العراقي الغاشم بعد شهرين من سفره، وقد فقدت الاتّصال به تمامًا، قبل أن يدرج اسمُه بعد عدّة أشهر من المفقودين، لم أصدق، كان الأمل مازال ينبض بداخلي، إنّه حتمًا سيعود، أشهر أخرى من الانتظار القاتل تمرّ على أمل يشرق ويغرب بذات الروح ألف مرّة، يحييها ويميتها مرّات، ولكنّه يأبى أن يموت، إلى أنْ وصل إلى أهله خطابٌ بالتعرّف على بقاياه من هويّته وأوراقه، يومها أخرجت لأملي العالق بقلبي شهادة وفاة.

كان الحزن يشفق على حالي، لم أكنْ لأصدّق أن أجنحتي البيضاء تكسّرت بهذه السرعة بهذه البساطة، وهوى من فوقها أكبر أحلامي محطمًا تمامًا.. لا شيء في هذا الكون أصعب من الفراق الأخير، ذلك الفراق الذي يباغتنا دون استعداد له ودون ميعاد، فلا نستطيع أن نسمح له أن يسلب حلمنا في البقاء ولا أملنا في أن يعود

الرّاحلون، لا نستطيع أن نستسلم لألمه الذي يجتاحنا عنوةً، وينخر في أعماقنا نخرًا، كيف نترك اصفرار الموت يخيّم على اخضرار أرواحنا فجأة بهذه الطريقة المخيفة، إنّ أرواحنا تقاومه أشدّ مقاومة، كي تبقى على قيْد الحياة، ولكنّ الموت أحيانا يكون أسرع من أنفاس الحياة.

بعد أعوام، أدركت أنّ هيثم لن يعود، وسيبقى بذاكرتي حلمًا جميلًا باسمًا من بين الغيمات التي تمرّ في الحياة كالحلم اللؤلؤي يسكن عتمتي يجمّلها ويزيّنها بابتسامته التي لا تموت.

أفنيت نفسي في العمل مع الأولاد وفي الدراسة، فحصلت على الماجستير وصرتُ أرهب فكرة السّفر رهبة لا يعلم ألمها سواي، فهي السكين الذي يشقّ جرحي الذي أضمّده بالكاد كي أصمدَ في طريقي رغم أنه لا يندمل، علّمت أجيالًا وتعلّمت أبدًا ألّا أتخلّى عن أحلامي حتّى النهاية. هكذا أصبحت منذ الخامسة والعشرين من العمر إلى أنْ تخطيت العقد الرابع بعام، طيلة هذه الأعوام كنت أعلم أنّ الزواج بالنسبة لي مسألة قدرية بحتة، ليس لي فيها حقّ الاختيار..

ومَن أختار؟ لقد اخترت أن أعتني بحلمي الذي سبقني إلى السماء، وتركت بإرادتي كلّ ما على الأرض ليحققه القدر كيفما يشاء.

لم أرفضِ المتقدّمين للزواج بي كلّ حين وحين، بل هُم مَن كانوا يفعلون، ما الميزة لهم من زواج بلا مصلحة ولا منفعة، لا جمال كافٍ يبهرهم لامتلاكه ولا مال ولا نفوذ يسعون خلفه بمعسول الكلمات للفوز به، وكلّما مرّ عام، كلّما قلت الفرص الضائعة، التي كانت تمرّ كالطيف كلّ شتاء، حتّى جفّ الشتاء، ولم أعدْ أبالي ولم أعدْ أنتظر إلّا أن ألتقي حلمي البعيد كلّ ليلة بالمنام، لأفيض، لأعشقه كما أريد.

كان بإمكاني أن أكوّن ثروة طائلة من الدّروس الخصوصية، ولكن بإرادتي قد

عزفت عن هذا الأمر، كلّ ما أتقاضاه من عملي وجهدي بين أسوار المدرسة والحمد لله أنّه كافٍ، الجميع كان يقنعني ويلحّ عليّ بانتهاز الفرصة قبل ضياعها، بإمكاني تكوين ثروة في فترة قصيرة، بإمكاني شراء سيارة ومنزل خاص بي، ومن ثمّ بمجرد أن يشتمّ العازفون عن الزواج بمثلي رائحة المال، سوف يحومون حولي من جديد كذباب حول نقطة العسل لأشتري من بينهم ما يروق لي، أو لأصطاد ما يعجبني منهم ولا مانع أن أدفع فيه الكثير، ليس هناك فارق كبير بين المصطلحات اللطيفة والفجة فالنتيجة واحدة.

لم أفعل ما كان زملائي يلحّون به عليّ، لأنّه واقع الحياة السريعة القاسية، وقد تزوج إخوتي وسافروا وتركوني وحيدة مع أمي، حلم السفر الذي يسعي إليه كلّ الشباب للتخلّص من فقرهم وحاجتهم الشّبقة إلى العيش الكريم، تاركين خلفهم أهلهم وذويهم حتّى تنهشهم الغربة نهشًا وتفرّغهم من الروح، لتملأهم بالمال وحلم الثراء، أمّا أنا فكانت راحتي هي أنْ أبقى في عالمي، ومع أمي، ومع حلمي.

كم كنت أخشى أنْ أتوه وحدي في غياهب الغربة، كنت أخشى أن أصبح مسخًا بلا هويّة ولا روح.

استسلمت أمّي لقضاء الله ومشيئته في ألّا أحقّق لها حلم الزواج كي ترى أحفادها منّي قبل الرحيل، لقد حاولت ذلك يا أمّي، حاولت أن أتنازل عن كلّ شيء مادي كي يبقى أحدهم معي على عهد المودّة والرحمة، لم أجرم أن جعلت أكبر أحلامي هو أن أشعر الأمان الذي حُرمت منه طويلًا، ولكنّي لم أجده ولكنهم لم يبقوا، وإنْ كان الأمر يخصّ كرامتي أو حلمي فإنّي عنهما لا أتنازل.

واكتفيت بهوايتي في التّدريس وتعليم الأجيال القيم قبل العلم، يكفيني أنّهم يذكرونني بأنفسهم بكلّ خير في كلّ وقت تأتي سيرتي في غيابي.

كنت أيضًا أنشر مقالاتي وبعضَ القصص والخواطر بجريدة أسبوعية، أتحصّل منها على دخل إضافي بجوار دخلي من المدرسة، كما كنت أخرج فيها مكنونَ ما يكنْ بأعماقي ولا أستطيع البوح به لأحد، فإخوتي بعدما كانوا يرسلون مبلغًا شهريًّا ليكفلنا، انقطع بالتدريج بحجّة أولادهم ومسئولياتهم وعملي ومعاش أبي الذي كانت تتحصّل عليه أمّي، وننفقه بالكامل على علاجها، ولكن رغم ضيق الحال علينا أحيانًا، فإنّ الله ييسره ويسترنا ولم يحوجنا إلى أحدٍ لا قريب ولا بعيد. وذلك السّتر هو أعظم النّعم التي يمنّها الله على عباده.

"سامحني يا هيثم، أعلم أنك تتفهّم جيدًا تغيّراتي النفسية والجسدية التي حدثت خلال الأعوام الماضية منذ الرحيل. أعلم أنك لا ترضى عن ما آل إليه وضعي في هذا البيت من اليوم، أنْ أقبل الزواج من رجل يحبّ زوجته وينفّذ لها رغبتها الغريبة قبل الموت، وأنا أساعدهما على ذلك، أراك تسألني وتلومني يا حبيبي لماذا قبلت هذا الوضع؟ لماذا قبلت أن أكون ثانوية في حياة أساسية مُفعمة بالحبّ والدفء بينهما لا يجب أن يكون لي مكان فيها، ولكنك تعلم الإجابة يا هيثم، ترى في كلّ ليلة شيب شعراتي وأحلامي وتجاعيد روحي وانطفاء بريق قلبي الحزين بعد الفقد وذبول أمنيتي في أنْ أمسك بين يدي ولدي الذي كنت أرجوه منك، أنت الذي أحببتني، الآن أنا هنا لربّما لمسته في صفقة متّفق عليها، مَن هذا الذي لا يحبّني، ولا أدري لماذا أحببته يا حبيبي، وأنا أعرف أنه ليس لي حتّى وهو معي، لربما ربّيت له أولاده الذين ربّيتهم منذ صغرهم وعلّمتهم، أنا هُنا من أجلهم، من أجل حلمي، وليس من أجله، ولا من أجلها، فقط من أجل أولادي يا هيثم بعد فوات العمر والأوان".

قضى وليد ليلته بين أحضان شيرين وكأنّها ليلتها الأولى معًا، رغم إنهاكها وتعبها من المرض قاومت بكلّ طاقتها فقط من أجله، ثمّ قالت وهي تمسَد شعره بيدين حانيتين، بينما كان وهج أنفاسه مشتعلًا على صدرها:

_ وليد، لا تجرحها؛ إنّها لا تستحق ذلك.

_ دعينا لا نتحدّث عنها الآن يا شيرين، أنا معك أنت فقط، معك إلى الأبد.

_حبيبي، وأنا معك دومًا، كدت أفقدُ صوابي وأنت لست معي، اليوم بتّ لا أصدق أنك مع أخرى، ولكن.. لم نأتِ بها إلى هذا البيت لنعذّبها سويًّا يا وليد.

_أتعرفين؟ هي مَن طلبت أن أتركها بمفردها اليوم.

انعقد حاجبا شيرين متعجّبة، وسألت في فضول:

_لماذا؟!

_ لا أعرف، أعتقد أنها ندمت، أظنّها تحسم أمرَ الطّلاق والهرب، وسوف لا أتردّد أبدًا في أن أمنحها حريتها.

_لا وليد. (قالت شيرين بحدّة بعض الشيء) أرجوك ألّا تفعل.

_أتعجّب جدًّا مِن تمسّكك بها إلى هذا الحدّ يا شيرين!!

_إنّك تعلم السبب.

_حسنًا، دعيها تحسم قرارها بنفسها، ودعينا نهنأ بليلتنا، وأنا هُنا بين ذراعيك بعدَ غيابٍ أشتمّ رائحتك التي أعادت لي روحي بعدما كدت أن أختنق.

_وليد، اذهب إليها.

_ماذا؟!!

_ اذهب إليها يا وليد، لا تتركها بمفردها هذه الليلة.

_لن أذهب إلى أحد، هذا شيء لا يُطاق.

قال محتدًّا وهو ينتفض من الفراش ويهمّ بارتداء ملابسه للخروج..

_إلى أين ستذهب؟!

_إلى المشفى، إلى المقهى، إلى الشارع، إلى الحانة؛ سوف أبيت بالسيارة، هل هذا مناسب لكما أنتما الاثنتين؟

ثمّ خرج غاضبًا دون أن ينتظر ردًّا..

***

طرق باب الغرفة، وكانت "هنا" تسبح في بحرٍ من الدموع بعدما أفاضت في أعماقها كلّ الذكريات البعيدة، فنهضت من فراشها ترتدي ثوبها حتّى لا يدخل عليها فجأة، ثمّ سمحت بدخوله.. فكانت شيرين..

_ أمازلت مستيقظة؟

_ كنت أحاول النوم، تعرفين المكان غريبٌ عليّ، واشتقت إلى فراشي وأمي.

_حسنًا، سوف تعتادين فراشك الجديد وسكنك الجديد معنا، ومع وليد زوجك.

قالتها وهي تقصد شيئًا ما في نفسها لم تفهمه "هنا"، فتجاهلته ثمّ سألتها:

_ هل أنت بخير؟ لماذا تحركت من مكانك؟

_نعم بخير لا تقلقي، وليد خرج إلى المشفى، فجئت لأجلس معك قليلًا.

_ شكرًا لكِ، لا داع لأنْ تجهدي نفسك، كنت أرسلتِ إليّ وكنت جئت أنا إليك.

_ وليد يبدو عصبيًّا بعض الشيء، ربما لأتفه الاسباب، تعلمين أنّه جرّاح كبير، ويومُه كلّه يقضيه تحت الضغط، فلا تحزني من سلوكه العصبي في بعض الأحيان، هو بالنهاية يتدارك نفسه وينسى لأنّه طيب القلب.

أذعنت "هنا" إلى هذا التبرير غير الواضحة أسبابه، ولكنّها فطنت لمغزاه، إنّ

شيرين تودّ أن تبلغها بطريقةٍ غير مباشرة أنّ وليد قد تركها وحيدة، وذهب غاضبًا إليها لأنّه لا يقبل ذلك الوضع، ورغم أنّ ذلك لم يحدث إلّا في خيال شيرين، إلّا أنّ "هنا" التزمت الصمت، وأبدت تقبّلها للنصيحة حين أومأت رأسها بهدوء قائلة:

_ حسنًا، مع الأيام سوف أتدارك ذلك وأتعامل معه.

وكأنّ الكلمة نزلت كالصاعقة على أذني شيرين، وكأنّ شيئًا يهتف بأعماقها ثائرًا، "إنها سوف تبذل جهدًا من أجل أن تقبله رغم عيوبه، ورغم كلّ شيء، أخشى ما أخشاه أن يكون ذلك بداية حبّ يغزو القلب، لن أستطيع منعه ولا تحمّله".

ابتسمت شيرين في وجل، ثمّ قالت:

_ بالنسبة للأولاد، إنّ الصّدمة أفقدتهم صوابهم، وربّما تحوّل حبّهم لكِ بأثرها، ولكنّهم أيضًا سيعتادون الأمرَ مع الأيام.

_حسنًا، ما يشعرونه أمرٌ طبيعي، إنّهم يتعرّضون لتغيّرات نفسية سريعة وتحت ضغط كبير، إنّي لا ألوم عليهم أبدًا، المهمّ الآن هو اعتناؤك بنفسك كي تعودين إليهم كما كنت.

شعرت شيرين من بين طيّات الأحرف أنّ هناك عدم راحة، ففضّلت أن تغادر، وتحاملت على نفسها كي تقف على قدميها وتغادر دون مساعدة منها بكلّ كبرياء.

إنّه كبرياء الأنثى، الذي أمام صرحه العظيم تتحطّم كلّ الآلام، وتحت أقدامه تدعس أفكارُ الخنوع والضعف، يسحق ما ينبض بالقلب وإنْ كانت روحُه فيه، يئدُه حيًّا، فلا حياة لأنثى رغم الكسر والألم دون كبريائها، فبانهياره يكون الموت محسومًا.

خرجت شيرين من غرفة "هنا" يساورها قلقٌ غريب، وذهبت إلى غرفة بناتها اللّاتي كنّ مازلنَ مستيقظين في حالة نفسية سيئة جرّاء هذا اليوم العصيب، فقد

سألوها مرارًا.. لمَ فعل أبوهم ذلك؟ وما حاجته لامرأةٍ أخرى وهو يحبّ أمّهم ويحبّهم؟ وحاولت هي أن تشرح لهنّ الأمر بهدوء وثبات كي لا تتحطّم صورته في أعينهنّ ولا صورة "هنا" أيضًا.

ـ لماذا تزوّج أبي من امرأةٍ أخرى يا أمّي؟

قالت سلمى باكية بحرقة، فاحتوتها شيرين بحضنها قائلة بهدوء:

ـ إنّه حرّ بقراراته حبيبتي، حتّى وإنْ لم يخبرنا بالأسباب.

ـ ولكنّه اخطأ في حقّنا يا أمّي، وأخطأ في حقّك، إنه لم يعدْ يحبّنا.

ـ لا تقولي ذلك يا جومانه، إنّه يحبّنا، وسيظلّ معنا دائمًا، ولن يتركنا أبدًا مهما حدث.

ـ إذًا لماذا تزوّج يا أمّي؟ لماذا ميس "هنا"؟ هل كانت تأتي إلى هنا من أجل أن تخطفه منك ومنّا؟!

قالت جومانه منهارة من الحزن.

ـ حبيبتي، إنّ زواجه ليس حرامًا، إنّه لم يغضب الله، حتّى لو أغضبنا نحن، ربّما في يومٍ ما يخبرنا أسبابه، ونغفر له لأنّنا نحبّه في كلّ الأحوال.

ـ ولكنّي لن أغفر يا أمّي، لن أغفر لها سلبَها لأبي من بيننا.

ـ حبيبتي، أبوكما يحبّنا، ونحن أيضًا نحبّه، ويجب أن نسعد لسعادته ونحترم قراراته، هي لم تسلبه، إنّه القدر الذي وضعنا جميعًا في هذه المحنة، وعلينا أن نصبر ونترابط حتّى تمرّ بسلام، وإنْ كنّا لا ندرك الأسباب الآن؛ يومًا ما سندركها ونغفر.

***

أحبّيني بلا عقد
وضيعي في خطوط يدي
أحبّيني لأسبوع.. لأيّام.. لساعات
فلست أنا الذي يهتمّ بالأبد
أحبّيني بألف وألف أسلوب
كزلزال.. كموتٍ غير منتظر
بكلّ توحّش التتر
أنا رجل بلا قدر
فكوني أنت لي قدري.

_صباح الخير وليد، مبكر جدًّا اليومَ يا عريس!

قالها يوسف مداعبًا مُندهشًا وهو يلجُ إلى مكتب وليد بالمشفى، فلم يكنْ متوقعًا وجودَه.

_لا تعبث معي يا يوسف، أشعر بأنّي مقيّد بهذا الوضع الغريب، ولا أستطيع تحمّله.

_ماذا حدث البارحة؟ (قال يوسف في فضول)

_لم يحدث شيء، لقد اختنقت، ولم أنمْ أرقًا، فجئت باكرًا.

_ الحقيقة أنّي لا أدري كيف مرّت الليلة على شيرين، إنّ غادة كادت أن تجنّ، ولم تنمْ هي الأخرى من الحزن، فأهلك لم يستوعبوا الصدمة بعد، وأنّهم يشعرون أنك خنت شيرين وخذلتها وصدمتهم بزواجك المفاجئ لأنّهم لا يعرفون حقيقة الأمر، وكانت زوجتي مصرّة أن تتّصل بزوجتك، لقد منعتها بالكاد.

_ أشعر بعصابة نسائية تحاوطني، زوجتي والثانية الأخرى وأختي وأمّي وابنتاي.

_لذلك لذْتَ بالفرار من ساحة الحرب، يا لكَ من شجاع يا صاح.

قال يوسف مداعبًا رغم أنّ وليد لم يكنْ في حالةٍ من الاتّزان ليتقبّل أي دعابة.. فالتزمَ يوسف الصمت حين بدأ العمل.

وعلى الفطور، استدعت شيرين "هنا" لتتناول معها الفطور ومع الأولاد، ولكن ما فعلته جومانه وسلمى رغم أنّه كان متوقّعًا سقط على روح "هنا" في لحظة الصدمة كحممٍ مُنصهرة وهي تراهما يقبّلان أمّهما ويمضيان في طريقهما دون أنْ ينظرا إليها

وقد رفضا الإفطار وهي على الطاولة، ورغم أنّ شيرين كانت تهمس لهما أنْ يقولا لها صباح الخير إلّا أنّ جومانة قالتها باقتضاب وسلمى أبتْ أن تقول.

شعرت "هنا" بالهزيمة الكبرى والألم النفسي الذي كانت تخشاه، وهي الآن تراه واقعًا لا مفرّ منه، لقد كرهها الأولاد، السبب الأقوى الذي جاء بها إلى "هنا". رأت شيرين الدّموع تترقرق في عينيها، فحاولت أن تحادثها بلطف، ولكن "هنا" لم تكن قادرةً على سماع أيّ كلمة مواساة تذكرها بوضعها الذي أصبح الآن وضعًا مهينًا، كم يصعب على الضيف أن يشعر أنّه ثقيلٌ على مَن نزل عليهم، ما المفترض أن تشعره وهي ترى أنّها غريبة غير مرغوبة بينهم، اعتذرت من شيرين وأخبرتها أنّها سوف تذهب إلى المدرسة لتباشر عملها، فهي لا تستطيع أن تمكث بين الحيطان طيلة اليوم وأخبرتها أيضًا أنّها ستمرّ على والدتها، ولتخبر هي عنها وليد عند عودته.

وبالمدرسة، وعند بدْء حصتها غادرت سلمى بغضب مكانَها خشية التقاء الأعين فيتضاعف الألم، وبعد انتهائها من الدّرس ذهبت إلى سلمى لتتحدّث معها في محاولة يائسة:

_ لا يجب أن تتركي الدّرس يا سلمى لمجرّد أنّك لا تحبّين المدرّسة، رغم أنك كنت بالأمس القريب تحبّينها كثيرًا.

_لن يحلّ أحد محلّ أمّي أبدًا، والمدرّسة التي أحببتها خذلتني، ولن تكون أمي أبدًا.

_لن يحلّ أحد محلّ أمّك يا سلمى.

_إذًا لماذا تزوّجتِ أبي؟

صمتت "هنا" ولم تعرف كيف تواجه الطفلة بحقيقة الأمر، ثمّ قالت من بين تشتت نظراتها أمام نظرات الفتاة الثاقبة الحانقة:

_ هل تصدّقي أنّني تزوّجته لأنني أحبّك أنت وإخوتك، وأودّ البقاء معكما دائمًا!؟ يومًا ما ستدركين ذلك، كلّ ما أودّه منك الآن ألّا تتركي الدّرس مرّة أخرى حتّى تتجنّبيني، أمّا بالمنزل يمكنك التصرّف كما تشائين.

انصرفت سلمى من أمامها، وعلاماتُ الغضب لم تبرح وجهَها المتأجج بحمرة تكسوه الدّموع الصامتة، وتركت "هنا" في حيرة وحزنٍ كبيريْن على تلك الخسارة، خسارة الحبّ الذي كان سببًا قويًّا في الرّضوخ لذلك الوضع الصعب، لتعش بين عائلة تشعر فيها الأمان كان من المفترض أنْ تكون عائلتها مع هيثم ذاتَ يوم بعيد هي كلّ الأمان. ثمّ انتهت من عملها، وذهبت إلى أمّها التي توجّست من رؤياها في صبيحة الليلة الأولى من الزّواج، وقالت لها في قلق لم تستطع إخفاءه:

_ حبيبتي، ماذا حدث؟

_لم يحدث شيء يا أمّي، فقط اشتقت إليك.

_لماذا خرجت من بيتك اليوم، ماذا حدث يا "هنا"!؟ أخبريني بالحقيقة.

_أقسم لك يا أمّي لم يحدث شيء، كلّ شيء على ما يرام، ولكنّي حقًّا اشتقت إليك، وجئت لأتناول معك الغداء.

_وهل زوجك وافق على ذلك؟

_نعم يا أمّي، وافق.

_ هل سيأتي ليتناول معنا الغداء.

_لا.. لديه عمليات بالمشفى منذ أمس، ولم ينته من عمله بعد.

_عمل؟ ألم يقضِ الليلة معك؟

صمتت "هنا" ولم تفلح في إخفاء الأمر، فقالت بنبرة هادئة محاولة الثبات:

_تعرفين أنّه طبيب كبير، ولا يستطيع التأخّر عن مرضاه.

_ كنت أعلم أنّ هذه الزّيجة لن تمرّ على خير، لا أعلم لماذا قبلتها يا "هنا" لماذا يسوء حظّك هكذا يا ابنتي، وأنتِ تستحقّين كلّ الخير، وانْهمرت دموع الأمّ على وجنتيْها حارّة موجعة ممّا فجّر ينابيع الألم في أعماق "هنا".

_كلّ شيء مقدّر ومكتوب يا أمّي.

عاد وليد بعد يومٍ طويل من العمل الشّاق ما بين العمليات بالمشفى ومحاضراته بالجامعة ومتابعة مرضاه بعيادته إلى المنزل، منهَكَ الجسد مرهق الفكر، فاستقبلته شيرين بابتسامة مشرقة، وقد جهّزت له حمّامه، واهتمّت به بشكل مبالغ ثمّ أخبرته من بين أطراف الحديث أنّ "هنا" قد ذهبت إلى عملها وإلى أمّها، فتجاهل الأمر وكأنّه لم يسمعه، ثمّ قال:

_ شيرين، لا تجهدي نفسك حبيبتي، أستطيع أن أتدبّر أمري كلّ ما يهمّني أن تبقين بخير.

_حبيبي، إنّ في إسعادك سعادتي، وفي راحتك راحتي.

قبّل وليد رأسها، وكانت علامات الإرهاق واضحة عليه، فسّرتها شيرين تفسيرًا آخر حين قالت بهدوء:

_تضايقت لأنّ "هنا" ذهبت دون أن تخبرك، أليس كذلك؟

_ مِن المفترض أن تخبرني، ولكن من المتّضح أنّها تعتبر نفسها قد تزوّجت منك أنتِ.

قالها مداعبًا محاولًا إبداء عدم الاكتراث، ثمّ استلقى ليستريح من عناء اليوم الطويل، وكانت تنظر إليه نظرةً عميقة وهي تقول بنفسها: "إنك لن تحبّها يا وليد، أعلم ذلك، لن يسكنك أحدٌ سواي طالما حييت".

هل بدأت حرب الأنثى ضدّ الأنثى مِن أجل الفوز بقلب رجلٍ لا تملك مفتاحه، ولا يملك لنفسه سلطانًا عليه؟ هل تعتقد الأنثى أنّها مهْما حاربتْ لتمتلكه أنّها حقًّا سوف تمتلكه منفردةً للأبد، حتّى ولو فازت به وحدها؟ مسكينة الأنثى وهي تظنّ أنّها منتصرة في حربٍ واهية على أخرى سواها، ربّما تكون أنثى أضعف منها أو أقوى. ليس الأمر متعلّقًا بقوة إحداهما على الأخرى، الأمرُ كلّه متعلّق بقدر لا يملكاه وبقلب لا يتقلب بمشيئة أحدٍ إلّا بين يدي خالقه، وإنّك أيّتها الأنثى عندما تتجاهلين عمدًا تلك الحقيقة، فإنّك لا تخدعين أحدًا إلّا نفسك، والسّبب الذي تدركينه جيدًا بأعماقك هو أن يبقى كبرياؤك صامدًا حتّى وإن كان قلبك محطّمًا.

عادت "هنا" في تلك الليلة متأخّرة بعدما غطّت في نومة عميقة على فراشها ببيت أمّها، والذي كانت قد استوحشته طيلةَ ليلة طويلة سابقة جرّفت في أعماقها كلّ الألم وفتحت كلّ نوافذ الذكريات البعيدة الرّائعة منها والغابرة، غطّت في نومها بأمان كي تصبّ كلّ هذا الألم في فضاء حلمها الشّاسع البعيد مع الأماني الساكنة في قلبها المعلّق على نجمة يتأرجَح بين الحلم البديع وبين الحياة البائسة، وكان وليد قد فرغ من نومتِه وجلس يراجع بعضَ التقارير بجوار شيرين التي كان ينهكها التّعب مستلقاة بفراشها يغشّيها الكرى فتغفو غفوةً سريعة ثمّ تفيق وكأنّها حارس ليلي يحرس قلب فارسِه تفيق لتتحسّسه وتطمئنّ أنه مازال بجوارها، كان وليد يقرأ بحثًا على حاسوبه، منهمكًا فيه حتّى سمع صوتَ الباب وهو يغلق ففطن أنّ "هنا" عادت من الخارج ودخلت إلى غرفتها، وأدركت ذلك شيرين أيضًا التي تظاهرت بالنوم وقتَ ألقى وليد نظرتَه عليها قبل أن يغلق حاسوبه وهو ينهض من مكانه، أمسكت شيرين يدَه وهو يغادر الفراش، وقالت له بنعومة:

ـ لن أستطيع أنْ أغفو وأنتَ بعيد عني وليد.

نظرَ إليها وليد نظرة طويلة مُفْعمة بالحنان، ثمّ استسلم بجوارها يضمّها إلى صدره وقد استسلمت.

وفي الصباح، استعدّت "هنا" للمغادرة باكرًا إلى عملها، فالتقت وليد وهي تهمّ بنزول الدّرج قبل ميعاد خروج الأولاد، التقت الأعين المضطربة حين نظر إليها نظرةً واجمة وهي تلقي عليه تحية الصباح بهدوء وفتور، وكانت تهرب من وهج عينيه، ثمّ قال بهدوء:

ـ أراكِ مبكّرة اليوم رغم عودتك في وقتٍ متأخّر بالأمس.

ـ إنّه ميعاد العمل.

ـ لا تهربي، أظنّ أنّ هناك واجباتٍ يجب عليك مراعاتها دون تنبيه، أنتِ لست نزيلة في فندقٍ لتخرجين وتعودين دون حسّ ولا خبر.

ـ لقد أخبرت زوجتك.

ـ حقًّا؟ ظننت أنّي زوجك الذي يفترض أنْ تخبريه. (قال متهكّمًا)

نظرت "هنا" إليه نظرةً طويلة حائرة أرجفها اختراق نظرته، ثمّ قالت بهدوء وهي تهمّ بالانصراف:

ـ أظنّ ذلك.

ـإلى أين؟

ـ إلى عملي.

ـألم يثرْ عودتك إلى العمل في صبيحة يوم عرسِك الشّكوكَ والظنون بين زملائك، وأمام أمّك؟

_ ألم تخبرْ نفسَك بذلك وأنتَ مبيت بالمشفى؟ أمْ أنّك لم تنتبه مثلي أنّه يوم عرس من الأساس.

_ اسمعي، لا أحبّ الجدال، يجب أن تفهمي هذا الأمر من الآن فصاعدًا، ولا خروج إلى مكانٍ دون علمي، ليس من الصعب أن ترسلي رسالة، واليوم ليس لدي عمل صباحي، سوف أذهب بشيرين إلى جلستها، وعليك أن تكوني بجوارها، أظنّ أنّ ذلك من ضمْن الاتفاق المُبْرم بينكما في تلك الصفقة.

ثمّ تركها بعد أن صفَعَها بوقع الكلمة الأليمة على روحها، ونزل ليودّع سلمى وجومانة بعد انتهائهم من فطورهم إلى حافلة المدرسة.

عادت "هنا" إلى غرفتها في حالةٍ من الضيق الشديد، وانْهمرت الدّمعات منها بلا هوادة تطفئ الكلمات الجارحة التي أشعلت الجرح الغائر بلا رحمة ولا شفقة.

شعر وليد وهو يرتشف قهوته، وكان ينهي مكالماته بالمشفة، بشيء من الندم أنّه ما كان يجب عليه أنْ يجرحها بهذه الطريقة، ثمّ صعد إلى شيرين التي كانت قد استيقظت في حالةٍ من التعب والوهَن الشديد فلم تستطعْ أن تغادر فراشها، حين دخل إليها وليد ووجدها تحاول النهوض:

_حبيبتي، هل أنت بخير؟

_ أشعرُ بغثيان ودوار، وكأنّ روحي تنسحب منّي بالتدريج، اليوم ميعاد الجلسة، سوف تسوء حالتي بعدها، وأنا لست على ما يرام.

_ لا يجب أن نؤجّلها يا شيرين، يجب أن ننتهي من هذا الكابوس، يجب أن تصمدي.

_ لا أستطيع النهوض.

ـ بل تستطيعين، "هنا" لم تخرج اليوم لتبقى معك، سوف أنادها لتساعدك.

ثمّ ذهب إلى "هنا" بغرفتها وكان بكاؤها قد فاق حدّ الصمت لينفجر نحيبًا يواسي روحَها المسكينة السجينة بين جدارن هذا البيت من أجل حلم بعيد المنال.

سمع وليد صوت بكائها من قبل أن يدخل إليها ممّا زاده ألمًا، فدخل إلى الغرفة فمسحت "هنا" وجهها سريعًا وهي تحاول ألّا تلتفت إليه حين قال:

ـ شيرين لا تستطيع القيام من فراشها، من فضلك ساعديها لا يجب أن نتأخّر على ميعاد جلستها.

نهضت "هنا" من مكانها مغادرة الغرفة دون أن تنظر إليه، بينما كان هو متجمّدًا بمكانه قائلًا لذاته... "لماذا لم أقدّم لها اعتذارًا على ما بَدَر منّي من سخافة الكلمات التي قذفتها بوجْهها على بكرة الصبح، لماذا لم أنبّهها فقط إلى خطئها في الخروج دون خبر، واكتفيت بذلك، لست أدري، إنّي مشتّت وكأنّني تائه في فراغ فسيح من الفضاء المُعتم، لا أرى أي بقعة ضوءٍ تدلّني على صواب الطريق".

ـشيرين، هل أنتِ بخير؟

قالت "هنا" وهي تحاول أن تمسك بيديها، بينما كانت شيرين تحاول المقاومة والنهوض.

ـ نعم بخير. (قالتها شيرين في وهن)

وبينما كانت تساعدها "هنا" في الخروج مع وليد، سألتها شيرين وقد لاحظت سحابة الدّمع المارّة بعينيها، وتجنّبها النظر لوليد تمامًا:

ـلماذا لمْ تذهبي إلى عملك اليوم؟ إنّ وليد معي سيرافقني ويهتمّ بالأمر.

كادت سحابةُ الألم أن تمطر لولا كبّلها الكبرياء عنوةً أمامهما، فنظرت إليها، وقالت بهدوء:

ـجزءٌ من اتّفاقنا المُبْرم أنْ أرعاكِ بجانب عائلتكِ حتّى تتعافين.

ثمّ غادرت حتّى تمطر وحيدة بالألم الذي انْهمر رغمًا دون أن يراها أحد.

لم تعلمْ شيرين أنّ هذا الردّ القاسي ليس موجّهًا إليها، ولكنه ردًّا على كلمات وليد الجارحة، وقد أدرك وليد ذلك فالتزمَ الصمت.

استبقوها إلى السيارة، والتزمت الصّمت طيلة الطريق، بينما غفت شيرين واتّكأت على مسند مقعدها بجوار وليد ممسكة بيديه، وقدْ رأت "هنا" ذلك ولم تعرْه انتباهًا وهي تنظر من نافذة السيارة على جانبي الطريق الموحش الطويل، والذي باتت تفكّر هل مِن تراجع منه، أم قد فات الأوان.

وفي المشفى، تجهّزت شيرين للخضوع لجلستها، تلك الحرب الضّروس التي لا ترحم خلايا الجسد الضعيف المتشبّثة بالحياة يفتكُ بها في كلّ دقيقة عدوّ مستفحل يلتهمها بلا هوادة، تقاومه بكلّ ما أوتيت من قوّة، يساعدها الإمداد الخارجي من العقاقير على الصّمود، تحارب عنها ومعها وتهاجم العدوّ الغاشم الذي لا تستطيع الخلايا المنهكة مهاجمتَه وحدها، حتّى تهزمه أو تنهزم، والذي يحدّد الانتصار على العدو وعلى الألم ليس قوّة العقاقير وتقدّمها؛ إنّها الإرادة النفسية، شدّة التعلّق بالبقاء، شدّة الرغبة بالحياة، والأمل الذي لا يموت.

خضعت شيرين إلى قدَرها، وخضع جسدها إلى الحرب التي انْدلعت بداخله من أجل الانتصار من أجل الحياة.

جلس وليد بجوارها ممسكًا بيديها متضرّعًا في صمت، وكانت هنا تجلس بركنٍ بنهاية الغرفة تشعر بالرّهبة، وكأنّ الألم الذي أصابها في تلك اللحظة قد محي ألمُها البسيط من مجرّد كلمات جارحة، إنّ شيرين تتألم ألمًا يصعب احتماله حقًّا، لا يجب أن نسمّي ما دونه ألمًا.

بدأت شيرين في خوْض الحرب الضّروس وهي تقاوم وبدأت تعبّر عن ألمها بالضغط على يدِ وليد، فهي حتّى لم تعدْ تقوى على البوح.

ورأت "هنا" أن تتركهما معًا حتّى تكون شيرين على راحتها، وخرجت تتجوّل بطرقات المشفى بين المرضى الذين جاءوا يحملون على عاتقهم أملَ الصمود أمام الموتِ والخلاص من الألم حين ينهزم المرضُ اللّعين على يديه، ينظرون إلى أجهزة العلاج نظراتٍ مليئةً بحبّ الحياة رغم رهبتها ورغم الخوف من الفقد، والغريب أنّهم مازالوا يبتسمون، حتّى أنتِ أيّتها الطفلة البريئة كالملائكة تبتسمين، جئت تحتضنين دميتك الصّغيرة لتشاركك لحظة التمنّي وتؤنسك في درب الأمل الطويل، ربّما كانت تلك الدّمية هي سبب تمسّكك بالحياة، اقتربت منها "هنا" ولا تدري أيّ حنان تحرك بأعماقها قاد قدميها إليها، إنّه حنان الأمّ الغريزي الذي لا يمكن أن ينضب، وإنْ تحوّلت الأرض بورًا.

_يا لها من دمية جميلة، ما اسمها؟

بادرت "هنا" الحديث مع الطفلة في ابتسامةٍ رقيقة وهي تربتُ على شعر الدمية..

_ ساندي.

_أهلًا ساندي وأنا "هنا"، وأنت يا أميرة جميلة من عالم ديزني، ما اسمك؟

_ سدرة.

_ما أجمله من اسم، يليق بأميرة جميلة، أتعرفين أنّك أجمل من الأميرات، سوف أناديك من اليوم بالأميرة سدرة.

ابتسمت الطفلة، وقالت بابتسامةِ عينين بريئتين:

_ هل أنت طبيبة؟

_ لا حبيبتي، إنّني هُنا من أجلك.

_ من أجلي أنا؟

_ نعم، من أجلك أنت.

كانت "هنا" تفيض بما اختلج صدرُها من حنان دون وعي منها، ثمّة شيء أقوى منها يرغمها على البقاء، ربّما كان ذلك هو اللّقاء الأوّل والأخير، ولكنْ لا يهمّ، المهمّ أن نكون في أجمل حالتنا وأوْج شعورنا في وقت اللقاء.

_ إذًا لا بدّ وأنّك تخضعين مثلي لهذا العلاج المؤلم، هل انتهيت من جلستك؟ (قالت سدرة).

_ نعم، انتهيت ورأيتك من بعيد، وأحببت أن أبقى معك قليلًا إنْ لم تمانعي.

_لا أمانع، إنّ أبي قد ذهب ليحادث الطبيب بشأن نتائج فحوصاتي، وتركني هنا أنا وساندي نلعب سويًّا حتّى يعود.

_ وأين أمّك؟

_ عند الله.

_ حبيبتي، أتعلمين أيضًا أنّني ليس لي أميرة جميلة مثلك.

_هي عند الله أيضًا؟

_ نعم، وإنك جميلة مثلها.

_سوف أقابلها عند الله، وأخبرها أنّ أمّك تحبك كثيرًا.

_ لا يا حبيبتي، سوف تكبرين وتتعافين، وتصبحين أنتِ أمًّا، ولكِ أميرات صغيرات جميلات مثلك.

احتضنتها "هنا" بفيض الألم الهائل والحنين الفائض الذي لم تستطع كتمانَه والسيطرة عليه في تلك اللحظة وهي ترى كلّ هذه البراءة تتحمّل كلّ ذلك الألم وحدها، لم

تستطع أن تمنع دمعاتها وهي تربتُ على شعرها، راجية الله أنْ يخفّف عنها ويعافيها، هي وكلّ مَن هُم مثلها يخضعون لذلك الألم الموحش والمصير القاسي المجهول.

كان فارس يلتزم الباب متمعّنًا بابنته التي استلقتْ مُستسلمة للألم وللصدر الحنون، ثمّ طرق الباب برفق، فانتبهت "هنا" وهي تلتفت إليه فقالت سدرة ببراءة وفرح:

_ها هو أبي قد أحضر لي الشكولاتة، كم أحبّك يا أبي.

تقدّم والدها وهو يضع الشيكولاتة بجوارها قائلًا:

_ لننتهي من الجلسة أولًا، ثمّ نلتهم الشيكولاتة أنا وأنت وساندي و...

وكان ينتظر من سدرة أن تعرّفه على السيدة، فأكملت وقالت،

_ إنّها "هنا"، صديقتي الجديدة.

_ أهلًا بك، هل أنتِ من الطاقم الطبي هنا؟

_ من المرضى.

قالت "هنا" دون تردّد لأنّها قالت لسدرة نفسَ الجواب منذ قليل.

_ أهلًا بك، لم ألتقيكِ أنا وسدرة قبل اليوم.

_ مازلت في بداية الجلسات.

_ سوف يتمّ الله شفاءك وشفاء ابنتي وكلّ المرضى هنا بإذنه.

_ الله قادرٌ على كلّ شيء، هل سمحت لي بزيارة سدرة في المرّة القادمة.

_ بالطبع.. إنْ لم يكن الأمر متعبًا عليك أنت، سدرة تحب الناس كثيرًا وتفرح بزيارتهم.

_ متي معاد جلستها القادم؟

وبينما كانا يتبادلان أطراف الحديث، كان وليد على باب غرفة شيرين يتحدّث مع زميله الطبيب المعالج يتناقشا في أمر حالتها وما يترتب عليها من قرارات قادمة، وقد لمح "هنا" وهي تخرج مع هذا الرجل من الغرفة في نهاية الطرقة.

ودّعت "هنا" سدرة بقبلةٍ في الهواء، ثمّ صافحت فارس بابتسامة وغادرتهما، ولم تغادرها الابتسامة المشرقة على وجهها الحزين.

وبينما كانت تقترب، كان وليد عالقَ النّظر بها وهي سابحة بتلك الابتسامة التي لم يرَها من قبْل على شفتيها بهذا البريق، حتّى انتبهت له وللطبيب، فسألته:

_كيف حال شيرين الآن؟

_إنّها على وشك الانتهاء، من فضلك اسبقيني إليها بالدّاخل حتّى أنهي حديثي مع الدكتور.

قال وليد بلهجة حادّة مقتضبة، واستكمل حديثه مع زميله..

انتهت شيرين من جلستها، وكانت على وشك المغادرة، ولكنها كما أخبرت وليد في الصباح أنّها ليست على ما يرام، ويبدو أنّ الأعراض الجانبية سوف تهاجمها بشراسة في تلك الليلة.

اتّكأت شيرين على كتف وليد وبين ذراعه الملتفّ حولها، وكانت "هنا" تحمل عنها حقيبتها وأغراضها، بينما كانا يقطعان الطرقة الطويلة، مرّت من أمام غرفة سدرة وقد لاحظتها فلوّحت بيديها الصغيرة التي لم تكن مكبّلة بلأجهزة الدقيقة والسنون والخراطيم كاليد الأخرى، قائلة بصوت طفولي رقيق: إلى اللقاء "هنا".

ابتسمت "هنا" لها ولفارس الذي تعجّب من كوْن المريضة التي يحملونها ليست هي كما أخبرته، لقد شاهد وليد وهو يسند شيرين التي لم تكنْ في كامل انتباهها هذا المشهد، ولكنّ وليد قد رصده بتفاصيله هذه المرّة، وآثر الصمت واصطنع اللامبالاة.

وبعد الوصول إلى البيت، تناولت شيرين العقاقير المهدئة التي تحدّ من شدّة الهجمة التي تتبع أعراض الدّواء الخطرة أحيانًا إنِ استسلم الجسد الضعيف.

فإنّ ثمنَ هذه الهجمة يكون ألمًا كافيًا لأن يتمنّى الإنسان الموت قبل ميعاده، ألم لا يمكن وصفه ولا يمكن أن يتحمّله الجسد بمقاومته دائمًا فيبدأ رغمًا في الانهيار، ولكن وليد كان يحسم أمرَ هذا الألم المتمكن من آثار حرب الجسد مع عدوه المستعمر بالعقاقير المسكنة الباهظة الثّمن التي يعرفها بصفته طبيب مقتدر، فما بال الذين لا يعرفون الطبّ ولا يقتدرون، عافاهم الله وهوّن عنهم هذا الألم العظيم.

خلدت شيرين إلى النوم والهروب، وخرجت "هنا" من الغرفة بعد أن اطمأنّت عليها، ولم تتحدّث إلى وليد والذي تبعها إلى غرفتها بعد أن اطمئنّ هو الآخر، وقال لها بنظرة ثاقبة:

ـ مَن الرجل الذي كنتِ برفقته بالمشفى؟

ـ لم أكنْ برفقته، كنت برفقة ابنته المريضة وقت جلستها، وجدتها وحدَها فرافقتها حتّى عاد إليها.

ـ أي أنّ هذا هو أوّل لقاء بينكما؟

ـ نعم لقد كان كذلك.

ـ أظنّه لن يكون الأخير.

ـماذا تقصد؟!

ـ أقصد أنك أعجبت بدور الأمّ تريز، فنقلت نشاطك من داخل المنزل لخارجه.

ـ كفى، لن أسمح لك بإهانتي كلّ مرّة تتحدّث فيها معي وكأنّك تتعمّد ذلك.

انفعلت "هنا" وهي ترى حدّة نظرته الثاقبة تنمّ عن بركان وشيك الانفجار، حتّى سمعا صوت صراخ قادمٍ من غرفة شيرين، فهُرع الاثنان إليها، ليجداها ملقاةً على الأرض متعرّقة بغزارة بين بحرٍ من القيئ، إنّ الألم قد اعتاد المسكن فلم يعدْ يحدث فارقًا كوْنه باهظ الثمن.

أمسكت "هنا" بذراع شيرين، وأمسك وليد بذراعها الآخر ليسنداها إلى الحمام، لم يمرّ على شيرين مثل هذا الألم منذ الجلسة الأولى، إنّه ضعف الإرادة وانهيار المقاومة أمام تمكّن العدو المتربّص من مواضع الألم وقد احتلّها بالكامل وقت بدأ يحارب الدواء بشراسة حتّى وهن الجسد واستسلم..

ظلّت شيرين تتقيأ، وأسرع وليد بحقنها وريديًّا بجرعة أخرى مضادّة للقيئ وأخرى للألم، وظلّت "هنا" بجوارها تمسح عنها تعرّقها الشديد، وتشدّ من أذرها وهي تقول لها: ستكونين بخير لا تقلقي.. حتّى هدأت شيرين بالتدريج وقد بدأت حرارتها في الارتفاع، فطلبت "هنا" من الخادمة تجهيز الحمّام، وطلبت من وليد أن يحمّمها بماء بارد، وخرجت هي تعدّ لها ثيابًا نظيفة، ونزعت الملاءات المتّسخة ولملمت السجاد الغارق على الأرض، وقامت بفرش ملاءات نظيفة، وجهّزت الضّمادات والكمّادات بجوار السرير، نادى وليد على الخادمة لتساعده في إخراج شيرين معه إلى فراشها بعد أن حمّمها وبدّل لها ثيابها التي جهّزتها "هنا"، وبعد انتهاء وليد من مهمّته بالداخل، حيث كان يصعب على نفسها أن تساعدها على الاستحمام وتطّلع على ما لا يجب الاطّلاع عليه، ربّما يكون ذلك مؤلمًا على نفس شيرين أن تراها "هنا" في قمّة ضعفها ووهَنِها، وربما كان ذلك صعبًا على نفس "هنا" أيضًا أن تراها فتتجسد بداخلها التفاصيل لو اشتعلت المقارنة بداخلها، فكان ذلك هو الجزء الذي لا يمكن

لأحدٍ الاطّلاع عليه إلّا وليد وحده؛ لذلك طلبت من الخادمة مساعدتها في ترتيب الغرفة مولية هذا الأمر بالكامل لزوجها.

جلست بجانبها تضع الكمّادات على رأسها، وقد هدأت شيرين في فراشها، ثمّ قالت للخادمة بصوت هادئ ضعيف:

_ شكرًا لمساعدتك، اهتمّي الآن بتجهيز الطعام لحمزة، وللبنات؛ فهُم على وشك الوصول.

_أمرك سيدتي.

_ إن استيقظ حمزة أحضريه لي.

_حسنًا سيدتي.

_ هل تشعرين بتحسّن؟

قالت لها "هنا" وهي بجوارها..

_ نعم، شكرًا لك.

_ إنْ كان لديك عمل يا دكتور يمكنك الذهاب، سأبقى معها حتّى تستيقظ وستكون على ما يرام، وإن حدث شيء جديد سأهاتفك فورًا.

قالت "هنا" له باقتضاب، ولم تلتفت إليه.

كان وليد مرهقًا جدًّا، ولم يستطع حتّى الردّ عليها فذهب ليغير ملابسه بعد نظرة طويلة لها قد تجاهلتها عن عمد، وخرج مودّعًا زوجته شيرين بقبلة على رأسها، وهي تستسلم للنوم دون أن ينبث ببنت شفة.

وفي المشفى، وبعد انتهائه من العمليات، اتّصل بسكرتيرته بالعيادة يخبرها بأن تعتذر للمرضى اليوم.. إنّه لم يعدْ يستطيع العمل لنهاية اليوم.

كان معه يوسف يشرب القهوة معه بمكتبه، وقال له في قلق:

_ أراك اليوم منهكًا تمامًا، اذهب إلى البيت وارتاح.

_ أيّ راحة يا يوسف تتحدّث عنها، لقد تعبت شيرين اليوم تعبًا شديدًا، وقد تحدّثت مع الطبيب، والذي بدوره أخبرني بحتمية الانتهاء من الجلسات أولًا، ثمّ بعد ذلك نحدّد أمرَ إذا كان الورم الذي ظهر ببؤرة جديدة قد تقلّص إلى حدّ أن يتمّ تجميده واستئصاله أم أنّ الأمر سيستدعي استئصال الرحم والأنسجة المحيطة بأكملها، وإنّها لعملية صعبة في هذا الوضع، إنّ الأمر مرهق جدًّا، وإنّها تتحمّل الألم ببسالة غير عادية، أشعر وكأنّ هذا الألم يصيبني كلّما تألمت.

_ الأمر حقًّا صعب يا وليد، يجب أن تصمد وهي أيضًا سوف تصمد للنهاية حتّى تتعافى.

_أتمنّى ذلك، حتّى أنتهي من ذلك الكابوس الآخر الذي دخل إلى حياتي عنوة.

_ تقصد "هنا"؟

_نعم، إنّي لا أفهمها، اليوم تصرفت معها بشكل عنيف، بسبب كلّ الضغوط الهائلة التي على عاتقي التي تفقدني هدوئي واتّزاني احيانَا، فعاقبتني بدهاء.

_كيف؟ ألا تعلم ما يحدث لشيرين وما تمرّ به؟

_بلي، لقد ظلّت طيلة اليوم معنا بالمشفى، وتركتها بجانب شيرين ترعاها.

_ إذًا.. كيف تقول إنّها عاقبتك!

_تجادل وتردّ الكلمة بالكلمة، وإني لا أعتاد على هذا الأسلوب المجحف.

_ كيف يتسنّى لها أن تفهمك جيدًا وقد أصبحت فجأة بين ليلة وضحاها

زوجتك، وهي تعلم جيدًا أنك لا تريدها وأنت تتعمّد إظهار ذلك لها في كلّ وقت، إنّ هذا الأمر عظيم وشاقّ على النفس، وثمّة سبب قهري اضطرّها لتقبل ذلك الوضع الغريب المهين، فلا يجب أن تذكرها أنت بهذه الإهانة.

_معك حقّ، يبدو أنني تجاوزت ولم أحسن اختيار كلمات لائقة.

_ اسمعني وليد، لست مطالبًا بأن تحبّها، ولكنك مطالَب بحسن معاملتها، لقد أصبحت زوجتك بغضّ النظر عمّا إذا كان ذلك صوابًا أم خطأ.

_نعم يا يوسف.

_حسنًا، اذهب لترتاح ولتطمئنّ على شيرين، لست أدري إلى متى ستخفيان هذا الأمر عن العائلة!!

_ لا تودّ شيرين أن يراها أحد بهذه الحالة من أجل الأولاد، مجرّد ما أن يتهيّئون نفسيًّا لتقبّل الأمر؛ سوف نخبر الجميع.

***

أخـاف أن أقول ما لدي من أشيـاء

أخاف ـ لو فعلت ـ أن تحترق السماء

عاد الأولادُ من المدرسة، وأوّل ما يقومون به هو السّؤال عمّا إذا كانت أمّهم بالبيت أم لم تعدْ من عملها بعد، ولكنْ في تلك الفترة التي أخبرتهم فيها بأنّها بإجازة للمذاكرة لاجتياز بعض الاختبارات الطبية للترقية كانوا يعودون إلى غرفتها مباشرة وخصوصًا بعد حادثة الزواج التي كسرتهم، وجعلت تعلّقهم بها أقوى ممّا كان، فهُم يعودون قبل عودة المرأة الأخرى، هكذا كانوا يطلقون على "هنا"، بعد أن ذهب حبّها في قلبهم مع الرّيح.

في هذا اليوم، عادوا ودخلوا إلى أمّهم ليجدوا الأخرى بجوارها تضمّدها، فزعت جومانة لما رأت أمّها في هذه الحالة مُستلقاة على الفراش في نوم عميق وشحوب واضحٍ على وجهها المريض. جلست سلمى بجوارها تناديها بقلق لتردّ عليها تطمئنها أنّها بخير، وقفت "هنا" على الباب تنظر إليهما، ثمّ قالت لهما:

ـ إنّ والدكما قد أعطاها دواءً لتنام قبل خروجه، وطلب أن نتركها لترتاح، وسوف تفيق على ما يرام، اطمئنّا.

ـ من فضلك اتركينا مع أمّنا وحدنا، نعرف كيف نرعاها، سوف أتّصل بأبي، نحن لسنا في حاجة لمساعدتك.

قالت جومانة وقد انفلتَ منها زمامُ الغضب وهي تفجّر كلماتها في وجه "هنا" التي لم تنطق، وخرجت وأغلقت الباب في هدوء، وذهبت إلى غرفتها تعتصر الألم بين أضلعها، ولكنّها قاومته بتذكّر صورة سدرة وحديثها، وباتت تقول لنفسها: ليت كان لي أميرة كسدرة تنتهي عندها أحزاني وأحلامي.

وبينما كانت تغفو مع حلمها البسيط بسدرة، استفاقت على صراخ سلمى وجومانه، فهُرعت إليهما لتجد شيرين قد عاودتها الهجمة بقوّة، وبدأت تتقيئ بشكل مفزع..

_ اتّصلي بأبيك..

قالتها وهي تسند شيرين من على الأرض بعد أن سقطت من فوق الفراش وهي تقاوم، وأسندتها إلى الحمّام، ثمّ أحضرت الترمومتر لتقيس حرارتها، بينما دخلت جومانة بالهاتف قائلة لها: أبي يريد أن يحادثك. فردّت عليه:

_ نعم، إنّ حراراتها ارْتفعت الآن عمّا كانت في الصباح، ما اسمها؟ تلك ذات العلامة الزّرقاء؟ أكسر الزجاجة وأحقنها كلّها بالأنبوب؟ نعم فهمت، وبعد نصف ساعة أحقن الأخرى ذات العلامة الحمراء بعد أن أحلّلها في عشرة سنتيمترات من الماء المعقم، تمام، فهمت.

وفعلت ما أخبره بها وليد على الهاتف، حتّى بدأت تهدأ مجددًا، بينما كانت جومانة مُمسكة بيدي أمّها لا تعرف ماذا تفعل، وكانت سلمى هي الأخرى تجلس بجوارها تبكي من الخوف على أمّها، بينما أسرعت "هنا" بمناداة الخادمة لتغيّر الفراش مرّة أخرى، ثمّ توجّهت للحمّام مرّة أخرى وقالت للفتاتين:

_ من فضلكما، ساعدا أمّكما في تغيير ملابسها، ها هي تلك النظيفة، وسأنتظركما بالخارج. (ثمّ قالت لشيرين وهي تربت على كتفها برفق) اصمدي شيرين، ستكونين بخير وعلى ما يرام.

ثمّ خرجت وأغلقت الباب عليهنّ، وباتت تتأكّد أنّ كلّ شيء أصبح نظيفًا كما كان، ثمّ خرجت البنات بأمّهما وهي في وهنٍ شديد، ولكنها لم تكن فاقدةً للوعي، حتّى استلقت مرّة أخرى على فراشها، ونظرت إلى سلمى وأخذتها بحضنها كي تهدأ فقالت لها سلمى:

_ أمّي، ماذا بك؟ إنّ أبي في الطريق لا تقلقي.

_ لا أقلق حبيبتي، طالما أنتم بجواري.

_ أمّي، هل أصبحت بخير؟

قالت جومانة وقد لاحظت تحسّنًا ملحوظًا عمّا كانت عليه منذ دقائق.

_ نعم حبيبتي، أنا بخير. (ثمّ نظرت إلى "هنا" بعينين ذابلتين قائلة):

_شكرًا "هنا" لِمَا فعلته اليوم معي.

_ لم أفعل شيئًا شيرين، ستكونين بخير.

ثمّ همّت لتخرج من الغرفة مرّة أخرى وتركتهنّ..

فسألت جومانة:

_ هل كانت بجوارك طوال اليوم يا أمّي؟

_ نعم.

_ أظنّها لذلك تغيّبت اليوم، لقد درّس لنا حصتها مدرس آخر. (قالت سلمى).

_وكأنّك لم تكوني يومًا تحبّينها يا سلمى!! (قالت الأمّ في فضول).

_ لم أعدْ أحبّها.

_سوف أعاود الاتّصال بأبي.

قالت جومانه بعدم اكتراث لأمرها، وتذكّرت هاتفها الذي أعطته لها وقت انشغلت بأمّها، فهُرعت لتأخذه منها..

بينما كانت "هنا" قد وضعته دون قصدٍ بجيبها وهي ترتّب الغرفة وهُم مع أمّهم بالدّاخل، ولم تنتبه إلى أنّها نسيت أن تعيده إلى جومانه بعد انتهائها من مكالمة وليد، إلّا وقت أنْ جاءت تلك الرسالة..

فعادت لتعطيها الهاتف دون أن تفتح الرّسالة، ولكنّ الكلمات الأولى منها كانت صادمة..

قابلتها جومانة باضطراب وهي تركض ناحية غرفتها، وكانت "هنا" في طريقها لإعطائها الهاتف، فأخذته منها وقد نظرت إليها نظرة زائغة تخفي هلعًا وخوفًا عظيماً، ولم تقلْ لها شيئًا، وعادت إلى غرفة أمها.

بينما عادت "هنا" إلى غرفتها وهي في غاية القلق بعدما تأكّدت من تعبيرات وجه الفتاة الخائفة، قائلة في نفسها:

ـ ليس من حقّي أن أسألها مَن يكون ذلك الشاب الذي أرسل لها "حبيبتي لقد التغى الدّرس، وسنبقى اليوم وحدنا" هل لي الحقّ أن أخبر أباها وأمَّها وهُم في هذه المحنة العصيبة! لا أعرف كيف أتصرّف، ولكن كلّ ما أعرفه أنني لن أتركها، لا أعرف كيف ولكنْ حتماً سأجد طريقة.

ومرّ وقتٌ من التفكير العميق، وعادت إلى غرفة شيرين التي كانت قد خلدت إلى النوم وبناتها بجوارها، وقامت بإعطائها الجرعة الأخرى كما كانت تعليمات وليد، ولم تنطق بينما كانت جومانة تتجاهل نظراتها إليها خوفًا من المواجهة.

وصل وليد بعد أنْ أعادت جومانه به الاتّصال، وتفحّص شيرين وهي نائمة، وسأل "هنا" إنْ كانت قد فعلت ما أوصاها به في الهاتف فأجابته بنعم، سألته جومانه ما الذي أصاب أمّها؟ فأخبرها بهدوء أنّها وعكة صحية أصابتها في الصباح، ومع العقاقير سوف تصبح بخير، وبينما كان يطمئنّ وليد ابنتيه، غادرت "هنا" الغرفة، وقد تيقّنت أنّ جومانة التي تتحدّث بصوتٍ مرتعش مع أبيها، لم يكن فقط بسبب خوفها على أمّها، بل بسبب أمر أكثر خطورة، أمرٌ جلل لا يجب أن تتجاهله لأنه لا يعنيها لمجرد أنّ هذه الفتاة تعاني من أزمةٍ نفسية بسبب زواج أبيها من أخرى فتبرّر ما تفعله من خطأ دون رادع أو عقاب، وقتها قد حسمت "هنا" الأمر، ظلت بغرفتها ترقب النافذة لتعرف متى ستخرج جومانة، وقد استعدّت للخروج خلفها مهْما كلّفها الأمرُ

من خسارة، لا يهمّ سوى ألّا تخسر جومانة نفسها تحت أي ضغط، تحت أي سبب.

مرّ الوقت صخبًا، وكأنه يعلن التمرّد على قسوة الانتظار، و"هنا" متوترة تقف على النافذة تتمنّى ألّا تخرج جومانه فيخيب ظنّها حتّى شاهدت جومانة تخرج بالفعل فخرجت مسرعةً خلفها دون أن تخبر وليد.

استقلّت سيارة أجرة خلف سيّارة استقلتها جومانة، حتّى وصلت السيارتان إلى هذا المنزل الراقي في المنطقة الهادئة جدًّا..

صعدت جومانة إلى البيت، و"هنا" تترقبها من السيارة، لم تقرّر هل تلحقها، أم تتّصل بأبيها ليأتي وينقذها، ولكن إنْ جاء وليد في هذه اللحظة سوف تحدث كارثة لا يحمد عقباها، ثمّ حسمت الأمر ونزلتْ من السيارة في اتّجاه المنزل وطلبت من السائق أن ينتظرها بضعة دقائق..

تردّدت "هنا" في قرع جرس الباب، ولكنّها لم تتردّد كثيرًا، إنّ الأمر أخطر من أنْ تقف على الباب تفكّر في عواقبه، وطرقت الباب، أكثر من مرّة، حتى فتح لها هذا الشاب، إنّها تعرفه، كان أحدَ طلّابها بصفّ جومانة قبل الانتقال معًا إلى المرحلة الثانوية، تعرفه جيدًا، تعرف استهتاره وأخلاقه المنفلتة، نظرت في عينيه بحدّة وقالت:

_ بهدوء، أبلغ جومانة أن تخرج.

_ ميس "هنا"!؟ (قال آسر وهو يبتسم ليخفي حدّة توتّره جرّاء الصدمة) جومانة؟ لم تأتِ اليوم، لقد التغى الدرس.

_ قلت لك بهدوء ادخلْ وقلْ لجومانة أن تخرج.

_ أخبرتك، إنّها ليست هُنا..

وقد بدأ الخوف المتملك منه أن يأخذ بصوته إلى حدّ الارتفاع.

لم تجدْ "هنا" بُدًّا من دفعه بيديها غضبًا والدّخول رغمًا عنه، قائلة بصوت مرتفع، وصل إلى مسامع جومانة بالداخل:

ـ من المفترض أن يكون الدّرس قد بدأ، ولكنّي لا أرى درسًا ولا مدرّسًا.

ـ إنّك تقتحمين بيتي، ولن يكون ذلك في صالحك أبدًا ميس "هنا".

ـ حسنًا، سنرى ماذا سيكون في صالحك إنْ جاء أبوها الآن ليتأكّد بنفسه إنها ليست هُنا.

هُنا، ابتلع الولد ريقه من الخوف قائلًا لها وهو يحاول تلطيف حدّة التوتر:

ـ حسنًا ميس "هنا" تفضّلي بالجلوس، أرجوكِ، سوف تخرج جومانة في هدوء، لا داع لأنْ تتسبّبي لها ولي بمشكلة كبيرة، نحن في غنى عنها. إنها لم تكن تعلم أنّ الدرس قد التغى.

قاطعته "هنا" بحدّة:

ـلا أريد سماع كذبك، لتخرج جومانة معي الآن.

خرجت جومانة إليها وهي تنظر إليها نظرة ثاقبة صامتة،. وقالت "هنا" بهدوء:

ـ هيّا تفضّلي أمامي.

ونزلت أمامها جومانة ولم تقل شيئًا لآسر، كان كلّ ما همّها أن جومانة قد خرجت من عنده بخير.

استقلّت السيارة المنتظرة، وكانت جومانه طوالَ الطريق صامتة، ولم تنطق "هنا" حتّى وصلا إلى البيت، وقبل أن تنزل جومانة من السيارة أطبقت "هنا" على يديها قائلة:

ـ أخبري أباك أنّ الدرس قد التغى فحسب.

لقد فهمت جومانة أنّ "هنا" سوف تخفي الأمرَ عن والديها، ولكنّها سحبت يديها بعنف من بين يدي "هنا"، وأدارت لها ظهرها على الفور.

وذهبت "هنا" إلى مكان ترتاح فيه، كي يخفّ توترها، وتستجمع أفكارها من الشتات، بينما صعدت جومانة إلى حيث غرفتها دون أن تتحدّث مع أحد.

ظلّت "هنا" ترتشف القهوة فنجانًا وراء الآخر، وكانت العودة إلى هذا البيت في تلك الليلة بمثابة الذّهاب إلى القبر، ولكنّا لا نملك قرار الفرار من الموت.

***

تراني أحبك؟ لا أعلم
سؤال يحيط به المُبهم
وإن كان حبي افتراضًا
لماذا إذا لحت طاش برأسي الدم
وفرّ وراء ردائك قلبي
ليلثم منك الذي يلثم
وأسأل قلبي أتعرفها
فيضحك منّي ولا أفهم
لا.. لا.. محال
أنا لا أحبّك ولا أغرم

عادت "هنا" بعد بضعة ساعات من خروجها، وصعدت إلى غرفتها دون أن تمرّ على شيرين، فإنّها لا تستطيع إخفاء حزنها طويلًا، فتهرب وتختفي كي لا يلحظ أحدٌ ذلك الحزن وأثره على الوجه الباهت، وبينما كانت تبدّل ثيابها، دخل وليد إليها يثقبها بنظرات حانقة تعلن عن بركانٍ ثائر بالأعماق بات وشيكَ الانفجار حين سألها:

_أين كنت؟

نظرتْ إليه نظرة لا مبالاة، وهي تحاول التزامَ الصمت، ثمّ قالت بعد برهة:

_ عند أمّي.

_ اتّصلت بأمّك التي نفت ذهابك إليها، قولي الحقيقة.

_ أيّ حقيقة؟

_كنت مع ذلك الولهان بالمشفى الذي رافقته بالصباح بحجّة ابنته المريضة، هل ذهبت إليه لاستكمال المواساة؟

_ وماذا يهمّك، هل التحكّم بي كان مبرمًا ضمن الصفقة؟

_ هل تبرّرين أفعالك المشينة؟ لن أسمح لك بالتلاعب بكرامتي، أنت هُنا زوجة رغمًا عنّي وعنك.

_إذًا لماذا تصبر على هذا الإرغام، هل أنت مسلوب الإرادة؟ يمكننا إنهاء تلك الصفقة الآن.

_ يا لكِ من وضيعة.

_لن أسمح لك، اخرج من هُنا.

أمسك وليد بذراعيها ودفعها بعنف حتّى سقطت على الفراش، وقد خرج عن شعوره وعن وعْيه بالكامل في تلك اللحظة، ولم يعد يعي ما يفعله وانفجر صائحًا:

ـ تودّين إنهاء الصفقة الآن لأنّ هناك صفقة أخرى في انتظاركِ، يا لكِ من وضيعة، ولكنّي لن أسمح لكِ أبدًا.

حاولت "هنا" الهرب من تلك المواجهة القاتلة وقد سقطت دموعها مبعثرة على وجنتيها في كلّ الاتجاهات من فرط اندفاع السيل من عينيها حارًّا من النيران التي أضرمت بالأعماق، حاولت بكلّ ما أوتيت من عزم في الخلاص الهربَ من وابل الكلمات الطائشة الصّائبة كالرصاص التي أطلقها وليد الثائر بلا رحمة ولا شفقة، حاولت أن تهرب ببقاياها من هذا الأسر اللعين الذي خنقها بأغلاله، وهي تحاول أن تبحث فيه عن طريق الأمان.. ولكنّه لم يتركها تهرب حين أمسك بذراعيها مرّة أخرى، فدفعته عنها بقوة كانت أقصى ما لديها لمواجهة هذا الإعصار الغاضب الذي يجتاحه ويدمّرها، ازدادت قوّته عنفًا وهو يردّد على مسامعها لن تخرجي من هُنا إليه على حساب كرامتي، ثمّ دفعها مرّة أخرى على الفراش، واندفع فوقها وهي تقاومه بكلّ ما أوتيت من حبّ وقهر ومقاومة، وأمسك بيديها وثبّتهما عنوة فوق رأسها ثمّ أسقط شفتيه الغليظتين بعنف على شفتيها الدقيقة كالسيف قطعهما، حابسًا بوهج أنفاسه ارتجاف أنفاسها، فاشتعلت أنفاسها إلى أعماقها، وازدادت قوّته وهو مكبل يديها بين يديه، وبدأ خدر الاستسلام يسري في عروقها عندما أحيت فيها الروح. ورغم الألم فإنّ قلبها العطش لم يستطعْ أن يقاوم هذا الارتواء، ظلّت "هنا" تقاوم حتّى شعرت بدمعةٍ حارقة قفزت رغمًا من عينيه لامست شفتيها، لقد انفجر البركان الثائر وبعثر ما بداخل هذا الرّجل الضائع كلّ الأحزان التي تسكنه، سقطت كالحمم المنصهرة لتسقط عن عاتقه الحمل الثقيل الذي تحمله طويلًا، تحمّله وحيدًا، حتّى هدأت بين يديه تمامًا، وأفلتت يديها برفق من بين قبضة يديه وضمّته بين ذراعيها بحنان أفاض من أعماقها كالسيل العذب ليغمره في تلك اللحظة حبًّا، وشوق أهوج

اجتاحها كالأعصار عصف باتّزانها وأرضخ مقاومتها حتّى استسلمت طواعية بين يديه، شعور غريب لم تعرف له سببًا ولا تفسيرًا، وقد أفقدها وعيها هي الأخرى في تلك اللحظة..

إنّه الحبّ الذي ينبت بقلوبنا رغمًا، الحبّ الذي يجعلنا رغم ضراوة الحرب نستسلم، يجعلنا رغم كلّ المقاومة ومحاولات الفرار من الألم ننهزم على أعتابه راضين إنِ احتوانا في لحظة تغنينا عن الفقد، تغنينا عن الوعد.. الحبّ الذي مهما حاولنا وئده يقاوم بقوّته الوأد، وينمو بداخلنا عنوة ويزهر أملًا باقيًا لا يموت.

قبل ذلك اليوم، لم تكن تعرف أنّها أحبت وليد كلّ هذا الحب، لأنّها تدرك من البداية أنه ليس لها حتّى وهو معها، ولن يكون، فماذا ستجني من عناء التعلّق بحلم بعيد المنال إلّا عذابًا يفوق الاحتمال عندما يحين الفراق المحتوم.

ولكنّها استسلمت في هذه اللحظة لتعيش الحلم كاملًا، وتلمسه بيديها حقيقة وتذوق سعادة بكرًا ترتوي منها روحُها ولو لمرّة واحدة أولى وأخيرة.

أمّا وليد في تلك اللحظة، فقد ألقى كلّ ما يختلجه من ألم في أحضان "هنا"، كأنه يائس وقف على هاوية السّقوط قرّر الانتحار، كأنّه شبق تائه في صحراء جرداء وجد بقعة ماءٍ في عزّ القيظ أدركها كي يرتوي، كان عنيفًا كأنه ينتقم من المرض الغادر الذي سلب منه حبيبته وأخضعه، كان ثائرًا كفارس محاربٍ من أجل أن يحرّر قطعة من قلبه المفقود من براثن الموت، كان جامحًا كعاصفة هوجاء تلتهم أوجاع روحه المسكينة وقلبه المنفطر، كان مجنونًا، جامحًا، حزينًا، ناقمًا، قانطًا، عاشقًا، ضائعًا، كان وهجًا شاردًا، كان نارًا تحرق الحزن المستعمر القلب والروح تأبى الانطفاء.

وكانت "هنا" هي الأرض التي اشتعلت عليها النيران، وكانت بردًا وسلامًا على الرّوح العطشى حتّى ارتوت وآمنت.

بعدما انتهى وليد من الإطاحة بألمه من أعماقه وألقاه في أعماق "هنا" التي احتوته بقلبها حتّى هدأت عاصفته وعاد إلى وعْيه، نظر إلى "هنا" بعينين زائغتين وهي مستسلمة بين يديه، تمسك بأطراف أصابعه تتشبّث بها وكأنّها طفل يخشى أن يترك يدَ أبيه، يخشى أن يفقد لحظة الأمان التي انتظرها طويلًا في دربٍ من الفقد والخوف.

ثمّ استلقى على ظهره بجوارها وهي لا تحرّك ساكنًا، ولا تترك يده وكأنّها تخشى أنْ تتركها فتضيع، وبعد لحظة صمت طويلة استجمع فيها وعيَه كاملًا قال لها بهدوء:

_ ثمّة شيء أقوى منّي لا أفهمه يجتاحني رغمًا عنّي، إنّي أشعر بالضياع.

كانت "هنا" صامتة تنظر لسقف الغرفة ودموعُها تنحدر على جانبي وجنتيها لا تدري ماذا تقول، هل تقول له إنّها تحبّه، وأنّ تلك اللحظة التي يشعر هو فيها بالضياع هي تلك اللحظة التي تشعرهي فيها الأمان!؟ لن يفهم ولنْ يشعر، فآثرت الصمت.

_ "هنا"، إنّ صمتك يقتلني، قولي أيّ شيء، سبّيني، اضربيني، افعلي أيّ شيء أستحقّه، لا تتركيني ضائعًا مكبّلًا بالعذاب بين براثن هذا الذنب.

ازداد تشبّث يديها بيديه، ازداد السيل سقوطًا حرًّا منحدرًا من أعلى مقلتيها الحزينتين..

شعر وليد بذلك التشبّث يزداد بيديه، فرفع يده التي تمسك بها يداها وقبّلها قُبلة طويلة ثمّ سحب أصابعه من بين أصابعها ونهض مِن جوارها، ولم تستطع "هنا" احتمال هذا الألم العارم في اللّحظة التي ترك فيها يدها، وهذا الشوق الذي تفجّر ينابيعًا إليه لم تستطع كتمانَها بين جوانحها لعابر سيتركها وحيدة بعدما وجدت بين كفّيه الأمان، فبكتْ بكاءً مريرًا، بينما كان وليد بالحمّام يغتسل من ألمه، ومِن ذنبه.

خرج وليد بعد وقتٍ وقد تظاهرت "هنا" بالنوم، فلم تكنْ تقوى على مواجهته والتحدّث معه، وهي في هذه الحالة من الضعف والتّشتت والفرح، فخرج وليد من

الغرفة، وأمضى بقية ليلته بمكتبه، يتطلّع بين الحين والحين إلى زوجته المستسلمة لألم المرض الذي لا يهدأ إلّا بالمهدّئات، تاركًا زوجته الأخرى تستسلم لألم الروح الذي لا يزول.

وفي الصباح، دخل وليد إلى "هنا" بغرفتها وقتَ استعدّت للمغادرة بابتسامةٍ غير معهودةٍ ارْتسمت على ملامحه الحادّة التي رأتها "هنا" اليوم مشرقة، حين قال لها:

_ صباح الخير يا "هنا"، هل تناولتِ معنا الفطور اليوم؟

نظرت إليه "هنا" في تعجّب، وقد حاولت تجاهلَ نظرته المُمتزجة بابتسامة نادرًا ما تراها تعتليه قائلةً بهدوء مُصطنع تخفي به ارْتباكًا كاد يفتضح بنبرة صوتها وارتجافها:

_ كيف حال شيرين اليوم؟

_بخير، شكرًا لما فعلتِه من أجلها ومن أجلي بالأمس، جميعهم على الفطور، وأريد أنْ تتناولين فطورَك معنا قبل الذهاب إلى عملك.

لم ينتظر منها ردًّا، لقد حاول أنْ يظهر لها إنّ الأمر الذي حدث بينهما بالأمس لم يكن له ذلك الأثر السيئ بنفسه فتهونه هي على نفسها.

وبعدَ قلي ل، نزلت على طاولة الفطور المُجتمعة عليها العائلة الصامتة، قائلة لشيرين:

_صباح الخير شيرين، كيف حالك؟

_الحمد لله بخير، أشكرك على اهتمامك.

وبينما كانت تتّخذ مقعدًا بعيدًا عنهم في آخر الطاولة، كانت جومانة ترقبها بنظرات مشتّتة ترقّبًا، حاولت "هنا" تجاهلها، ثمّ بادر وليد متسائلًا موجّهًا السؤال لابنتيه:

_ كيف حال المذاكرة؟ لم أرَ درجات نهائية حصلت عليها يا سلمى منذ شهر

مضى ولا أنتِ يا جومانة، هل يجب أنْ أسأل أين الشهادة أم أسأل ميس "هنا"؟

قال مبتسمًا، وكأنه يحاول أنْ يقرب بينها وبين ابنتيه من جديد بعد اتساع فجوة الجفاء بينهم، ولكن ما لم يكنْ في حسبانه هو انتباه شيرين لهذا التحوّل الصادم الذي أصابه اليوم، لأوّل مرّة تراه يتحدّث بهذا الحماس عنها ومعها، لأوّل مرّة تراه مبتسمًا وعيناه تلمعان وهو ينطق اسمها، اسمها الذي لم ينطقه بمثل هذا الحماس منذ بداية اللعبة.

ردّت شيرين ردًّا قاطعًا وكأنّها تحاول أنْ تذكره أنها مازالت على قيد الحياة، مازالت هي أمّهما:

ـ إنّي أتابعهما ولم أخفِ عنك اجتهادهما من قبل، إني أثق بابنتاي.

نظرت شيرين بحدّة إلى عيني وليد التي هربت من مواجهتها، فوقع بقلبها ما كانت تخشاه، بينما كانت "هنا" تنظر إلى جومانة التي كانت تختلس النظر إليها خوفًا وترقّبًا، ثمّ سمعوا صوت الحافلة، فأسرعت الفتاتان تقبّلان أمّهما وأباهما، ولكن اليوم كان وقع الصّدمة الأكبر على نفس شيرين عندما قالت جومانة لـ"هنا" بابتسامة يشوبها شيء من خوف:

ـ إلى اللقاء ميس "هنا".

لم تكن "هنا" أقلّ منها صدمة لما يحدث، بل إنّها مازالت تحت أثر ما حدث بالأمس مع وليد، فلم تعقّب لأنّها مازالت تحت أثر الحلم. وغادرت بعد مغادرة الفتاتين إلى المدرسة مباشرة، بينما كان وليد يتأهّب للخروج، صعدت شيرين إلى غرفتهما لتستكشف الأمر الذي يحاول وليد أنْ يخفيه خوفًا من أن تتأكّد أنّه قد أصبح حقيقة ستقضي عليها أكثر من المرض.

إنّه حدس المرأة الذي لا يخيب، مهْما حاول الرّجل الإخفاء والهرب والمراوغة،

مهما حاول أن يبدي المزيدَ من فيض الحبّ عليها، ومهما حاول أن يغدقها بالورود والهدايا؛ تظلّ المرأة تصدّق قلبها وحدسها ولا تصدّق الكلمات والهدايا.

_وليد..

_نعم حبيبتي.

_ تبدو اليوم مشرقًا فوق العادة.

_ بالطبع حبيبتي، لقد قضينا يومًا صعبًا بالأمس، كنت قلقًا عليك كثيرًا.

صمتت شيرين وهي تشتمّ عطر الفرح الذي يفوح من بين شفتيه المزهرتين، وهي ترى لمعان عينيه وإشراقة وجهِه التي تعرفها ولا تغفلها، تلك الإشراقة التي كانت دومًا لها، اليوم تضيع منها، وتشرق لسواها...

ثمّ قالت بهدوء بعد أن سيطرت على خفقان قلبها المسكين:

_ أين نمتَ بالأمس؟

نزل السؤال على وليد كالصاعقة، ربّما بدأ يفهم ما ترنو إليه، فقال مِن بين مراوغة نظراته وهو يرتّب أوراقه وأجهزته بالحقيبة:

_ بالمكتب، وكنت أطلّ عليك كلّ حينٍ وحين، حتّى اطمأننت أنك بخير، ألقاك على خير حبيبتي، لقد تأخّرت.

طبعَ قبلةً سريعة على خدّها، وقد تحاشى النّظر إلى عينيها، لقد فطن أنّها قد عرفت ما لا يجب أن يقال.

وبعد أن استقلّ سيارته، تنفّس الصعداء، وغادر بعجلة حتّى ما أن ابتعد عن البيت، توقّف على جانب الطريق، يفكّر فيما حدث بينه وبين "هنا" بالأمس، وبدأ صوت أعماقه يهاتفه "هذه المرأة التي لا أعرفها، كيف بعد كلّ هذه المقاومة الشرسة

كفرسة بريّة متمرّدة تحاول الفرار؛ تحوّلت إلى نهر دافئ من الحنان انْساب بين أضلعي، وأغدقني إلى هذا الحدّ من الارتواء؟ كيف سرى إلى روحي هذا الشوق العذب منها في لحظةٍ كانت أشبه بالجنون، في لحظة تعانقت الأعين والأيدي لأوّل مرّة، تلك اللحظة باغتت قلبَها رغم كلّ ما نعتتها به من كلمات جارحة، رغم ضياعي وتخبّطي بين يديها بلا وعي كيف احتوتني بكلّ هذا الحنان في لحظةٍ أزالت عن روحي كلّ الألم رغم ألمِها المضاعف، هل حقًا تحبّني رغم شتاتي؟ كيف تشبثت بيدي رغم الصّمت والضياع ولم تتركها، كيف تحبّني إلى هذا الحدّ من احتمال الألم عني فوق ألمها المستمرّ منّي؟ ثمّ ابتسم ابتسامة طمأنينةٍ لم يستطع إخفاءها:

_ لا أصدّق أنّي عشت مع هذه المرأة في لحظة واحدة كلّ هذا الجنون الذي لم أعهده من قبل.

ثمّ أكمل طريقه إلى المشفى يستمع إلى أغنياته المفضّلة، ويدندنها انعكاسًا للفرح الذي أضاء ظلمة روحه.

وفي المدرسة، كانت "هنا" تشرد بين الحين والحين فيما حدث، ورغم أنّها تعلم بداخلها أنّ وليد كان في غير وعْيه وأنّه كان يسقط عنه كلّ ما يحمله على عاتقيه من همومٍ وآلام في حضنها الذي احتواه بصدقٍ وحبّ عميق، ورغم كلّ الألم... قالت بنفسها:

_ليتك تشعر أنّي أحببتك بكلّ جوارحي في تلك اللحظة التي أمنت فيها ضعفك واستسلمت فيها حبًّا، وأمسكت بيديك تشبّثًا بالأمان، تشبثًا بالحياة.

***

وفي صفّ جومانة، حاول آسر ليفهم منها ما حدث بالأمس بعد أن ذهبت مع المدرسة من بيته:

لقد أرسلت له رسالة أخبرته فيها بأنّ شيئًا لم يحدث، ولكنّه كان يودّ سماع التفاصيل حيث أنّه قد رتّب خطّة للتخلص من أمر هذه المدرسة التي أصبحت مصدرَ تهديدٍ لهما وربّما فضحت أمرهما في ذات يوم..

_ جومانة، أأنت واثقة أنّها لن تخبر أهلك؟

_ لا أعلم، هي لم تفصحْ عن الأمر لوالدي، أظنّها سوف تهدّدني بهذا الأمر إلى أنْ تتاح لها فرصة لذلك.

_ولماذا ننتظر إلى أن تفعل؟

_ ماذا علينا أن نفعل يا آسر!!

_ كنت أفكّر في خطّة نستدرجها بها.

_نستدرجها!! إلى أين، وكيف؟

_ اتركي هذا الموضوع لي، أفكّر كيف يصبح السلاح بيدينا ونهدّدها به، أليست هذه زوجة أبيك التي تودّين التخلّص منها؟

_نعم، بالطبع أودّ التخلّص منها، لقد تسلّلت إلى حياتنا وسلبت مني أبي.

_حسنًا، إنّها سوف تراقبك في تلك الفترة وستكرّر المحاولة، وأودّ لو تأتي بها إلى منزلي مرة أخرى.

_ثمّ؟

_ثمّ أصوّرها ببيتي واتركي لي البقية.

_ولكن..

_ولكن ماذا، إذا ظلّت هذه المرأة تهدّدنا لن نستطيع اللقاء، يجب أن نملك سلاحًا ما نهدّدها به.

_حسنًا، ولنفرض أنّها فضحت الأمر لتدافع عن نفسها.

_ عندما ترى صورَها في كلّ مكان لن تستطيع أن تفعل شيئًا إلّا أنْ تخفي فضيحتها هي.

_أشعر بالخوف يا آسر.

_ يجب أن يكون قلبك جامدًا يا جومانة، هذه الدنيا إن لم تكوني قوية لتَدهسين سوف تُدهسين لضعفك.

وبعد عودة "هنا" إلى المنزل، وكان الأولاد قد استبقوها إليه بعد انتهاء اليوم الدراسي، لن تستطيع أن تواجه شيرين بنظراتها، وكأنّ شيرين كانت تودّ أن تقرأ بعينيها ذلك الشيء الذي تخشاه، لتتأكّد من أنّ حدسها كان صائبًا، والذي أكّد لها أن ثمّة شيئًا قد حدث لم تكن لتقرّره أو تتوقّعه.

ظلّت شيرين في صراعٍ قاس مع نفسها، تهاجمها أفكارها المرعبة.. "ما الذي حدث بينهما؟ وهل من حقّي أنْ أسأل وليد عمّا إذا كان قد حدث بينهما هذا الذي أخشاه أم لا؟ ماذا وإنْ لم يحدث، وماذا وإنْ حدث؟ وماذا وإن لم أتقبّل حدوثه رغم حتمية حدوثه، إنّ ذلك الشيء إنْ حدث بينهما سيقتلني في كلّ لحظة أسرع من المرض.. المرض، أيّ مرض لعين أقعدني عن رعايتك وحمايتك يا وليد، أي مرض يمكنه أن يفرّق بيننا، لن أترك هذا المرض الغابر يفرق بيننا أبدًا، إنْ كان الفراق محسومًا فهو الموت الذي لا يمكن الفرار منه، ولا شيء سوى الموت، ولكني سأهزمه من أجل ألا نفترق، أو يكون بيننا حاجبٌ أو أحدٌ يا حبيب العمر"

ثمّ التقطت هاتفها، واتّصلت شيرين بطبيبها المعالج بروحٍ جديدة دبّت بها الرغبة الجامحة في الحياة:

_دكتور فريد، هل لي أنْ تتحدّث معي بشفافية ووضوح؟

_بالطبع دكتورة شيرين، أظنّ ألّا يجب أنْ أخفي على طبيبة زميلة حالتها.

_ حسنًا، أعرف كيف أنّك تبذل ما بوسعك وقصارى جهدك لكي يتحسّن الوضع ويتقلّص الورم في بؤرته الجديدة التي باغتتني، وذلك بسبب خطورة إجراء عملية أخرى لاستئصاله كاملًا إلّا بعد تجميده بمكانه، إذا ما نسبة نجاح الاستئصال الكامل مرّة أخرى بعد الانتهاء من الجلسات الكميائية والإشعاعية؟ وما هي احتمالات ما سيكون عليه الوضع بعد الاستئصال؟

_ الاستئصال عملية خطيرة بعد أن التصقَ بالورم بأوعية دموية حيوية محيطة به، وكلّ ما نفعله هو محاربة انتشاره إلى أن يستجيب للتقلّص، ومن ثمّ يتمّ تجميده واستئصاله بمحيطه، ولكنّ استئصاله تلك المرّة لن يكون سهلًا يا شيرين، يجب أن تعرفي أنّنا سوف نخضع لعملية كبرى لاستئصال الرحم بأكمله ضمانًا لعدم مهاجمته ببؤرة جديدة، ومناعة جسدك أصبحت منهكة للغاية، ليس لنا خيارات كثيرة في هذا الأمر، هذا يتوقّف على مشيئة الله، ثمّ إرادتك..

_ حسنًا، لن تصبح مناعة جسدي منهكة بعد اليوم، وإني أثقُ بالله، وسوف أهزم هذا المرض حتّى يسحق عن قريب.

_ أرى الحماس في نبرة صوتك مختلفة تمامًا عن تلك التي كنت عليها حتّى الأمس يا شيرين.

_ لأنّني كنت لا أرى أملًا بالغد، والآن رأيته، ولن أترك هذا المرض اللعين يحرمني من نعمة الحياة، إنّما الموت محسوم في لحظة واحدة فلا داعي لانتظاره.

هكذا قرّرت شيرين أن تستمدّ عزيمة جديدة وإرادة ذاتية كانت سلاحها الأقوى في هزيمة هذا المرض. لقد تشبّثت ببصيص أملٍ أشرق بقلبها منحها إرادة للحياة، هذا الأمل من أجل البقاء، من أجل حبيبها.. وقد حسمت الأمر.

متى ستعرف كم أهواك يا رجلا
أبيع من أجله الدنيا بما فيها
يا سيفًا أسال دمي
يا قصة لست أدري ما أسمّيها
كفاك تلعب دور العاشقين معي
وتنتقي كلمات لست تعنيها
ارجع إليّ، ارجع كما أنت
صحوًا كنت أم مطرًا
فما حياتي أنا إن لم تكن فيها؟!

عاد وليد إلى البيت، ودخل إلى شيرين ليجدها قد غادرت فراشها وتزيّنت في أجمل حُلّة وأبهى صورة، واستقبلته بابتسامتها النّاعمة المعهودة، فابتسم لرؤيتها في أوج جمالها وهو يتمعّن به بعد طول غياب، ثمّ قالت وهي تعانقه بحنان ورفق وتنظر إلى عينيه الجامدتين بعض الشيء:

_اليوم قرّرت أن نقضيه وحدنا، أنا وأنت يا حبيبي.

همست شيرين بأذنيه بعد أن ضمّته إلى صدرها بحنان، وطبعت قبلةً طويلة على شفتيه..

_هل أنتِ بخير؟

قال وليد متوجسًا من أن تكون هذه علامات النهاية.

_ إنني بخير دومًا طالما أنّك معي.

_هل تناولتِ أدويتك؟

_ يومًا ما لن أكون بحاجة إلى أدوية أبدًا.

ازداد توجّس وليد من كلماتها الحماسية، ثمّ قال:

_ سوف تتعافين حبيبتي.

_نعم أعرف ذلك، دعوت الله بقلبٍ خاشع، وأعرف أنه سيستجيب، من أجل أن أبقى معك، ومن أجل أن يعود بيتنا هادئًا كما كان.

قفز الشكّ في قلب وليد، الذي بات يتحوّل يقينًا أنّ شيرين قد بدأت في التفكير في إنهاء صفقتها مع زوجته الأخرى، لقد بدأت حرب الغيرة في الاشتعال، من أجل استرداد قلب زوجها، وعودته من المنفى ليبقى لها وحدها.

وممّا أكّد ظنونه أنّ شيرين قد بدأت في استدراجه لحضنها لتعوضه عن أيام الفقد وما كان منه إلّا أن يستسلم لها طواعية لأنّه حقّها عليه، ولكنّها تيقّنت من صدق حدسها.

أمّا "هنا" فكانت في غرفتها تعيد المشهد على مخيّلتها، تكرهه وتحبه، تستنفره وتتوق إلى تكراره، لم تستوعب كيف أنها في لحظة عاصفة، باغتتها، جمحت بقلبها بعيدًا، استطاع أنْ يحلق إلى عنان السماء ليلمس حلمه البعيد حقيقة بين يديه، ثمّ سقط يرقد بين أضلعها أمنًا في سلام.. لقد أصبحت الآن زوجته فعليًّا، وليس فقط على الورق.

"هل سيتكرّر هذا الحلم؟ هل ستزهر الرّوح ثانية بين يديك أم أنّ ما عشناه سويًّا في تلك اللحظة الحالمة كان جنونًا عابرًا لن يتكرّر يا وليد؟"

قالت بأعماقها ثمّ تذكرت أنّها يجب أن تتحدّث مع جومانة بخصوص ما حدث بالأمس فذهبت إلى غرفتها:

_ جومانه، أودّ التحدّث معك.

_هُنا في البيت؟

قالت جومانة بتوجّس من أن تسمع أمّها شيئًا ممّا تودّ "هنا" قوله تعنيفًا..

_حسنًا، غدًا بالمدرسة سنتحدّث تفصيلًا، ولكن أودّ أن أخبرك بشيء لتحفظينه عن ظهْر قلب، لا أحد يستحقّ أن تخسرين نفسك لأجله، ولا أحد يمكن أن يحبّك أكثر من نفسك، فأنت مَن ستراعينها وتحفظينها وترتقين بها لأنّك تستحقين ذلك.

ثمّ أطالت النظر إليها وكأنّها تودّ أن تخبرها أنها تفخر بها ولا تودّ إيذاءها بإخبار والديها بما حدث.

ثمّ غادرت غرفتها ولم تنتظر منها ردًّا، فقابلت وليد وشيرين التي كان يبدو عليها علامات الراحة والإشراق والاهتمام الفائق بوليد، وهي ممسكة بيده بقوّة، ونظرت

إليها بشيء من التّفاخر مبتسمة ابتسامة زهوٍ وانتصار لم تفهمها "هنا" في تلك اللحظة إلّا عندما نظرت إلى عيني وليد الزائغتين، ثمّ قالت لهما وهي تمضي بطريقها في توتّر تحاول إخفاءه:

_ كنت أسأل جومانه عن شيء بالمدرسة.

وهربت بخطوات مسرعة رغم تثاقل قدميها وارتعاشهما إلى غرفتها وقد تعثرت في خجلها، ولكنّ شيئًا من الضيق اجتاحها هدَمَ صرحَ حلمها البديع..

"كيف ذلك؟ كيف يمكن لما عشته من حلم لمسته وما شعرته من سعادة بالأمس أنْ يتلاشى اليوم كبقعة سرابٍ اضمحلت بهذه السّرعة قبل أن أرتوي، وانتهت بهذه السرعة إلى وادي النسيان، هل عليّ الآن أن أصدّق أنّ ما حدث مع هذا الرجل كان مجرّد حلم بعيد لم يكن حقيقيًّا لدرجة أنّه ببساطة تجاهله في الصباح وكأنّه لم يكن؟ وأنا.. كيفَ لي أنْ أتجاهله؟ كيف يمكن أن أخدع نفسي أنّ ما عشته من لحظات عشق حقيقية نادرة أضاءت أعماقي المظلمة فرحًا بعد ليل طويل من الألم ستصبح هي ذاتها لحظات الألم التي سوف تعذّب قلبي بقية العمر عندما أتذكر دومًا أنني لم أعني له شيئًا حقيقيًّا في تلك اللحظة ولم أكن له إلّا ملجئًا للهروب، وأنّه لم يرني ولم يشعرني، لم يفهم معنى أن أتشبّث بيديه بهذه القوّة عشقًا، كي لا يترك يدي".

"ولكنْ لا يجب أن أشعر بالحزن إلى هذا الحدّ.. لا يحقّ لي من الأساس أن أحزن، إنّها زوجته الأولى وحبيبته، وإنّما أنا لست بحبيبته، وأنا أعلم ذلك منذ بداية الصفقة لنهايتها، إنّ الإنسان لا يشعر الرّاحة والسعادة الحقيقية إلّا في وجود مَن يحبّ وبين أحضانه، قاتل ذلك الشعور الذي يمنحنا بعد حرمان تلك السعادة فجأة ثمّ يغتالها في لحظتها، وتصبح ذكرى حلوة وأليمة لأنّها لم تكن إلّا سعادة وهمية مع رجل تائه مفقود كان يبحث عن مأوى من الضياع، كان يلقي همًّا من على عاتقيه ويحاول أن يغيب عن

الوعي كي ينسى مرارة الواقع بشرب أيّ نوعٍ من الخمر الرديء المتاح، لقد توهّمت أنّ هناك بصيص حبّ قد تولّد بقلبه في تلك اللحظة لي أنا، لي وحدي، وأظنني قد خاب ظني"...

مرّ اليوم، ولم يعدْ وليد إلى "هنا" في تلك الليلة، فباتت تحلم به في حزنٍ مرير، وسلام وثير يغمر القلب الوحيد بالحلم البعيد الذي عاد لمكانه بين النجوم، بعدما تيقّنت أنّ هذا الجنون الذي منحها أكسير الحياة بالأمس كان عابرًا ولن يتكرّر، بينما قضى وليد ليلتَه في المشفى، يفكّر فيما لا يعرف كيف أصابه وألمّ به من تشتّت جرّاء هذا الصراع الذي نشب به وهو لا يجد له تفسيرًا...

"إنّ شيرين قد بذلت فوق طاقتها كي تسعدني بعد غياب، بل كي تستعيدني إليها من الضياع، لقد بدأ حدسها الصائب وخوفها يسيطر عليها، لقد جعلها كبرياؤها وحبّها في قمّة عطائها وأشعل رغبتها وتشبّثها بالحياة من أجلي، ولكن "هنا".. ماذا عن ألمها؟ هل هي حقًا مجرّد منفى لروحي المنهكة ولقلبي المفقود؟ هل هذا هو دورها الوحيد في تلك اللعبة؟ هل سينضب نهرُ عطائها غير المحدود الذي سقاني حنانًا في لحظة انهيار غير محسوبة؟ لا أودّ أن أشفق عليها ولا أمن على قلبها المسكين ولا حتّى على حالي".

وفي المدرسة، التقت "هنا" بجومانة بمكتبها، بعد أن استدعتها في الاستراحة:

ـ لم أخبر أباك ولا أمّك بما حدث، لأنّني أظنّك قد حسمت هذا الأمر بعقلك الواعي الذي أثق به كما أثق بك دومًا يا جومانة.

ـ لم يحدث شيء، إنّك أنت فقط مَن تظنّين هذا السّوء.

ـ حسنًا، كلّ ما أريده منّك الآن هو ألّا تضعي نفسك في وضع السوء، حتّى ولو لم يحدث، لا تقابلي هذا الشاب بهذه الطريقة، عديني بذلك.

_ أنا وآسر زملاء دراسة وأصدقاء قدامى بالنادي والدروس، كيف لي ألّا أراه، ثمّ لماذا تظنّين نفسك أمّي وأنت تتحدّثين معي بهذه اللهجة، لن أقبل أن تقومين بدور الأمّ لمجرد أنك أصبحت بالخطأ زوجة أبي.

_ اسمعي، أنت هُنا في المدرسة تتحدّثين مع المدرّسة الأولى، وإن أردت أن أتّخذ ضدّك وضدّ هذا الولد العابث بكِ إجراءًا قانونيًّا لذهبت الآن إلى المدير ليستدعيكما وأولياء أموركما، فلتلزمي حدودك بالكلام.

_ هل هذا تهديد صريح؟

_ لا ليس تهديدًا، هذا أمر، لنْ أراك مجدّدًا مع هذا الولد، انتهينا، يمكنك العودة إلى صفّك.

غادرت جومانة وهي تشعرُ بالخوف وقد حسمت في تلك اللحظة التي خرجت فيها من عندها أمرَ موافقتها على ما سوف يفعله بها آسر في خطّته الشيطانية قائلة بغضب:

_تستحقّين ما سيحدث لك أيتها الحمقاء.

ثمّ قابلت آسر الذي رآها من بعيد تستشيط غضبًا، فسألها، فأخبرته عمّا هددت به تلك المختلة، كما وصفتها، فقال لها مِن بين ابتسامة ساخرة:

_ لقد اختارت مصيرها بنفسها.

وفي البيت، وقد مرّ اليوم الثاني من الغياب ثقيلًا، والذي لم ترَ فيه "هنا" وليد، فازداد قلبُها تأجّجًا بالألم، ما أسوأ أن تشعر أنّك كنت بكامل مشاعرك النبيلة مجرد وسيلة هرب من الضغوط أو قلبًا بديلًا مستباحًا.

لم تغادر "هنا" غرفتها خوفًا من لقاء يؤجّج الألم، وظلّت تعمل على الحاسوب حتّى دخلت إليها جومانة على استحياء:

_ أريد أن أقدّم اعتذارًا عمّا قلت في الصباح.

_لا بأس جومانة، أودّك فقط أن تعرفي أنّني لن أقوم بفعل شيء ضدّ صالحك.

_ أعرف ذلك.

_ عندما كنت في مثل سنّك كنت أرسم أحلامي على الورق كي أجسّدها وألمسها، مازلت أحتفظ بتلك الرّسمات إلى الآن.

_ هي يمكنني أن أراها؟

_ بالطبع، سوف أحضرها لك من بيت أمّي، ولترين كيف رسمت أحلامي التي سكنتني طويلًا في صور جميلة أحتفظ بها لنفسي حتّى لا أفقد الشعور بالجمال مهما ازدادت الأيام قسوة والعابرين مرورًا. وهذا ما أودّك أن تفعليه، احتفظي بحلمك لنفسك وبجمالك الداخلي وبنقاء روحك ولا تتركيها لمَن لا يعرف قيمتها يشوّهها ويضيّعها، إنّها لا تعني لهم كما تعني لكِ، فهمتِ؟

_ فهمت، وأودّك أن ترافقيني إلى الدّرس اليوم، إن لم تمانعي.

_ لا يا حبيبتي، إنّي أثق بك، ولم أكنْ أقصد أبدًا مراقبتك، عرفت ما عرفت بالصدفة ولخوفي عليك اضطررت إلى تتبّعك لحمايتك.

_ ولكنّي أريدك أن تأتي معي كي أكون مطمئنة.

قالتها جومانة بشيء من الإلحاح المضطرب لم تفهم "هنا" مغزاه.

_ حسنًا حبيبتي، لا مانع.

وفي تلك اللحظة شعرت "هنا" بعاصفة من النسيم العليل فتحت كلّ النوافذ المغلقة بالأعماق لترى بصيصًا من النور في عتمة هذا البيت.

واستعدّت "هنا" لمصاحبة جومانة إلى الدرس بحُسن نيّة كما طلبت منها، وفي الطريق إلى المكيدة، كانت "هنا" تستعيد ذكريات طفولتها وأيّام الدراسة وتحكي

لجومانة عنها بكلّ سعادة وكأنّ هذه الذكريات المحفوظة في صندوق ذهبي في الذاكرة ما تلبث إلّا أن تستعيد بريقها وقت ينفتح الصندوق وترى النور، حتّى وصلا إلى المصيدة..

صعدا معًا، استقبلهما آسر، وكانت "هنا" تنظر إليه نظراتٍ حادّة بينما هو ينظر إليها نظرة العائد من الذّنب يطلب الغفران، وجلسا معًا، ثمّ بادرت "هنا" السؤال بحدّة:

ـ أين رفاقكم؟ ومَن المدرّس الذي سيلقي الدرس؟

ـ إنّهم بالطريق يا ميس "هنا"، لقد حادثتهم منذ قليل.

ـ وأين أمّك وأبوك في هذا المنزل الكبير يا آسر؟

ـ مسافران.

ـ إلى أين؟

وبينما كانت "هنا" تظنّ أنّها تستدرجه بدأت خطّته لاستدراجها حين نظر إلى جومانة نظرةً فهمتها فهمست لـ "هنا" بأذنيها:

ـ أريد أن أذهب إلى الحمّام.

ـ بالتأكيد اذهبي فإنّي لن أرافقك بداخله، واتركيني معه.

ردّت "هنا" هامسة، ثمّ ارتفع صوتها، بينما كانت جومانة تغادرهما..

ـ لم تخبرني يا آسر أين والداك الآن؟

اقترب منها آسر وكأنّه يودّ أن يتوسّل لها ألّا تخبر والديه عمّا حدث، وأنه نادم على فعلته، كان يقول ذلك وهو يقبّل يديها ويركع على ركبتيه أمامها توسّلًا، ثمّ قالت له بحدّة:

ـ لن أسمح لك أن تعبث بجومانة أبدًا، فهمت؟

ثمّ شعرت "هنا" بأنّ لمسات هذا الولد غير طبيعية لجسدها، فنهضت من مكانها نفورًا، بينما كان هو قد وضع تحتها عرقلة عثرتها حين نهضت حتّى سقطت بين ذراعيه، ثمّ اعتدلت في وقفتها تحاول دفعَه بعنفٍ كي لا يساعدها.. حينها رنّ الباب فقال لها مبتسمًا بعد أن أتمّ مهمّته:

ـ عذرًا ميس "هنا" أظنّهم قد وصلوا.

مازالت جومانة ترقب ما يحدث من بعيد، بينما فتح آسر الباب ليجد الزملاء بصحبة المدرّس الذي يعرف "هنا"، وقد تفاجأ بها في هذا المكان، فقالت إنّها هُنا بصحبة جومانة في انتظارهم، ومجرّد ما أنْ جلس الجميع على الطاولة ليبدأ الدرس وخرجت جومانة ترحّب برفاقها وودّعت ميس "هنا" التي غادرت مطمئنة، بينما كاد آسر أن يقفزَ من سعادته لما حصل عليه من دليلِ إدانة لهذه المدرّسة المسكينة.

وبعد انتهاء الدرس، خرج الجميع وبقي مازن الذي صوّرهما، وقال لآسر:

ـ هذه هي كلّ الصور التي التقطها لكما، لنختَرْ منها أفضلها ونبدأ اللعبة الشيقة.

ضحكا سويًّا ضحكًا هيستيريًّا وهما يتخيّلان توسّلات المدرّسة المسكينة لهما كي تستعيد صورها الماجنة خوفًا من الفضيحة، ومن أن تفقد وظيفتها. كانت جومانة تقف بجوارهما، وهُما يتابعان الصور التي قاموا بإنزالها من الكاميرا المحترفة إلى الحاسوب، وقتها اختاروا بعضَ الصور التي سوف يتمّ إدخال بعض التعديلات عليها لتبدو مثيرة.

ثمّ قال آسر لجومانة بعد أنِ انصرف مازن:

ـ لن تستطيع هذه البائسة تهديدنا بعد اليوم.

كانت جومانة صامتة يتملّكها خوفٌ عميق، هل هذا جزاء الإحسان؟

قالت بنفسها في لحظةِ شرود تيقّظ فيها ضميرها:

"هل هذا المصيرُ الأسود هو ما ينتظر هذه المدرّسة التي تعلّقت بها سنوات ويشهد لها الجميع بحُسن خلقها وسلوكها؟ حتّى وإن كانت مصدرًا يهدّد راحتي، حتّى وإن كانت مصدرَ ألم لي بعد زواجها غير المبرّر وغير المقبول من أبي، أتستحقّ ميس "هنا" ذلك الأذى؟ وما هذه البراعة والثّقة التي رأيت بها آسر وهو يخطّط وينفّذ خطّته القذرة بكلّ جرأة، ومازن الوغد وهو يصوّرهما بكلّ جرأة وارتياح، ماذا وإنْ كان مازن التقط لي مع آسر مثلَ هذه الصور، وضحكا رغم بشاعة فعلهما على سذاجتي وثقتي، وينتظر آسر الوقتَ المناسب لابتزازي وتهديدي؟ إلى أيّ وغد ألقيتُ بين براثنه قلبي؟ لا أصدّق أنّ هذا الحبّ الذي أهديته كان شيئًا من العبث، وأنّ هذا الوغد الذي يستطيع أنْ يؤذي أحدًا مسالمًا بكلّ هذه الخسّة هو مَن أحببت، وقد كنت أظنّه قبل تلك اللحظة رجلا"

_ ماذا بك؟

قال آسر وقد لاحظ وجومَها.

_لا شيء، أودّ أنْ أذهب.

_ لماذا؟ هل تنتظرك المسكينة بالسيّارة؟

_ نعم.

قالتها وهي مشتّتة الذّهن تمامًا، فقد غادرت "هنا" لتنتظرها بأحد المحال القريبة من المكان حتّى تنتهي من الدّرس لتعود إليها وترافقها في طريق العودة.

_ لتبقى قليلًا نحتفل بإنجازنا.

_ آسر.

_ ماذا؟

_ أودّ أنْ تقوم بتهديدها فقط، عدْني ألّا تخرج هذه الصور من بيننا.

_ هل تخيلتِ فضيحتَها بالمدرسة والمدرسات الفضوليّات يتحدّثن عنها بأقذع الصّفات والألفاظ، والمدرّسين يتداولون صورَها خلسةً بينهم، لا أستطيع أن أتخيّل هذا المنظر من فرْط الضحك.

_ إنْ قمت بنشر هذه الصور، لن تراني ثانية يا آسر.

_ ماذا دهاكِ جومانة؟ ألم تكنْ هذه بالأمس مَن خطفت أباك من أمّك؟

_ لا علاقة لهذا الأمر بما نفعله بها من ظلم، لا تنس أنّها يومًا ما علّمتنا.

شعرت جومانة بالاختناق، ونزلت من البيت تشعر بالخوف والندم، هل تخبر "هنا" بما ينتظرها من سوء مصير، أم تصمت وكأنّها لا تعلم شيئًا؟ لقد أصبحت تخشى أن يصبح آسر هو مصدرَ تهديدها إن فضحت أمرَه، ثمّ اتصلت بـ "هنا" وأخبرتها أنها انتهت من الدرس وتنتظرها على مدخل البيت، عادت "هنا" مع السائق وتوجّهت في بضعة دقائق إلى البيت لتجد جومانة في انتظارها.

_ هل لديك دروس أخرى اليوم يا جومانة؟

_ لا.

ردّت في وجوم وهي تتحاشى النظر إليها.

_ إذًا هل تمانعين أن ترافقيني أنتِ هذه المرّة؟

_ إلى أين؟

_ إلى بيت أمّي، سوف أطلعك على عالمي الذي لم يطّلع عليه أحدٌ من قبل، ولا حتّى أبوك.

_حسنًا، سأرافقك ولكنْ يجب أن أخبر أمّي أولًا كي لا تقلق.

_ لا داع، لوعرفت سوف يساورها الشكّ والقلق، وتسأل لماذا خرجنا سويًّا وعدنا سويًّا، ولن نجد إجابة مقنعة.

_ حسنًا ، ولكن يجب ألّا نتأخّر.

_ أعرف ذلك.

وفي بيت أمّها العجوز المضيء وجهها بابتسامة بشوشة تضيئه كالبدر الساطع في تمامه، رحّبت "هنا" بتلميذتها القديمة، وقدّمتها لأمّها التي رحّبت بها، قائلة:

_ هل أنت ابنة الدكتور؟

_ نعم.

قالت جومانة بتحفّظ بعض الشيء بابتسامة باهتة، بينما كانت "هنا" تضع بعض الاحتياجات التي ابتاعتها لأمّها بالثلاجة، وجاء صوتها من الداخل مداعبًا:

_ أراكِ طبختِ الملوخية وتناولتها وحدك يا أمّي، إنها خيانة.

ثمّ خرجت وأحضرت لجومانة كوبًا من العصير الطازج وهي تقول لها:

_ لا أحد في هذا الكون يمكن أن يطهو الملوخية ويُتقن طشّتها مثل أمي، ومهما حاولت فإنّي أشعر دومًا أمامها بالفشل الذريع.

_ سوف أجهّز الغداء، لقد كنت في قيلولة واستيقظت قبل مجيئكما ببضعة دقائق ولم أتناول الغداء بعد. (قالت الأم)

_ حسنًا يا أمي، سوف أجهّزه معكِ.

قالت "هنا" مبتسمة، بينما اعتذرت جومانة واستأذنت بالرحيل، ولكنّ الأمّ كانت قد اتّجهت الى مطبخها لتجهيز الطعام، ثمّ قالت "هنا" بحماس:

ـ أمّي تفرح كثيرًا بمَن يدلّلها ويتذوّق طعامها ويشيد به لتشعر أنّها لم تكبر بعد، رغم أنها تنسى كثيرًا، أظنني سأصبح مثلها ذات يوم لأنّها سنة الحياة. هيّا تعالي لتشاهدي غرفتي المتواضعة بالنسبة لغرفتي الفخمة ببيتكم الكبير، ولكنّها تبقى دومًا عالمي الوحيد الذي أعلّق على جدرانه النّاصعة كلّ ذكرياتي وأحلامي.

ودخلت معها إلى الغرفة المتواضعة لتجول بعينيها بين ذلك الفراش الخشبي العتيق المرتّب بعناية وتفوح رائحة الذكريات من وسادته البالية، وتلك الخزانة الكبيرة ذات المرآة في المنتصف وحولها أرفف مكتبة كبيرة من الكتب القديمة المتراصة بعناية، ويجاورها تلك النافذة المفتوحة إلى السماء وعلى حافتها توجد صبّارة صغيرة خضراء لم تذبل رغم قلّة الارتواء، وبجوارها حوض صغير من النعناع يبعث في النّفس رائحة السكينة، وذلك المكتب القديم الذي يستقرّ فوقه جهاز المسجّل العتيق الذي يعمل راديو، وبجواره تلفاز صغير مغطّى بمفرش مشغول يدوي، وفوقه بعض التّحف الصغيرة التي كان يتبادلها الناس قديمًا هدايا فيما بينهم، وبجواره بعض الكتب لوالدها الرّاحل، وبداخل أدراج المكتب التي فتحتها هنا لتستخرج تلك الأوراق الصفراء التي من بينها التقطت "هنا" ملفًّا وأعطته لجومانه قائلة:

ـ ها هي أحلامي التي ألمسها على الورق.

فتحت جومانة الملفّ لتجد رسمات مِن أبدع ما رأت عيناها، أبهرتها وقتَ وقعت عليها نظرتها الأولى، ما هذه الدقّة والاحترافية في مزج الخطوط والألوان والروح التي تنبعث من كلّ وجه، وكلّ خطّ من خطوطها الدقيقة، والعبق الذي يفوح من كلّ زهرة مرتسمة بها، وكأنّها حقيقيّة تنطق بالروح. كانت جومانة صامتة تعبّر عن انبهارها بتحدق عينيها في تلك الصور بإعجاب شديد، ثمّ قالت:

ـ غير معقول!! أهذا هو رسمك؟

ـ نعم، منذ كنت بعمرك.

ـ إنّه إبداع لم أرَ له مثيلًا.

ـ إنّها روحي مَن رسمت كلّ حلم بين هذه الصفحات، كلّما وددت أن أعيش حلمًا منهم أعود وأنظر إليها أو أرسمه من جديد، يجب أن تؤمني بذاتك يا جومانة، يجب أنْ تفعلي لنفسك شيئًا من أجلك أنت وحدك، يكون هو عالمك الخاص، وملجأك الآمن من الآلام، هو أمانُك من الشتات. هذا العالم أنتِ فقط مَن يجب أن تصنعيه، وأنتِ فقط مَن سترسمين به أجملَ الأحلام بيديك وبروحك التي ستترك طابعها وأنفاسها فيه، عالم يليق بك لا تجعلي أحدًا يعبثُ به، ولا يدخل إليه دون أن يعرف قيمته، لأنّه هويّتك وبصمتك وروحك التي لا تتكرّر.

ظلّت جومانة تنظر في صمت وكادت عيناها أن تمطر، إنّها لحظة ندم تجتاحها في تلك اللحظة، كيف شاركت آسر في العبث بكرامة هذه المرأة التي تحاولُ أن تحميها وتنصحها خوفًا عليها؟ كيف ستغفر لنفسها إن تسبّبت في أذيّتها؟ ثمّ نادت الأم عليهما حين جهّزت الطعام، فقالت "هنا" قاطعة الصمت البليغ:

ـ هيّا يا جومانة، سوف تدخلين التّاريخ بعد أن تتذوقين هذه الملوخية.

وخرجا ليتناولا الطعام مع الأمّ، وكانت جومانة تشعر شعورًا غريبًا من الدّفء والسكينة، لم تكن تفتقده يومًا بين أمّها وأبيها، ولكنّها تشعره اليوم بشكلٍ مختلف، مع أناس بسطاء يمنحون الحبّ بعطاء وسخاء، لا يحلمون بشيء سوى لحظات السّعادة في أبسط الأشياء، والتي يستمدّونها من بعضهم البعض، لا يحملون بقلوبهم إلّا النقاء والأمل، ثمّ قالت جومانة بابتسامة امتنان للأمّ:

ـ هذه الملوخية هي أجمل شيء حدث لي اليوم على الإطلاق.

ـ سوف نصدر طاجنًا منها إلى متحف اللّوفر، إنّها من التراث النادر الذي يجب حمايته من الانقراض.

قالت "هنا" مداعبة لأمّها التي ابتسمت لهما قائلة:

_ بالهناء والشفاء.

وبعد الانتهاء من الطعام، قالت "هنا" لأمّها يجب أن نغادر حتّى لا نتأخّر.

وفي الطريق، قالت جومانة:

_ شكرًا ميس "هنا".

_ بل أنا مَن يجب أن أشكرك يا جومانة لأنّك شاركتني عالمي.

ابتسمت جومانه بعناء، وهي تشعر بالذنب قد بدأ يخنقها بغصّة مريرة، ثمّ أكملت "هنا" عند وصولهما إلى بوّابة البيت:

_لن ندخل البيت سويًّا وإلّا سوف يقبضون علينا ويكتشفون أمرنا. كانت تداعبها وقد نسيتْ أمر آسر، ولم تسأل عنه حين تملك منها في هذه السّاعات القليلة شعورًا آخر من الرّاحة والسّعادة بمرافقة جومانة، القطعة النابضة من روح وليد، حبيب القلب وساكنه القريب البعيد.

كانت جومانة في وجوم، حين أدركت بعد هذا الذّنب أنّه لا شيء أسوأ من غلالة الكره التي تدنّس القلوب البيضاء بالحقد وسوء الظنّ بمَن كانوا يومًا سندًا لنا ولم يؤذوننا أبدًا، فآذيناهم عن عمد.

***

إذا ما صرخت "أحبّك جدًّا"، فلا تسكتيني
إذاما طلبت اللجوء إلى كحل عينيك يومًا، فلا تطرديني
إذا ما رقدت كطفل بغابات شعرك، فلا توقظيني
إذا ما انكسرت كفتافيت ضوء على قدميك فلا تسحقيني
إذا ما فقدت اتّزاني وطوقت خصرك فوق الرصيف لا تنهريني
إذا ما خرجت على كلّ عرف وكلّ نظام فلا تقمعيني
أنا الآن في لحظات الجنون العظيم
وإنك تضيعين فرصة عمرك إنْ أنت لم تستغلّي جنوني

مرّ اليوم يليه الآخر من أيّام الغياب بزحفها القاسي على الروح المنهكة من خيبات الانتظار، "لماذا لا يقول لي شيئًا، أي شيء، حتّى ولو قال لي فقط مرحبًا كالغرباء" كان ذلك ما يضجّ به قلب "هنا" المختلج عشقًا وألمًا في الغياب، منذ أن حدث ما حدث بينهما وهي لم ترَه، كان يهرب من ذنبه، وكيف لها أنْ تستطيع من هذا الذنب الذي أسعدها وأحياها الهربَ؟

عادت "هنا" في اليوم التالي من عملها لتجد شيرين تستضيف أهلها على الغداء، وقد تهيّأت كعادها في الأيام الأخيرة في أجمل حلّة وصورة، دخلت "هنا" على الجمع فألقت التحية عليهم ولم يردّها عليها أحدٌ ممّن كانوا يتطلّعون فيها بنظرة بغض واحتقارٍ حتّى أنّ أمّ شيرين قالت بصوتٍ مسموع كي يصل إلى مسامعها:

_ لن أسامح وليد على فِعلته هذه أبدًا.

فطلبت منها شيرين أن تكون هادئة، ثمّ نظرت لـ "هنا" وهي تتجه إلى الدرج محاولة الهربَ من هذا الجمع الذي احتشد اليوم لينهرها بنظراته المحتقرة وكلماته الجارحة كأنّها مجرمة قاتلة، لم تحاول "هنا" أن تطيل النظر، وكادت على وشك تمطر عيناها ألمًا، وهربت إلى زنزانتها وحيدة كي تتنفّس فيها بعد هذا الاختناق.

انفجرت أمّ شيرين من الغضب بعد رؤيتها هذه الخاطفة للرّجال كما كانت تنعتها دائمًا منذ وقع الزواج، وصاحت بشيرين:

_ كيف تقبلين هذا الوضع؟ ما الذي يجبرك على ذلك؟

صمتت شيرين في أسًى فهي لا تستطيع أن تخبرها وأهلها بالحقيقة، ثمّ قال أبوها بعد برهةٍ من الصمت:

ـ يا بنتي، هذا الوضع الغريب لا يمكن أن أقبله عليك، لقد قلت لك ذلك منذ أنْ فاجئنا وليد بالزواج من هذه المرأة، فقلت إنك ستتحمّلين نزوته العابرة لأنّك تثقين بأنه سوف يعود من أجلك ومن أجل أولاده.. مرّ شهران على هذه الفاجعة وأراك تتحمّلين وضعًا لست مجبرةً على تحمله وأنت الطبيبة اللامعة الجميلة، ابنة الحسب التي يتمنّاها مَن هو أفضل من ذلك الذي سوّاك بتلك المدرّسة البغضية، يجب أن نضع حدًّا لهذه المهزلة.

ـ إنّي أحبّ وليد يا أبي، وأثق أنّه يحبّني ولا يحبّ سواي.

ـإذًا لماذا تزوّج من أخرى؟ ماذا ينقصه؟

ـله أسبابه، ولأنّ ما بيني وبينه أكبر وأعمق من أن تهدّه نزوة عابرة فسوف أصبر للنهاية لأنّه حتمًا سيعود إلى وطنه الوحيد.

ـلم أكنْ أتوقّع منه هذا الجرم في حقّك وفي حقّ أولاده أبدًا.

قالت أمّها بحزن كبير، ثمّ استطرد أبوها:

ـ وفوق ذلك جاء بها ليسكنها معك يا لجرأته، لا أحتمل أنْ أراك تتعاملين معها على أنّها فردٌ من هذا البيت، لا تبْخسي بنفسك وكرامتك إلى هذا الحدّ يا شيرين من أجل الحبّ الذي لم يقدّره هو، سوف أحسم هذا الأمر معه عند عودته، إمّا أن يطلقها وننتهي من هذه المهزلة أو يطلقك وتعودي إلى بيت أبيك معزّزة مكرّمة.

ـ لا يا أبي، أرجوك ألّا تفعل، لا أريد أن يتدخّل أحد بيني وبين زوجي.

ـ أنتركك في هذا الوضع المهين يا شيرين؟

قال أبوها مندهشًا قبل انفجار ثورته الوشيكة.

ـ وليد لا يهينني، هو نعم الزوج، وإنّي عاهدته على الحياة معه تحت أسوأ الظروف لأنّني أعلم جيدًا مقداري عنده، ولم يخبْ به أبدًا ظني.

_ غريب أمرُك هذا! وماذا وإنْ لم يطلقها؟ وماذا وإن جاءت بولد أخ لأولادك؟ هل ستبقين على عهدك البائس مع مَن خان عهده معك؟

_ هذا قدري وحدي وسوف أحتمله وحدي يا أبي، أرجوك لا تظنّ بوليد السوء ولا تظنّ بي الخنوع، نحن نمرّ بعاصفة سوف نجتازها معًا كما اعتدنا أن نجتاز وحدنا كلّ العواصف التي مرّت بنا من قبل.

_ حقًّا لا أفهمك، وكأنك لستِ ابنتي العنيدة صاحبة الكبرياء التي أعرفها.

_ لا كبرياء في الحبّ يا أبي، إنّ الصبر هو طوق النجاة الوحيد من أصعب المحن.

هكذا أنهت شيرين حديثها مع أبويها حاسمة لأمرها بالبقاء للمرّة الأخيرة بعد كلّ محاولاتهما وإخواتها وحتى إخوة وليد وأمّه الذين كانوا يتعاطفون معها وتحسّسوا من أخيهم بعد فعلته التي وصفوها بالجريمة. فلا أحد يعرف الحقيقة ولا أحد يمكن أن يفهم شعورَ زوجة وأمّ تحفظ عائلتها مترابطة للنفس الأخير.

عاد وليد من الخارج واستقبل حمويه بحفاوة مقابل برودة وفتور منهما، حيث تناولا الغداء في صمت وعجّلا بالرحيل، كان وليد يتفهّم موقفهما مثلما يتفهّم موقف أهله ولكنّه عندما واجههم أخبرهم بأنّه لم يرتكب جرمًا في الخفاء، وأنّ هذا الحلال تمّ بعلم زوجته فلا شأن لأحدٍ بما يدور خلف أبواب البيوت المغلقة على ساكنيها.

أمّا "هنا"، فكانت وستبقى صاحبة وصمة العار في أعينهم، والتي ستحملها على عاتقها دومًا رغم أنها استسلمت لمشيئة القدر لأنّها مثلهم بشر.

وفي اليوم التالي، كان ميعاد جلسة شيرين وأجمل ما في هذه الجلسة أنّها ستراه بعد الغياب، وسترى سدرة مرّة أخرى.

تهيّأت "هنا" لهذا اللقاء الذي تنتظره بشغف، وذهبت معهما رغم عدم رغبة شيرين في تلك المرّة، ولكنّ وليد قد أخبرها أنّه مرتبط بعمليات لن يستطيع تأجيلها لذلك سترافقها "هنا" حتّى العودة، لقد ناقشا هذا الأمر بينهما دون علم "هنا"، ولكنّ إصرار وليد على مرافقة "هنا" لهما كان يبدو إصرارًا غير عادي، تجاهلته شيرين عن قصد.

وبالمشفى، وقت بدأت شيرين جلستها بحماس متّقد على غير عادتها، وقد عادت بها الرّوح الشغوفة بالحياة، كانت تبادل الطاقم الطبي الدّعابات وكأنّها في حفلة سمر ممتعة، لم يعدْ يرهبها قسوة المرض ولا العلاج ولا خوف لعين، تركتهما "هنا" وخرجت لتبحث عن سدرة، وقد فطن وليد من نظراتها المشتّتة أنّها ستفعل ذلك، فسألها قبل أن تخرج سؤالًا بنبرة حادّة بعض الشيء:

ـ إلى أين؟

صدمت شيرين من بغتة السّؤال الذي يطوي اهتمامًا واضحًا اخترق سمعها وعينيها ولا يمكن تجاهله، ولكنّ "هنا" في قراراتها كانت لا تستطيع أن تحتمل مشهد القوة التي أصبحت عليها شيرين مؤخرًا لتثبت لكلّ مَن حولها أنها تعود بقوة إلى الحياة لتستردّ أمانتها التي أودعتها بين يديها في النهاية، كانت "هنا" تشعر بغصّة مريرة وهي تراها تبادل وليد كلمات الغزل أمام الجميع للاستحواذ على كلّ انتباهه وتثبت للجميع أنّها هي الأولى، و"هنا" الثانوية كمّ مهمَل لا قيمة له لا يجب أن يعيره أحد اهتمامًا..

ردّت "هنا" في هدوء على سؤال وليد لها، وكانت تحاول أن تسيطر على خفقان قلبها المضطرب رغمًا:

ـ سأتحدث إلى زميلتي لتقوم لي بأجازة.

لم تتمالك شيرين أعصابها وهي توجّه لها الكلمات الجارحة عمدًا لأوّل مرّة، وهي تمسك بيد وليد بقوة:

_ لا داع لأن تلمحين بتضحيتك العظيمة لمرافقتي، لم أكنْ في حاجة لذلك.

_ لم ألّح لأي شيء، إنّي أجيب على السؤال فحسب.

صدم وليد من ردّة فعل شيرين التي لم يتوقّعها، فترك "هنا" تخرج في هدوء، ثمّ وجّه لشيرين السؤال:

_ لماذا تحدّثينها بهذه الطريقة القاسية؟ إنها لم تقلْ شيئًا يستدعي الغضب.

_ لماذا تسألها أنت بهذا الاهتمام إلى أين تذهب؟ ماذا يهمّك إن ذهبت أو بقيت؟

_ سألتها لأنّني سأغادر بعد قليل.

_ وبرأيك إلى أين ستذهب؟ إنّها لا تطيق أن ترانا معًا فتنتظر بالخارج، هذا كلّ شيء، لن تهرب لا تخف.

_ لا أفهمك يا شيرين، أهذا الأمر التّافه يستحق هذه الثورة؟!

_ هذا الأمر التّافه يجب أن يبقى تافهًا يا وليد، أرجو ألّا تنس أنت ذلك.

خرجت "هنا" تتنفّس، فهي لم تعدْ تحتمل هذه النظرات كالسّهام المسمومة ترتشق في قلبها كلّما رأتهما معًا، وكان البحث عن سدرة ورؤيتها هو السبيل الوحيد لأنْ يهدأ هذا الضجيج بين أضلعها، يهدأ بالفرح.

خرج وليد وراءها بعد أن جاءه اتّصال من المشفى أنهاه سريعًا فناداها:

_ "هنا"، انتظري من فضلك، لا تتحسّسي لما بدر من شيرين، تعلمين أنّها تخفي توتّرها وقلقها وألمها خلف عصبيّة غير مقصودة، إنّها اصبحت حسّاسة جدًّا لأبسط الأمور؛ فلا تحزني.

_ لم أحزن منها قطّ، أتفهّم ذلك، لا عليك.

_ ولا منّي؟

اشتعل الشّوق الخامد في تلك اللحظة بغتة متأجّجًا من الأعماق، لحظةٌ التقت الأعين الهاربة تعلن عن فيض الشّوق الدفين، ليضيء عتمة القلب التي خلّفها الغياب، هل في تلك اللحظة التي انطلق من عينيه السّهم إلى عينيها لاحت غرّة الحبّ من جديد وأثمرت زهرة الأمل الحزين وتدفّق نهرًا عذبًا بين القلوب المتباعدة يحييها من بعد الجمود..

جاء الصوت الصغير قاطعًا لحظة ارْتواء الروح وعناق النظرات، فكانت سدرة جاءت تركض فرحًا ناحية "هنا" وقت رأتها ونادتها من بعيد، تحتضنها بسعادة بالغة، وقد استفاق الحالميْن من لحظة الفرح الذي سرى بين أعينهما، والتي لا تحتاج إلى كلمات تخلدها، لحظة السعادة العابرة، القصيرة، الصادقة.

احتضنتها "هنا" وكأنّها وجدت وطنَها الذي يخبئها مِن هذا الشتات، لتسكب في عينيها الصغيرة تلك السعادة التي أفاضت منها في هذه اللحظة الفريدة قبل الرحيل، جاء فارس يتبع ابنته فتوقّفت "هنا" لتعرّفهم على بعضهم، ولأوّل مرّة كانت تشعر بسحر غريب يتسلّل إلى روحها وهي تقدّم حبيبها لفارس قائلة:

_ الدكتور وليد، زوجي.

صافحه فارس مرحّبًا، ثمّ وجّه كلماته إلى "هنا":

_ سدرة كانت تبحث عنك.

_ وإنّي أيضًا كنت أبحث عنها، هل انتهت من جلستها؟

_ لا، سوف تبدأ بعد قليل.

كان وليد يتفحّص نظرات فارس المتوهّجة المتوترة التي حاول أن يهرب بها كي لا تفضح مكنون أعماقه، وكأن كان بهما حلم تحطم بعدما أدرك أنّ الوصال قد أصبح

محالًا، وقد راقب نظرات "هنا" أيضا التي لم تلمع بمثل هذا الفرح إلّا في عينيه، ولم تنتبه إلى فارس في تلك اللحظة، لقد كانت تنشغل بسدرة، ثمّ قال لها بعدما أمسك بيديها فجأة:

_ حسنًا يا "هنا"، سوف أذهب الآن مضطرًّا على عجل إلى المشفى، هاتفيني بعد الانتهاء.

ثمّ طبع قبلةً على خدّها بغتة، وودّع الصغيرة وهو يمسح على رأسها بلطف متجاهلًا وجودَ الغريم.

بعضُ الرجال أيضًا يجيدون الكيدَ والتظاهر بالانتصار في حروب الكبرياء، عندما تصيب قلوبهم الغيرة على مَن يحبّون.

تجمّدت "هنا" في مكانها، لا تعي ما الذي فعله بها وليد في لحظة طبع قبلته المباغتة التي صرعتها، لم فعل ذلك؟ هل يغار؟ هل حقًّا يغار؟ كادت الكلمة نفسها رغم أنّها لم تخرج من أعماقها أن تصمّ العالم كلّه من فرط دويّها بداخلها طربًا وفرحًا وعشقًا وهّاجًا.

ارْتبك فارس بعضَ الشيء وهو يرى الفرح يشرقُ على ملامحها إشراقة عشق لا يمكن أن يخطئها النّاظرون، وأمسك بيد ابنته قائلًا:

_ هيّا يا سدرة لنترك "هنا" في جلستها ونذهب إلى غرفتنا لنبدأ.

أمسكت سدرة بيد "هنا" التي كانت لا تعي شيئًا حولها بعد أنْ تعلّقت عيناها بوليد حتّى غادر بوابة المشفى واختفى عن الأنظار مثلما تعلّق به قلبها الذي انتفض في تلك اللحظة عائدًا إلى الحياة بعد قُبلة الحياة.

أمّا وليد الذي استقلّ سيارته في طريقه إلى عمله، ظلّ يفكّر فيما حدث طوال الطريق والابتسامة لم تفارق شفتيه، لقد انتشى بالانتصار على غريمه، لا.. لم يكنْ هذا

كلّ شيء، بل إنّ شعورًا خفيًّا بالسعادة قد تغلغل إلى أعماقه بعد تلك القُبلة، لأنّ تلك القبلة قد خرجت بلا تخطيط ودون وعي في لحظتها، لقد خرجت إليها قدرًا، خرجت بطعم الحياة ورؤْنقها، خرجت بدفء الشمس ونورها لتشقّ الغيم وتضيء الأعماق وبخفقان قلب لم يخفق بمثل هذه القوة قبل اليوم.

استفاقت "هنا" من شرودها وهي تسبحُ بفضاء حلمها بعد رحيل وليد على صوت سدرة وهي تقول:

_ هل بقيتِ معي لنلعب سويًّا مع ساندي؟

_ بالطبع يا حبيبتي سأبقى معك.

_ لا أودّ أن أتسبّب في تعطيلك. (قال فارس).

_ لا، أبدًا.

وبينما بدأت سدرة الجلسة بتعليق العقاقير المعقّمة واختراق السّنون الحادّة ذراعها الصّغير لتستقرّ بأوردتها المنهكة لتسري فيها كالحمم المخترقة لثوب الطفولة النقي الشّفاف تحدث به ثقوبًا من الألم، ولكن تلك الثقوب الحزينة مازالت تسمح بمرور نور الأمل من خلالها ليخرج منها عطن الخلايا الخبيثة بعد هزيمتها على أعتاب الروح النّقية الشغوفة بالحياة ليحيا القلب البريء الصغير.

كان فارس قد تملّكه فضولٌ أثناء خضوع ابنته لجلستها واستسلامها للحرب الدائرة بجسدها في سلام طالما يحيطها كلّ مَن تحبّ، ويغمرونها كلّ هذا الحبّ لتقاوم، وبينما كانت "هنا" تمسك بيد سدرة تربت عليها وتبتسم باغتها فارس بالسؤال:

_ لماذا ذهب زوجك وتركك وحدك؟

_ ذهب إلى المشفى، لديه عمليات لا يستطيع التأخّر عنها.

_ حسنًا، هل سيعود عندما تبدئين جلستك، أم هل سيمرّ أحد ليرافقك بعد الجلسة، أتسائل حتّى إن لم تكوني على ما يرام بعد الجلسة يمكننا أن نبقى معك أو نوصلك إلى المنزل.

ارتبكت "هنا" وهي لا تعرف كيف تجيب على هذا السؤال، فلاحظ فارس اضطرابها ثمّ قال:

_ لنترك الأميرة سدرة نائمة قليلًا، بينما نبتاع لها الشيكولاتة الكثيرة أنا و"هنا"، سنعود بعد قليل حبيبتي.

ابتسمت سدرة من بين الألم وأكملت استسلامها وقد احتضنت دميتها رفيقتها، ثمّ خرج فارس مع "هنا" إلى الخارج ليستكملا الحديث:

_ الحقيقة أني لا أخضع لجلسات. (جاوبته "هنا").

_ لم أفهم، أتقصدين أنك لست مريضة؟

_ نعم، لقد ظنّت سدرة ذلك وقت رأيتها أوّل مرّة، ووددت أن أجدَ سببًا لرؤيتها دائمًا فيما بعد فاضطررت للصمت.

_إذًا لماذا تأتين إلى المشفى؟

وبعد شرود قليل وحيرة واضحة قالت:

_ الحقيقة أني أحضر مع زوجة وليد.

_ لا أفهم، وليد زوجك؟

_ نعم.

_ أتقصدين أنّ له زوجة أخرى؟

_ نعم.

ابتسم فارس مندهشًا غير مصدّق لما يسمعه:

_ هل هذا معقول!! أنْ ترافق زوجةٌ زوجة أخرى بهذا القدر من الاهتمام؟ يا لك من ذات قلب رحيم.

_ الحقيقة هي تكون زوجته الأولى، وأنا زوجته الأخرى.

ازداد اندهاش فارس بشكل هائل، ثمّ قال مبتسمًا:

_وهل تتقبّل هي ذلك الأمر؟

_ إنّها قصة طويلة، لا مجال لها الآن.

_ ربّما لديك أسباب قوية لقبول هذا الوضع، هل تحبّينه؟

صمتت "هنا" من صدمة السؤال..

_ آسف، ولكن نادرًا ما قابلت هذا الوضع الغريب بين زوجتين، لذلك أثار فضولي واهتمامي، أرجو أن تعتبرينني أخًا وصديقًا لك إن أردتِ أي مساعدة، أو إن أردتِ أنْ تحكي لي أي شيء فإنّي مأمن أسرار أصدقائي، إنّ سدرة تحبّك كثيرًا، وأظنّ أنّ سريرة ابنتي النقية لا تعرف أن تحبّ إلّا الأنقياء مثلها.

_ إنّي أيضًا أحببت سدرة كثيرًا، وأدعو لها أن يتمّ الله شفاءها. يجب أن أعود الآن إلى الغرفة، ربّما انتهت الدكتورة من جلستها.

_ هي دكتورة؟ وأنت؟

_ مدرسة لغة عربية.

_تشرّفت بك، أنا أعمل مهندسًا معماريًّا، ولدي شركة معروفة للمعمار والديكورات. وكما قلت لك، إنِ احتجت لصديقٍ لن تجدي أحدًا تأمنيه مثلي.

_ أشكرك، يجب أن أعود الآن.

ثمّ عادت إلى شيرين في حالةٍ غريبة وغامرة من السعادة بعد قُبلة وليد المباغتة، فهي لم يعدْ يعنيها تلك النظرات الثاقبة المحمّلة بالاتّهامات.

ثمّ عادا معًا إلى البيت دون حديث، كلّ منهما تعيش حلمها الجميل منفصًلا في نفس القلب.

وبينما كانت "هنا" بغرفتها شاردة في غيد حلمها الجميل جاءها اتّصال، لقد خفق قلبها بمجرّد أن رأت اسمه، وكأنّ شيئًا لا تقوى على مقاومته انتفض يطربه بل ليحييه:

_نعم دكتور وليد.

_تحدّثين زوجك بهذه الرّسمية؟

(صمت)

_ماذا تفعلين؟

_أظنّني أفكّر في تسلّق الهيمالايا.

_ إذًا احذري أن تسقطي، ليس لدي وقت لإنقاذك من السقوط.

ابتسمت ابتسامة خفيّة تحمل سعادتها المدوّية إلى قلبه في لحظة الصمت، ليته كان يرى كيف أشرقت على ملامحها الباهتة كشمس شتوية دافئة تأبى أن تغيب، ثمّ قال:

_هل تمانعين في أنْ نتناول الغداء سويًّا اليوم؟

_ولكن..

_ لا تخافي لن تدفعي شيئًا، سأدفع أنا.

ابتسمت أيضًا وهي ترتشف من كلماته الفرح الذي بدأ يرسم قوسَ قزح على جدران الروح الباهتة:

_ ولكن أخشى أن تشعر شيرين بالتّعب بعد الجلسة.

_ سوف نتناول الغداء بمكانٍ قريب، وتقوم برعايتها مديرة المنزل حتّى نعود.

صمتت مرّة أخرى، لقد أجابها أخيرًا القدر..

كان هذا اللقاء الأوّل بين زوجين لم يكن بينهما إلّا ورقة مكتوبة بحروف الخوف والمعاناة خطّها القدر، لقاء أوّل غير عادي بين قلبين يتعرّفان على بعضهما لأوّل مرّة، كلّ منهما كان ينظر للآخر بعين مختلفة، كلّ منهما كان ينتظر الآخر بلهفة وشغف، وكأنّ هذا الخفقان كان الخفقانَ الأوّل، بعدما فتحت نافذة القلوب على مصراعيها لترى السعادة بالقلوب وهي تحلّق بهما في فضاء لؤلؤي بديع، ليشاهدا معًا ذلك الحلم الجامح يحمل على أجنحته البيضاء أمنياتٍ صغيرةً تسكن تلك القلوب.

ظهرت "هنا" بالمكان الذي كان ينتظرها فيه بهيئتها العادية، التي لم تكنْ تثير النظر إليها من قبل، ولكنها اليوم في نظر وليد، وفي هذه اللحظة، كانت غير عادية وكأنه لا يرى مِن العالم سواها، وجلست أمامه بالطاولة، ظلّ ناظرًا إليها في صمت أبلغ من الكلام، ثمّ قال مبتسمًا:

_أشعر أنّني أقابل فتاتي خلسةً من وراء أهلنا.

_لماذا تقول ذلك؟

_ لأنّني أرى أجمل وردتين جوريّتين تزهران على وجنتيك الآن، وأنت تتلفّتين.

_ اسمع، لا داع لهذا الكلام، قل لي ما الذي خطر ببالك كي تدعوني على الغداء.

وبعد نظرة صمت مطوّلة من عينيه المفعمتين سعادة بالغة، قال:

_ اشتقت إليك، أليس ذلك كافيًا؟

_ لا أفهمك، كيف انقلب حالك بين ليلة وضحاها؟

_ ربّما القدر، لا يوجد أحدٌ على هذه الأرض يستطيع أن يمنع وقوع القدر أو يغيّره.

_ لا يجب أنْ ننسى أنّ هناك عائلة لك لا تتقبّل هذا القدر.

_ كيف؟ إنّ شيرين هي مَن قرّرت دفعنا لهذا القدر، والأولاد أنت مدرّستهم التي يحبّونها، ربّما الصدمة قد أثرت عليهم بعض الشيء ولكني أثق أنّ كلّ شيء مع اعتياد الأمر سيعود كما كان.

_ لا تتيقّن بشيء غير مضمون.

_ اسمعي يا "هنا"، أعترف أنّني لم أتقبّلكِ في الفترة الأولى.. إنّك كنت بالنسبة لي تهديدًا لاستقراري، وشيئًا فرض على حياتي كنت مرغمًا عليه رغم أنّني لم أعتد أن يرغمني أحدٌ على شيء، ولكني اقتنعت بما فكّرت به شيرين من أجل أولادنا ومن أجل راحتها، ولكن الآن الوضع قد اختلف بفعل هذا القدر.

_ وما الذي تغيّر!! إنّ اتفاقي مع شيرين لم يتغيّر.

_ اتفاقك مع شيرين تلتزمين به معها، ولكنّ اتفاقك مع قلبك أتلتزمين به؟

_ لا أفهم.

_ بل تفهمين جيدًا، وتعرفين أنّ ما حدث بيننا في تلك الليلة كان حقيقيًّا، كان سحرًا لم يمرّ به أحدنا من قبل، حتّى وإن كنّا تظاهرنا بغير ذلك.

_ ربّما لم أمرّ به من قبل لأنني لم أتزوّج قبلك، فكيف أنك لم تمرّ به من قبل!؟

_حسنًا، فهمت ما ترمين إليه، إنّي أحبّ شيرين لا أنكر ذلك، لقد أفنت حياتها لتسعدني وفعلت نفس الشيء معها، ولم أكن لأرى سواها بحياتي، مهْما كانت

المغريات تحيطني، كنت مكتفيًا، إلى أنْ شعرت معك ذلك الشيء الساحر الذي لا يمكن أنْ يكون كذبًا ولا سرابًا عابرًا، إنّه شيء منحني شعورًا عجيبًا بالأمان، منحني سرًّا للحياة لم أعرفه قبلك، فإنّي معك لا أكون مكتفيًا فحسب، بل مزهرًا ومرتويًا، أتفهمين الفرق بين أن تكوني مجرّد كائن على قيْد الحياة وبين أن تدبّ في أعماقك روح الحياة؟

ابتسمت "هنا" ابتسامة خافتة ساحرة كخيط النهار الأوّل في الفجر الجديد، ثمّ أكمل وليد:

_ لم يكنْ ما عشناه عبثًا يا "هنا"، حتّى وإن كان لمرّة واحدة.

_ولكنّك شعرت بالذنب وابتعدت يا وليد، وتركتني لظنوني تنهشني وتقتلني.

_لم أكنْ أفهم هذا التغيّر الذي أصابني وما حدث لي، لم أكن أستطيع إخماد تلك العاصفة التي شتّتت وعيي وبعثرت أفكاري، ابتعدت لأفكّر كيف أصابني هذا الوهج فجأة في هذا الظلام، ابتعدت لأرتّب شتاتي وأتيقّن من حقيقة شعوري تجاهك، وأحسم الأمر، تلك القُبلة التي طبعتها على خدّك بالصباح لم تكن بإرادةٍ من عقلي.

_ ماذا كانت إذًا؟

_ بإرادة من قلبي الذي يحبّك ولا يستطيع بعد الآن نكران هذا الحبّ إليك. هل تحبّينني يا "هنا"؟

_ أحبّك لأنّك أجمل أحلامي التي حقّقها القدر، ولمستها بين يدي رغم أنّي كنت أكتفي بك حلمًا بعيدَ المنال. ولكن يا وليد لا يجب أنْ نتمادى في أحلامنا الغيداء، وهناك من تنتظرك وتحتاج إليك، هذا البيت هو واقعك وحياتك الأساسية

واستقرارك، وهذه المرأة هي مَن تستحقّ كلّ هذا الحبّ لما تفعله من أجل الحفاظ عليك لربما منحها حبّك القوة التي تعينها على الشّفاء، وهذا ما رأيته فيها منذ تلك الليلة.

ـ وأنتِ؟ من يفكّر بكِ أنت وأنت تفكرين بالآخرين على حسابك؟ لا أحبّ هذه التضحية المثالية منك يا "هنا"، أنت إنسان له حقّ الحياة، والحبّ، والاستقرار والأمان مثلها تمامًا، لماذا تقلّلين من شأنك وتؤثرين الآخرين الذين لن يعنيهم أمرك على حقّك بالحياة، وتقسين على قلبك العطش للارتواء؟

ـ لأنني قبلت ذلك من البداية، وعليّ أن أبقى بمكاني للنهاية.

ـ لقد أصبح مكانك الآن بقلبي يا "هنا"، وليس فقط بمنزلي، وبورقة بيننا.

ـ وهذا يكفيني منك يا وليد، يكفيني إلى آخر العمر.

ـ"هنا"، إننا لا نملك على قلوبنا سلطانًا، ولن نستطيع أبدًا أن نمنع مشيئة أقدارنا.

ثمّ أمسك يديها وقبّلها بعمق أزهر في روحها ربيعًا جديدًا بعد الارتواء.

كانت شيرين تخلد إلى نومتها هربًا من الألم، والذي تضاعف اليوم لقد فاق الألم النفسي وقعه الألم الجسدي بعدما رأتْ ذلك الوهج الجديد بعيني وليد، فإنّ الوهج المضيء اليوم بعيني "هنا" لم يكن يعنيها على أيّة حال.

وكانت جومانة بغرفتها تتحدّث مع آسر تعتذر عن عدم الحضور إلى الدرس، بحجّة أنّ أمّها مريضة وستبقى معها، ولكنّها كانت بقرارة نفسها تهرب من لقائه ومواجهته ثمّ صمتت فجأة من وقع الصدمة عندما قال لها ساخرًا:

ـ افتحي تلك الصور التي أرسلتها الآن، وشاهدي الفضيحة حصريًّا يا عزيزتي.

انقبض قلبُ جومانة وهي تفتح الرّسالة المحمّلة بالصور لتجده قد قام بتعديلها وإدخال بعض المثيرات عليها باحتراف فأصبحت صورًا فاضحة لامرأة تراود فتًى صغيرًا عن نفسه في جلسةٍ غرامية ماجنة.

ارتعشت جومانة، انهمرت دموعُها كالسيل الجارف، كانت لا تصدّق أن يكون هذا الوغد شيطانًا إلى هذا الحدّ المفزع، مَن أحبّت ومَن أمنت؟ ومَن كادت أن تخسر نفسها لأجله؟ من أجل أن تتستّر على علاقتها به تتسبّب الآن في ظلم كبير لتلك المرأة التي علمتها، والتي حمتها من نفسها، والتي أنقذتها في لحظة طيش من السقوط، لتراها الآن وهي تسقط، فلم تجدْ بدًّا غير أنّها تتوسّل لهذا الوغد أن ينهي هذه المكيدة الحقيرة.

ـ أرجوك يا آسر، احذف تلك الصور، هذا حرام.

ـ حرام!! وأيّ فضيحة ستتسبّب لك فيها تلك المرأة التي سمحت لنفسها أن تراقبك وتهدّد حريتك، أليس حرامًا؟ يوم أنْ تسلّلت إلى بيتكم لتفرق بين أبيك وأمّك دون مراعاةٍ لمشاعرك ولا مشاعر إخوتك، وخطفته من بينكم، ألم يكن ذلك حرامًا!؟

ـ رغم كلّ ذلك إنّها لا تستحقّ الأذى بهذه الطريقة الوضيعة يا آسر.

كانت جومانة تبكي وكأنّ شيئًا قويًّا يؤنّبها على ما فعلته باستدراج هذه المسكينة التي لم تجدْ منها إلّا حبًّا واحترامًا.

ـ إذًا، لاعلاقة لك بالأمر يا جومانة هذا شأني وحدي، لن أجعلها تهدّدني ولا حتى بالنّظرات، أمّا أنت فكأنك لا تعرفين شيئًا.

ـإنّك ترتكب جرمًا لن أسامحك عليه يا آسر، كيف ترضى أن تؤذي إنسانا مظلومًا مسالمًا بهذه البشاعة؟

_ لا تقومي بدوْر الواعظ وأنت مَن يحتاج إلى وعظ، سوف أرسل لها تلك الصور اليوم، وسوف نرى الفضيحة في الصباح تهزّ أرجاء المدرسة، لقد انتهى الأمر.

وأغلق آسر الخطّ غاضبًا، بينما هُرعت جومانة إلى غرفة "هنا"، تحاول تحذيرها من الخطر المتربّص بها، ولكنّها لم تجدها، فذهبت إلى أمّها النائمة وجلست بجوارها تلتصق بها خوفًا، لعلّ الله يغفر لها ذلك الذنب الكبير.

عادت "هنا" في حالةٍ من السعادة الغامرة، وصعدت مباشرة إلى طابقها دون أن تمرّ على شيرين، وهي تحاول أن تحتفظ بحالتها الحالمة مع وليد بكلّ تفاصيلها، لقد عزمت ألّا تواجه اليوم نظرة ولا كلمة تشوّه حالتها التي ملأتها فرحًا بعد حزن وبعثت بأعماقها طيفًا يأبى أن يزول.

وفي نهاية اليوم، بعد تفكير عميق وخوف كبير تملّك من قلب جومانة، قرّرت أن تلتزم الصمت، وكأنّها لا تعرف شيئا، حتّى لا يفاجئها ذلك الوغد بشيء لا تتوقّعه ربما كان ضررًا عليها أكبرَ من ذلك الضّرر الذي سيفعله بـ "هنا" وهي لا تستحقّ ذلك.

عاد وليد من المشفى بعد انقضاء عمله الذي قام به بحماس وفرح غير عادي بعدما اعترف بما يكنّه بقلبه لـ "هنا" على الغداء، ودخل إلى شيرين ليطمئنّ عليها وكانت قد استفاقت:

_ هل أجهّز لك العشاء؟

_ نعم، لنتناول العشاء معًا حبيبتي، هل نام الأولاد؟

_نعم، الوقت متأخّر.

ـ إنّي مُنهك من التعب، وسوف أجهّز نفسي للسفر إلى المؤتمر باكرًا.

ـ سأجهّز لك حقيبة سفرك.

ـ حبيبتي، لا تقومي بتجهيز شيء، سأفعل بنفسي، ارتاحي أنت.

ـ لست مُتعبة يا وليد، مازلت أستطيع أن أجهّز لك حقيبة سفرك، إني لم أمتْ بعد.

قالتها شيرين في تحدٍّ واضح ونبرة قاسية، ونظرة ثاقبة:

ـلماذا تقولين ذلك، أردت أن تستريحي فقط.

ـ حسنًا دعني أجهّز لك الحقيبة.

ـ حسنًا، افعلي يا شيرين.

ظلّت شيرين تتبع حدسها في أنّ زوجها الذي تحفظه عن ظهر قلب بدأ يحدث له تغيير كبير واضح على تصرّفاته وفي لمعان عينيه، دون أن يكون هناك دليل واضح، وبينما كانت ترتّب حقيبته، تناولت سترته التي كان يرتديها، وفتّشتها، لأوّل مرّة تقوم بهذا الفعل الذي لم تقمْ به طيلة هذه السنوات تحت سقف هذه الغرفة معًا، والتقطت الهاتف، الذي ما لبثت أنْ فتحته، لتجد منه عدّة اتّصالات منه بـ "هنا"، وهذا ما كانت تبحث عنه، لقد وقع ما كانت تخشاه.

خرج وليد من حمّامه، وتناول معها العشاء، وكانت صامتة في وجوم حزين، فلاحظ ذلك ثمّ سألها بقلق:

ـ هل أنت بخير؟

ـ لا تعدْ على مسامعي هذا السؤال مرارًا وتكرارًا، هل أقسم لك في كلّ وقت أنّي بخير؟

قالت شيرين بانفعال غير متوقّع.

_ ماذا هناك يا شيرين؟ ألا تلاحظين فرط حساسيتك مؤخّرًا؟

_ لقد لاحظت أشياء كثيرة تحدث في هذه الأيام.

_ أشياء كثيرة!! ماذا تقصدين؟

_ أقصد أني لست وحدي مَن أتغيّر، على الأقلّ لدي عذري وأسبابي، إنّما هناك من ليس لهم عذرٌ ولا أسباب.

_أظنّك تلمّحين لشيء ما، وأظنّني لن أودّ أن أعرفه لأنّ لدي عملًا كثيفًا قبل سفري باكرًا.

ثمّ خرج من الغرفة تعتليه علاماتُ الغضب، ماضيًا إلى مكتبه.

خرجت بعد أنْ تمالكت نفسها لتحاول تخفيف حدّة التوتّر وذهبت إليه بعد فترة، وكان لايزال ينهي بعض العمل على حاسوبه بمكتبه.

_ ألن تخلد إلى النوم قليلًا؟

_ ليس الآن.

قال مقتضبًا بعضَ الشيء وهو منهمكٌ في العمل.

_ لم أقصد أنْ أضايقك يا وليد، ولكنّي لا أحبّ تلك المعاملة منك بالشفقة على مريضة، لقد بدأت تنسى أني زوجتك.

_ لا أعاملك بهذا المفهوم الخاطئ يا شيرين وأنت تعرفين ذلك جيدًا، وتعرفين كم أحرص على راحتك وأنْ أراك دائمًا بخير.

_ أعرف ذلك، وأعتذر عمّا قلت.

_ لا بأس حبيبتي، لا داع للأسف. (ثمّ قبّل يدها).

_ هل تحدّثت مع "هنا" اليوم؟

نزل السّؤال صاعقة على أذنيه، ولكنّه كان ينتظره:

_ نعم، بالطبع كنت أتّصل بها لأطمئن عنك بعد الجلسة.

ولو أنّ هذه الإجابة لم تكن لترضيها إلّا أنّها قرّرت أن تتغافل، ثمّ قالت له:

_ حسنًا، لقد جهّزت لك الحقيبة، سأسبقك لغرفتنا وحاول ألّا تجهد نفسك لترتاح قليلًا قبل السفر، تصبح على خير.

وخرجت شيرين من عنده، بينما استسلم هو لشروده وهو ينفث دخّان السيجار ببطء، ثمّ أمسك بهاتفه مبتسمًا، وأرسل لهنا رسالة.. "هل نمتِ؟"

كانت "هنا" قد بدأت بالاستسلام بالفعل إلى النوم، وهي تفكّر في التفاصيل التي عاشتها اليوم مستلقاة في فراشها في سعادةٍ بالغة وتستعيد بأعماقها الكلمات ونظرات عينيه التي كانت عالقة بمخيّلتها تزلزل قلبها الذي يعشقه، ومجرّد ما سمعت رنين الهاتف بالرسالة بجوارها استفاقت، ومجرّد ما أن رأتْ اسمه خفق قلبها طربًا وفرحًا فأجابته برسالة باسمة:

_ نعم، نمت.

ابتسم وليد من الإجابة، لأنّها تزاوله وتداعبه، وهو يشعر بسعادة ولذّة ممتعة تتخلّله كلّما تحدّث معها، حتّى ولو في الخفاء.

_ إذًا أريد طبقًا من الأرز باللبن الذي تتناولينه الآن مع الملائكة.

_وما أدراك، ربّما يكون ما أتناوله الآن هو جمرٌ ملتهب مع الشياطين.

_ حسنًا، ربّما صعدت الآن لأشدّ بعض الأنفاس من هذا الجمر الملتهب، ثمّ لأطفئ الجمر والهوى مع الشياطين.

وبعد دقائق استبق الزمن فرحًا وشغفًا كان أمامها بالغرفة:

انتفضت من فراشها قائلةً بترقّب ممتزج بالفرح:

_ لماذا جئت إلى هُنا؟ هل أنت مجنون!!

_ نعم، مجنون بكِ.

_وليد، اخرج الآن.

_ وإنْ لم أخرج.

_ سأخرج أنا.

_ لن تهربي منّي بعد اليوم.

ثمّ ضمّها إلى صدره بقوّة لم تستطع إلّا أن تستسلم فيه عشقًا، وتمطر بالروح زهرًا يفوح بين ذراعيه..

ثمّ همس لها ببعضٍ من أبيات الشعر العميق:

أشتاق في الليل عطرًا منك يبعثني

ولتسألي العطر كيف البُعد يشقيه

ولتسألي الليل هل نامت جوانحه

ما عاد يغفو ودمعي في مآقيه

تعالي وأسقطي مطرًا على عطشي وأنوائي

وذوبي في فمي كالشمع وانْعَجني بأجزائي

ثمّ أكملت هي وكأنّ النبع قد أفاض بتلك الكلمات العذبة من الأعماق:

_ والرّوح تجمح بين ذراعيك كفرسة ليلية

تهرب في عتمته إلى قلبك فتدرك الحرية

وبالعشق تسقط الأرواح مطرًا مرمريًّا

تزهر أملًا أخضرًا في لحظة سحرية

تلك اللحظة قدرًا ستحفر بالقلب أبدية

واستسلما معًا إلى ذلك العشق الذي انساب نهرًا سريًّا بينهما وتوهّج في أوجه في لحظة جنونهما حين أجابا نداءَ قلبيهما المتعانقين...

_ "هنا"..

ناداها وليد وهو يعانقها بعدما وصل العشقُ إلى مداه، وكانت مستسلمة على صدره ممسكة بيديه بقوة:

_لماذا تتشبّثين بيدي تشبّث الطفل الذي يمسك بوالده.

_لأنّ في تلك اللحظة أشعر حقًا أنك والدي.

_ ألم يكن والدك يعانقك في صغرك؟

_ لم يعانقني أبدًا.

_ احكِ لي عنه يا "هنا"، أوّد أنْ أعرف عنك كلّ شيء، نحن لم نعرف بعضنا قبل اليوم.

_ أبي كان أستاذًا جامعيًّا بقسم اللغة العربية في كلية الآداب، لقد كان قارئًا نهمًا وكاتبًا مخضرمًا، له العديد من الكتب باسمه، تلك التي جعلتني أصرّ على استكمال دراستي للّغة العربية كلّما قرأت كتبه ورأيت إبداعه وأسلوبه المخضرم الراقي، كم كنت أتمنّى أن يمهله القدر عمرًا كي ألقاه، ولكنه فارق الحياة بسبب حزنه على ما فقده الوطن في عام النكسة، وكانت أمي وقتها تحملني بأحشائها، لقد قرأت آخر كتبه عن وصف الوطن المجروح، الحزين على أبنائه الشهداء بعد النكسة، كان كتابًا لم يكتمل،

فشعورُه كان قد فاق وصفه في كلمات، كان هدفي الذي وضعته أمامي منذ الصغر أنْ أكبر وأدرس قواعد اللغة ليصبح الأمرُ سهلًا وقت أن أعزم على استكمال آخر أعماله وأنشرها، ولكنّني مهْما حاولت لا أستطيع أن أكتب بنفس هذا الأسلوب المخضرم وبنفس هذه الحالة العميقة التي نقشت روحه في سطور هذا الكتاب، فظلّ حيًّا فينا غير مكتمل.

_هذه الأبيات التي سمعتها من شفتيك الرقيقتين كانت له؟

_لا.. بل لي، لست أدري كيف كانت وليدة اللحظة، لم أعتدْ أن أكتب الشّعر إلّا في لحظات تعني لي الكثير، لحظات فيض لا تتكرّر.

ازداد عناقه لها قوّة، وازداد الفيض بقلبها تدفقًا، ثمّ قالت له:

_ لم أشعر بهذا الشّعور بالحبّ الغامر معك منذ أن فقدت حبي الأول منذ وقت بعيد، ولكن ما أشعره الآن هو شعور مختلف كليًّا حتّى أنّني لم أعهده مع هيثم، ربّما لأننا لم نتزوّج، ولأننا كنّا حالمين كالأطفال، نرى الحبّ على مرآة النقاء ببراءة بمفهوم محدود، لم تكنْ عقولنا قد نضجت كفايةً لنشعر حلاوته عن قرب، ولم يمنحنا القدر فرصةً لنعيش حياة حقيقيّة نحقّق بها أحلامنا التي رسمناها سويًّا.

_ مَن يكون هيثم؟

_كان خاطبًا، وهج الحبّ الأول البعيد والحلم الذي لم يكتمل، رحمه الله وأحسن مثواه.

_أليس غريبًا أن تتذكّرينه في لحظات كهذه مع زوجك؟

_أنت لست لي مجرّد زوج فقط يا وليد، إنّني الآن أطلعك على عالمي، أفتح كتابي أمامك لتقرأه دون خوف، لأنّك ساكن القلب الوحيد، والذي ستكمله وتكتب فيه النهاية فيجب أن تكون مطّلعًا على البداية.

_إنّني الآن في لحظات الجنون الكبير، كم عشقت الجنون معك! ربما كنت أحلم وحدي بالجنون، أخفيه في عالمي، أعيشه كما يحلو لي في أحلامي وخيالي ولا أستطيع أن أخبر به أحدًا.

_ ولا شيرين؟

_ لقد اخترت شيرين زوجة بعقلي قبل قلبي، نحن متكافئان اجتماعيًّا وعلميًّا، والتكافؤ مهمّ للزواج ولاستمراره، ولا أنكر أنّ قلبي قد خفق لها لأنّها إنسانة جميلة ورائعة حقًّا، ولكن ذلك الجنون الذي أعيشه معك الآن لم أعشْه يومًا إلّا في خيالي، لقد كان كلّ همّي هو العمل وشغلي الشاغل هو نجاحي في تخصصي كجراح كان يقضي كلّ يومه في غرف العمليّات منتبهًا متيقظًا حتّى لا يغفله الموت في لحظة فيبعثر طموحه وأحلامه، كان أكبر أهدافي وأهمّها هو تحقيق طموحي العلمي، وشيرين كانت تسير معي على نفس الطريق من أجل طموحها الذي تستحقّ الوصول إليه بجدارتها ومثابرتها، لذلك كانت هي مَن تتفهّم وتتحمّل غيابي وانخراطي بالعمل المتواصل، إنّ حياة الطبيب صعبة وقاسية بكلّ المقاييس يا "هنا"، الطبيب ربما لا يرى عائلته بالأيّام والأشهر لمجرّد أنه يركض بين المرضى هُنا وهناك، لا يكلّ ولا يملّ، لا يهدأ ولا يستسلم، حتّى وإن استسلم المريض للموت، الطبيب الناجح يتعلّم دائمًا من أخطائه، يصارع الموت دومًا ليمنح مريضَه فرصة للحياة بمشيئة الله ويقضي أغلب أوقات فراغه النادرة سابحًا بين الكتب وبين متابعة التحديثات الدورية للأبحاث العلمية والحالات الطبية الحرجة والصعبة منها وما بين السفر الدائم والاطّلاع المستمرّ ليلحق بالركب العلمي العالمي.

_وحياة المريض لأكثر قسوة وصعوبة من حياة الطبيب، لذلك هُم يضعون كلّ ثقتهم ويلقون أملهم الباقي بين يدي الطبيب بعد الله، كنْ ناجحًا دومًا يا وليد لتكن

قدوة أولادك والأطباء الذين تعلّمهم من علمك ومرضاك الذين تنفعهم وتمنحهم الأمل والحياة.

_حسنًا، أصبحت لك الآن والدك المغفور له وحبيبك المرحوم، وحان دورك لتكوني لي أمّي.

_أتمزح؟!

_ماذا برأيك؟

_مجنون!

_ أنا بلحظات الجنون العظيم، وسوف تضيّعين فرصة عمرك إنْ أنت لم تستغلي جنوني.

_ تأخّر الوقت كثيرًا ومرّ سريعًا معك لا أعلم لماذا لا يتوقف الزمان وأنا بين يديك، انزل إلى بيتك واترك أشعار نزار الحالمة ترقد في القلب في سلام، طائرتك في الصباح الباكر وسوف ينكشف أمرك.

_ أتعلمين، أشعر بلذّة غريبة تأسرني فرحًا وأنا أتسلل إليك في الظلام والناس نيام، وأختلس اللّحظات الجنونية معك قبل أن ينكشف أمرنا، لم أعش حياة التسلل والعلاقات الخفية كالشباب في المراهقة، قضيت حياتي سابحًا بين الكتب والعلم.

انقبض قلب "هنا" بعدما سمعت هذه الجُملة تحديدًا، لقد تذكّرت جومانة وما كاد أن يحدث لها بسبب التّهور وخطر هذا الطيش بين الشباب المراهقين، ثمّ قالت له بعد أن تغيّرت نبرة صوتها وهي تترك يديه وتبتعد عن صدره:

_ المرء السوي يجب أن يراقب ربّه أولًا وأخيرًا قبل أن يراقب الناس.

_ لماذا انزعجتِ حبيبتي؟ ابقي قليلًا بين ذراعي، إنّك لا تعلمين كم سأشتاق إليك في الأيام القادمة.

_ وليد، هيّا عدْ إلى بيتك.

_ هذا بيتي أيضًا، وهذا القلب وطني الذي اشتقت إليه من قبل أن أغادره.

ثمّ عاود ضمّها إليه بقوة وقد بدأ الشّوق يتوهّج من جديد، ولم تستطع أن تقاوم هذا الوهج وهي تتوق إلى هذا الارتواء بعد عطش طويل إليه، لم يكن يومًا إلّا إليه.

مرّت ساعات الليل الحالمة على العاشقين كالطيف يحفر على جدران القلوب أثرَ الحلم الذي تجسّد، والروح التي أزهرت وهي تتوّج بالفرح لتحيا على هذا الارتواء طويلًا مهْما طال الغياب.

***

ما بين كلّ حبّ وحبّ أحبك أنتِ
ما بين واحدة ودّعتني وواحدة سوف تأتي
أفتش عنك، هنا، وهناك..
كأنّ الزمان الوحيد زمانك أنتِ
كأنّ جميع الوعود تصبّ بعينيك أنتِ

استيقظ وليد قبيل الفجر، وقبّل أميرته النائمة قبلةَ وداع الفارس على عهدٍ باللقاء، ثمّ عاد إلى موطنه الأوّل، وكانت شيرين نائمة وقت أيقظها ليودّعها بقبلةٍ على جبينها قبل أن يغادر.

أشرقت البسمة على وجْه "هنا" نقية صافية في هذا الصباح قبل الشمس، لقد كان حلمًا لم تصدّق أنّها تذوّقت حلاوته حقيقة، ما أجمل أن يحلم الأنسان أمنًا في قلب مَن يحبّ. وقرّرت أن تغادر دون أن تسمح لأحدٍ أن ينتزع منها سعادتها أو يقترب من قوس قزح المرتسم على ملامحها المشرقة.

وفي المدرسة...

ذهبت جومانة إلى آسر ترجوه رجاءً أخيرًا أن يتراجع عن انتقامه من "هنا" من أجلها، إن كان حقًا يحبّها. وما لبث الشيطان إلّا أن وجد ورقة بيده ليبتزّها هي الأخرى بعدما لاحظ تهرّبها منه منذ ذلك اليوم، فقال بمكرٍ مُحكم:

_ حسنًا لتنفّذي ما أريد.

_ وماذا تريد؟

_ أن نكون اليوم كلّه معًا، ولتخبري أمّك أنّك ستقضين ليلتك عند تاليا صديقتك لتستذكرا معًا.

_ ماذا!! هل جننت يا آسر؟ أأبيت عندك؟ هذا مستحيل.

_ لم يعد هناك مستحيل يا حبيبتي.

قاطعها قبل أن تنطق:

_ فكّري جيدًا قبل أن تجيبي، وتذكّري أنّك الأن تقومين بدور المنقذ لزوجة أبيك العاهرة ولأبيك أيضًا.

وتركها ومضى يتبادل النّكات السخيفة الوقحة مع بقية رفاقه الفاسدين.

وبينما كانت "هنا" تتّقد اليوم كشمس دافئة، تعمل بكلّ حماس ونشاط ، لم تفارق الابتسامة المنبعثة من أعماقها شفتيها المتوردتين، حتّى جاءتها رسالة صعقتها:

لقد أرسل لها الوغدُ صورها معه في أوضاعٍ فاضحة والتي لا تعلم عنها شيئًا، دارت الدّنيا بها حتّى سقطت مغشيًا عليها منْ هوْل الصدمة، ساعدها زملاؤها حتّى أفاقت، وعندما سألوها ماذا أصابها أخبرتهم بأنْ جاءها خبر مُفجع، ويجب أن ترحل فورًا، فتركت بقيّة حصصها لزملائها وغادرت لا تعرف أي طريق يسلكه الضائعون.

ذهبت إلى أمّها، ولم تعدْ إلى البيت، أغلقت على نفسها بابَ القهر والعجز، ماذا تقول، ماذا ستفعل، كيف ستواجه هذا الأمر البشع وحدها، كيف ستخبر وليد أم أنها لا تسطيع أن تخبره لأنّها حتمًا ستخبره بالسبب الذي جعل هذا الوغد الحقير يقوم بالانتقام منها بهذه الشيطانية، إنّ الأمر يتعلق بابنته، هل سيصدّقها؟ ربّما لو صدقها هو لن تصدّقها شيرين ولن يصدّقها أحد من الذين سيجلدونها بمجرّد أن تتسرب تلك الصّور الحقيرة إليهم، حتّى وهم يعرفون في قرارة أنفسهم دماثة أخلاقها وبراءتها مِن هذا الفعل المشين. انْهارت باكية ترجو الله وتحاول أن تجدَ بصيصَ أمل يخرجها من هذه الورطة دون أن تخسر كرامتها وهيبتها وحتمًا عملها، ووليد.

انتشر خبر إغماءتها بالمدرسة حتّى سمعته جومانة وآسر الذي انفجر ضاحكًا من ردّ الفعل الأوّل لهذه الضحية البائسة كما وصفها، نظرت إليه جومانة نظرة حقدٍ ثاقبة ثمّ همس لها بعدما حاول أن يتوقّف عن الضحك قائلًا:

_ هذه الضربة الأولى، لها وحدها، إن لم تحضري بالغد سوف تشاهد مصر كلّها هذه الصور المثيرة للمعلمة الفاضلة، أتخيّل منظر أبيك وهو يرى عهرَ زوجته مع شاب من عُمر أولادها، أظنّه لم يره منذ أن تزوّجها.

ـ لم أعلم قبل تلك اللحظة كم أنك وغدٌ حقير إلى هذا الحدّ يا آسر!!

ـ هذا جزائي إذًا لأنّني أحميك منها ومن فرض سيطرتها عليك؟

ـ أنت مَن تفعل هذا الشيء القذر لأنّك مريض، مهووس بالسادية والأذى.

ـ حسنًا حبيبتي، لا بأس، بعض الشرّ لا بدّ منه في هذه الحياة.

وانفجر ضاحكًا مرّة أخرى بهستيريا مخيفة.

اتّصلت جومانة بـ "هنا" على الفور لتخبرها الحقيقة، كانت "هنا" في أسوأ حالاتها وهي منهارة مشتّتة الفكر، ولكن اتّصال جومانة كان بداية الخيط لاستكشاف الحقيقة، فجومانة لا تتّصل بها أبدًا.

لم تردّ على الهاتف، لقد فزعت وقت رأت اتّصالها لأنّها أدركت حتمًا أنّ الوغد صديقها قد أخبرها، فالتزمت الصمت كمدًا وكرهًا.

لم تنمْ "هنا" ليلتها التي قضتها رعبًا ببيت أمّها، بينما تعجّبت شيرين لتأخّرها بالخارج حتّى أخبرتها سلمى على العشاء بالخبر الذي انتشر في الصفّ بإغمائها، تفاجأت شيرين ولكنّ الرهبة التي ضربت قلبها في تلك اللحظة هي أن تكون إغماءتها بسبب شيء تخشاه حدّ الموت، وأنْ تصبح أمًّا حقيقية في هذا السنّ اليائس لابن آخر لوليد.

بدأ الهاجس يتفاقم في أعماق شيرين حتى صار وحشًا ضاريًا بدأ يلتهم سلامها، والذي سوف يدفع المرض اللعين بانتهاز فرصة نفيسة للهجمة الشرسة بلا رحمة، حتّى أمسكت بهاتفها واتّصلت بها، لتقطع الشكّ باليقين..

فزعت "هنا" مرّة أخرى مجرّد ما رأت اتصالَ شيرين، وبدأ شبح الموت يقترب منها يخبرها بأنّ ابنتها جومانة ربّما أخبرتها بالفضيحة بعدما عرفتها من صديقها الوغد، كان

قلب "هنا" يخفق بعنف يزلزلها ماذا ستقول.. إنّها حقًا لا تعرف ماذا تقول وإلى أينَ المفر، فالموت في مثل هذه اللحظات هو المفرّ الآمن الرحيم.

لقد تلاعب بهما الشّيطان في لحظة هلع عظيمة، وكلّ واحدة منهما تظنّ أنّ الأخرى قد هزمتها شرّ الهزيمة. رافعة راية الانتصار فوق صرح الكبرياء الذي تحطم أمام الوهْم مهزومًا.

ولم تنمِ الزوجتان في تلك الليلة، كلّ منهما تنتظر المصير المجهول.

وفي الصباح لم تخرج "هنا" من غرفتها، حاولت شيرين الاتّصال مرّة أخرى من فرط القلق، ولكنها لم تجب، فلم تجد طريقة سوى أن ترسل لها رسالة تجسّ بها النبض وتستشف من الإجابة الأمر، وأخبرتها أنّ اليوم ميعاد جلستها وأنّها ستذهب للجلسة بمفردها..

وعندما قرأت "هنا" رسالة شيرين، تنفّست الصّعداء، ثمّ حسمت قرارًا عاجلًا.

ذهبت إلى المشفى لتلحق بشيرين في جلستها، لقد حان الوقت لتعرف شيرين عن أمر علاقة ابنتها بهذا الوغد الشيطان، الذي توحّش وبدأ في أذيّتها لتصمت عنه، وهذا هو أكبر دليل على أنّه ينوي إيذاء جومانة، فيتوجّب على أمّها أن تحميها معها حتّى يعود وليد وتخبره وقد رأت أنّ ذلك أفضل حلّ في هذا التوقيت قبل أن يفتضح الأمرُ أولًا على الملأ فلا يصدّقانها.

وبينما كانت تهرع داخل المشفى حيث غرفة شيرين مرّت من أمام غرفة سدرة ولمحها فارس وهي تتّجه إلى قاعة الانتظار من أمامهم ولم تلتفت إليهم، وظنّ فارس أنّ ثمّة حدثًا جللًا يحدث لها، لقد ظنّ أنّ الزوجة الأخرى تحتضر، فذهب خلفها يتعقب الأمر، فوجدها في قلق وترقّب تنظر للساعة في توتّر، فشيرين لم تصل بعد..

_ "هنا"، صباح الخير.

_صباح الخير أستاذ فارس.

قالتها بتشتّت وعدم انتباه واضح على عينيها الزائغتين.

_ أراك لست على ما يرام، هل أستطيع المساعدة إذا كان الأمر يبدو خطيرًا إلى هذا الحدّ؟

صمتت "هنا" صمتًا مريرًا:

_ هل الزّوجة الأخرى قد تدهورت حالتها أو أصابها مكروه؟

_لا أبدًا.

_إذًا لماذا أراك بهذا التوتر؟ هل يمكنني المساعدة؟

وبينما كانت "هنا" تشكره على عرض مساعدته جاءتها تلك الرّسالة التي قضت على ما تبقّى بها من مقاومة.. "جومانة اليوم معي، أيّتها المربية الفاضلة، ولن تستطيعي فعلَ شيء من الآن".

انْهمرت سحابة كثيفة من الدّموع الحارة، دموع العجز في الموقف العصيب..

_ "هنا"، لا يمكن أن أتركك بهذه الحالة، أرجوك أخبريني ما الأمر؟

قال فارس بطريقة حاسمة إنّه لن يتركها، فلم تجد بدًّا من أن تطلب منه مساعدة..

_ هناك طالب يبتزّ ابنة زوجي وهي زميلته بنفس الصفّ فيخضعها له.

_ بماذا يبتزّها؟

_ يوهمها بأنّه يحبّها و...

صمتت "هنا" وقد فقدت قدرتها على التركيز.

_ هل يبتزّها بصور فاضحة تقصدين؟

_نعم.

_لا بدّ من أن يتدخّل والدها فورًا، لماذا لم تخبريه؟

_ والدها بمؤتمر بالخارج، وأمّها ستأتي اليوم لتخضع لجلستها، وأنا لا أعلم ماذا أفعل، لقد أرسل لي الولد الحقير رسالة تهديد..

ثمّ قرأت له الرسالة.

_ ولماذا يراسلك؟ هل تعلمين بأمرهم؟

_ نعم، هدّدته باستدعاء ولي أمره، فانتقم بافتعال فضيحة.

_إنك أخطأت بالسّكوت عليه يا "هنا"، ولكن حسنًا اتركي لي هذا الأمر.. أعطني هاتفه، وهل يمكن أن نحصل على عنوانه؟

_أعرف عنوانه.

_حسنًا، سوف أقوم بمحاولة.

كانت "هنا" تتابع بقلق مُفرط، وقد بدأ فارس يتصرّف تصرفات جديّة للسيطرة على الوضع قبل تفاقمه، وقام بأجراء بعض المكالمات. ثمّ قال:

_ سوف أترك سدرة هُنا في رعاية الطاقم الطبي، وسأذهب معك إلى المدرسة الآن، بينما يذهب رجالي إلى بيت الولد، حتّى لا يهرب لقد أعطيتهم العنوان.

_الآن؟

_ إنْ لم نتحرّك الآن لن نضمن عواقب الأمر، يجب أن نهاجمه قبل أن يفكّر في ردّة فعل عشوائية تدمّر كلّ شيء.

وبينما أسرعا للخروج سويًّا من المشفى وصلت شيرين بسيارتها، وقد رأت "هنا" تستقلّ السيارة مع هذا الرجل فاندهشت لمجيئها الى المشفى لتخرج مع هذا الرجل

في غياب وليد، راودها الشكّ، ثمّة شيء غير طبيعي يحدث منذ الأمس، إنّها تتصرّف في غياب وليد تصرّفات غير مفهومة، ثمّ دخلت إلى جلستها بعد أن لحقتها رفيقتها لتبقى بجوارها.

وبينما بدأت شيرين تستعدّ لبدء جلستها الأخيرة من هذه المرحلة من العلاج، وهي شاردة في أمر "هنا" المبهم وتصرّفاتها الغامضة قالت لها علياء بحدّة:

_ لقد كانت الأخرى هُنا قبل قليل.

_ ماذا كانت تفعل؟

_ لا أدري، لقد رأيتها تجلس في قاعة الانتظار.

_وحدها؟

_ أظنّ أنّها كانت تتحدث مع أحدهم قبل أن تغادر.

_ أتعرفيه؟

_ لا أعرفه، ولكني رأيته من قبل هُنا بالمشفى، أظنّه يأتي دومًا سوف أتأكّد من أمره، ولكنْ يا شيرين إلى متى سوف تتحملين وجود هذه المرأة بحياتك، لا أستطيع أن أستوعب كيف تتحمّلينها وكيف استطعت أن تزوّجينها لزوجك برغبتك وأمام عينك!!

_ كلّ شيء سينتهي قريبًا جدًّا يا علياء.

_ لا أفهم كيف قبِلَ وليد هذا الوضع الغريب، حتّى وإن كان لإرضائك، كان يتحتّم عليه الرفض القاطع احترامًا للعشرة والحبّ بينكما والمحنة العصيبة التي تمرّون بها، وها أنت قد تماثلت للشفاء أخيرًا يا شيرين لتعود الحياة بينكما كما كانت، حقًّا لقد صدمني وليد بفعلته ولكنّه الآن عليه أن يطلقها.

_ هذا ما يجب أن يحدث لتصحيح الأوضاع، لقد كان ذلك خطأ فادحًا من البداية ندمت عليه أشدّ النّدم.

وفي السيارة كان فارس يجري اتّصالاته، ثمّ طلب من "هنا" أن تتّصل بالفتاة جومانة لتعرف كيف تجري الأمور.

_ صباح الخير ميس "هنا".

_ أهلًا جومانة، كيف حالك؟ هل لديك درس عند آسر اليوم؟

ارتبكت جومانة وتلعْثمت، ولم تعرف هل تخبرها بالحقيقة أم تلتزم الصمت، وكأنّها لا تعرف شيئًا خوفًا من آسر.

_ جومانة، لماذا تسكتين؟!

_ أظنني لن أذهب اليوم، ربما يلتغي الدّرس لا أعرف.

_ حتّى وإنْ لم يلتغي، لا تذهبي اليوم، أرجوك لا تذهبي اليوم.

_ ماذا هناك ميس "هنا"؟

_ سوف أشرح لك ولكنْ ليس الآن، تجنّبي آسر اليوم بأيّ طريقة، إنّي أرجوك يا جومانة.

_ حسنًا ميس "هنا" ولكن...

(قاطعتها "هنا"):

_ يجب أن أغلق الآن سوف أحادثك لاحقًا.

توتّرت جومانة كثيرًا فهي لم تفهم ما وراء كلام "هنا"، ماذا سيحدث لآسر؟ ولكن أيًّا كان ما سيحدث له فهو يستحقّه دون شك، والآن يجب أن أقوم بمحاولة أخيرة للإيقاع به قبل أن ينشر الفضيحة، ثمّ ذهبت إليه لتسأله:

_ آسر، هل تحدّثت إلى مستر بهاء؟

سألته جومانه قبل الانصراف.

_ لا، لماذا؟

_ لنعرف إن كان سيعطي الدّرس اليوم أم سيلغيه؟

_ أيّ درس يا حبيبتي، لا درس اليوم وأنت تعرفين ذلك.

_ هل حقًّا إن لم أحضر اليوم سوف ترسل صور ميس "هنا" المفبركة التي صمّمتها أنت ومازن إلى كلّ المدرسة وتتسبّب لها في الأذى ظلمًا؟

_ كلّ ذلك من أجلك يا حبيبتي، ومن أجل ألّا تلعب هذه الحمقاء معي، وتظنّ أنّها تستطيع أن تخيفني.

_ اسمعني يا آسر، لا ذنب لميس "هنا" أن تدفع هذا الثمن الغالي لعبثك من كرامتها، هذا ظلم، الجميع يعرف أنّها على خلق، ولن يصدقوا أبدًا أن هذه الصور حقيقية.

_ انظري، إنّها مصمّمة بجودة عالية واحترافية لا يمكن أبدًا أن تشعري أنها ليست حقيقية.

_ كيف فعلت ذلك؟

_ إنّني خبير ببرامج الإضافات والاختراقات، أنسيت ذلك؟

_إنّ هذه الصور حقًا تبدو طبيعية جدًّا ومقزّزة جدًّا.

_ أتخيّلني وأنا أبكي خجلًا أمام المدير وهو يسألني ماذا كانت تفعل بي هذه العجوز الشّمطاء بين ذراعيها، سأقول مصدومًا إنّها كانت تراودني عن نفسي، يا له من مشهد كوميدي.... (وانفجر ضاحكًا).

_ وإنْ سألك مَن الذي صوّر هذه الصور ببيتك؟

_ سأقول بكلّ بساطة إنّني تظاهرت بالانصياع إليها بعدما تكرّر هذا الأمر خوفًا منها كي تكفّ عني، بعدما هدّدتني وأنت شاهدة على ذلك ومازن أيضًا..

ثمّ انفجر مقهقهًا واستطرد:

_أتخيّل نفسي واقفًا في غرفة المدير بائسًا مسكينًا لا حول لي ولا قوة، سوف أتقن في هذا اليوم دورَ الفتاة المغتصبة، وهذه المدرّسة تلك الذئبة البشرية كادت أن تفتك بي، إنّه مشهد كوميدي رهيب، أودّ لو يصوره لي أحدهم.

_ماذا سيفعل أهلك إن شاهدوا تلك الصور؟

_سوف يرفعون قضية على المدرّسة ليسجنونها بحكم التعدّي على قاصر مثلي، ثمّ على المدْرسة، ثمّ يتحصّلون منها على التعويض المناسب لتتسوق به أمّي في محالّ الموضة بباريس.

وازدادت ضحكاته وقهقهاته انفجارًا حتّى كاد قلبه أن يتوقّف من فرط الضحك.

صمتت جومانة، ثمّ قال لها آسر بعد أن هدأت قهقهاته:

_ لو تخلّفتِ عن الموعد اليوم فلا تلومي إلّا نفسك.

_ حسنًا يا آسر لن أتخلّف، سوف أحضر فقط لأنقذ ميس "هنا" الطيبة مِن هذه الفضحية القذرة التي دبّرها وغدٌ مثلك.

_ شكرًا حبيبتي.

ثمّ تركته وعادت إلى مقعدها تحضّر حقيبتها لتنصرف، وأمسكت بهاتفها وهي تقول بنفسها بكلّ ثبات وارتياح: ها هو دليل براءة "هنا" وحمايتي منّك أيها الوغد القذر.

انتهى اليوم الدراسي، واستقلّت جومانة الحافلة، وخرج الوغد بسيارته، وكانت "هنا" وفارس بالسيارة بانتظارهم بالخارج، وبمجرد أن أشارت "هنا" لفارس عليه انطلق فارس للّحاق به حتّى ابتعد عن محيط المدرسة.

ثمّ طلب منها فارس الاتّصال به، واتّصلت به "هنا":

_ لن أغفر لك فعلتَك وجريمتك يا آسر، ماذا تريد مني لتفعل هذا الجرم؟

_ تعرفين ماذا أريد.

_ إنك مريض يا آسر، مريض ومثير للشفقة.

_حسنًا، اشفقي على حالك ميس "هنا" وقت تنتشر صورك المثيرة على هواتف المدرسة بأكملها، ومِن ثمّ على هاتف زوجك.

_لن يصدّقك أحدٌ يا آسر، إنّهم يعرفونني جيدًا ويعرفونك جيدًا، مجرّد شاب مدلّل فاسد، ولكني لم أتوقّع أن تكون شيطانًا إلى هذا الحدّ!.

أغلق آسر في وجهها الهاتف، في اللحظة التي اعترضه فيها فارس بسيارته، ثمّ أسرع فارس من السيارة وفتح باب سيارته وأمسك بالولد، واْنهال عليه ضربًا.

التقطت "هنا" أثناء المشاجرة تليفون آسر، كي لا يباغتهم ويتّصل بأحد يمكن أن يكون لديه تلك الصور، ثمّ أصرّ فارس على اصطحابه لقسم الشرطة أمام المارة الذين تجمّعوا وفهموا أنّها مشاجرة بسبب تهوّر القيادة.

وفي قسم الشرطة، وقبل أن يطلب آسر من الضابط أن يتّصل بأهله لأنّه قد سرق هاتفه أثناء الشّجار، تقدّمت "هنا" ببلاغ رسمي ضدّه بمحاولة ابتزازها بصورٍ مفبركة قام هذا الفتى بتنسيقها وإرسالها لها على هاتفها، وأنّه هدّدها وساومها بنشر هذه الصّور إن لم ترضخ لمطالبه، وأنّها مدرّسته بالمدرسة منذ وقت طويل، وتعلم سوءَ خلقه وقد

حذّرته مرارًا من أن يكفّ عن إيذاء زميلاته (ولم تستطع أن تذكر اسمَ جومانة خوفًا عليها) لذلك فهو ينتقم منها ببشاعة، وكلّ ما طلبته من الضابط أن يتحفّظ عليه وعلى أدواته حتّى لا يقوم بنشر هذه الصّور فتتسب لها بمأساة في عملها وبيتها.

فاستجاب الضابط وحرّر محضرًا بالواقعة وبشهادة فارس الذي شهد أنّه استمع إلى تهديد الولد لها، وتمّ التحفّظ على هاتف الفتى الذي سلمته "هنا" للضابط كدليل إدانة، كما قدّمت تسجيلًا للمحادثة الأخيرة.

كان فارس مصدومًا وهو يسمع لأوّل مرّة أنّ هذه الصور كانت لها وليست لابنة زوجها كما أخبرته، ثمّ نظر إلى آسر قائلًا باستنكار:

_يا لك من وغدٍ قذر!

وبالبيت.. كانت جومانة تحفظ الحوار الذي سجّلته مع آسر في هاتفها على الحاسوب خوفًا من ضياعه، بينما اجتمعوا على الغداء بعد عودة شيرين من المشفى، والتي مازال الشكّ يساورها تجاه "هنا" فسألت سلمى:

_هل رأيت "هنا" اليوم؟

_ لا، لقد تغيّبت.

_إنّها لا تردّ على هاتفها منذ الأمس.

قالت جومانة وتعجّبت شيرين من مبادرة جومانة للاتّصال بها مجدّدًا رغم أنّها لا تحتمل سماع اسمها، ثمّ قالت بهدوء:

_ لماذا تتّصلين بها؟

_ يقولون بالمدْرسة إنّها مريضة.

_ لا تتّصلي بها، لا داعي لذلك.

انفعلت شيرين رغمًا عنها، وقد بدأت تلاحظ بداية اهتمام من أولادها أصبحت لا تحتمله.

لقد بدأت حرب استرداد الأنثى مملكتها؛ زوجها وأولادها من براثن الأنثى الأخرى التي لا تمتّ لهم بصلة، لم تتعب وتنجب وتسهر وتربّي، لم تمنح شبابها وحياتها لهم ثمّ تأتي لتأخذهم منها بلا جهد ولا عناء، لا تستطيع الأنثى الأمّ أن تعيش ألم الفقد رغم أنّها لم ترحل عنهم ولم يرحلوا، ولكنْ لمجرّد أنّ أخرى شاركتها فيهم، وعندما تحارب الأنثى من أجل ألّا تفقد مملكتها بكلّ طاقتها، بقلب ينبض كلّ الحب رغم الألم، فإنّها لن يهزمها شيء لاستعادتهم إلّا الموت.

تعجّبت جومانة من ردّة فعل أمّها الغاضبة، فظلّت ملتزمة الصمت وبعد ساعات من التفكير العميق، قرّرت جومانة أن ترسل لآسر رسالة بالتسجيل الذي سجّلته لحوارهما اليوم، كي لا ينتقم منها بعدم ذهابها إليه بنشر صور "هنا" كما توعّد، ولكنّها تراجعت لقد خافت أن يكون لديه صور لها هي الأخرى، ثمّ اهتدت لأن تتّصل بـ "هنا" لتحذّرها وترسل لها هذا التسجيل لتحتاط به.

واتّصلت بـ "هنا" التي كانت تمكثُ بقسم الشرطة بينما تركها فارس ليعود ليأخذ سدرة من المشفى إلى البيت ثمّ يعود ليستكمل وقفته بجانب "هناط بعد أن تحدّث مع نفوذ له لإخفاء نشر هذه الواقعة حرصًا على كرامتها وكرامة زوجها الطبيب المعروف.

_ نعم جومانة. (أجابت "هناط الاتصال).

_ ميس "هنا"، أين أنت؟

_ ماذا هناك؟

_ لم أذهب إلى بيت آسر، وددت أن أخبرك بذلك، وأودّ أن أخبرك أيضًا بشيء هام..

_ ما هو؟

_آسر يعتزم أذيّتك بنشر صور فاضحة التقطها لكِ يوم كنّا عنده.

انتفضت "هنا" من مقعدها، إنّها لم تتصوّر أن تكون جومانة على علم بالأمر منذ بدايته، وهي بكلّ هذه السذاجة عرّضت نفسها للخطر لتحميها من الخطر. كانت في ذهول وهي تنصتُ لها إنصاتًا تامًّا، حتّى قالت جومانة في نهاية حوارها:

_ لقد سجّلت له حوارًا اليوم يعترف فيه أنّه قد دبّر هذه المكيدة لك وفبرك هذه الصّور لأذيتك وودتُ أن أرسله إليك، ولكني أخشى أن يؤذيني.

_ اطمئنّي لن يؤذيك، إنّه بقسم الشرطة وأنا معه.

_ بقسم الشرطة!!؟

_ نعم لقد حرّرت ضدّه محضرًا بسبب تلك الصور، أرسلي لي هذا التسجيل ضروري، فذلك دليلٌ قاطع على جريمته ونجاتي مِن هذه المكيدة.

قفزت جومانة من مكانها فرحًا، وكأنّ كلّ الهمّ الذي حملته على عاتقها قد زال في ثوان، ثمّ سألتها في أي قسم شرطة..

_ لا تأتي يا جومانة، فقط أرسلي لي تسجيل المحادثة، لا أريد أنْ يزجّ اسمك في هذه القضية.

_ميس "هنا"، إنك مازلت تحميني رغم الأذى الذي تسبّبت لك فيه؟

_ لا وقت لهذا الكلام، أرسلي لي التسجيل فحسب، وسوف أقوم بإثباته في المحضر وإنْ كان هناك مَن يعرف بقصة هذه الصور غيرك وغير هذا الوغد أخبريني عنه.

_ يجب أن أحضر لك الوغد الآخر إلى الشرطة.

ـ مَن يكون؟

ـ إنّه مازن.

ـ لا تفعلي أي شيء حتّى أتّصل بك مرّة أخرى.

وبعد أن سلّمت التسجيل كدليل إدانة للفتى ودليل قاطع على براءتها أخبرت فارس عند عودته بما حدث، ثمّ قال لها:

ـ ربّما يبيت هذا الوغد النيّة في إيذاء البنت، بعد أن كشفت أمره.

ـ وماذا سنفعل؟

ـ اتّصلي بها، سوف أخبرها ماذا سوف تفعل.

وتحدّث فارس إلى جومانة بعدما اتّصلت بها "هنا" من هاتفها:

ـ اسمعي جومانة، نفّذي ما سأقوله لك حرفيًّا، تتّصلين بمازن، تخبرينه أنّ آسر بقسم الشّرطة في مشاجرة مرورية وقد سرق هاتفه، ولا يستطيع أن يتّصل بأهله، وإنْ سألك كيف عرفتِ أخبريه بأنه لا وقت للشرح، ويجب أن تذهبا معًا إلى القسم لإعطائه هاتفًا، ولتشهدا أنّه لا يقود السيارة وإنّما قادها اليوم لغياب السّائق، فينقذه ذلك من الحبس وينتهي الأمر بغرامة لأنّه يقود بدون رخصة حتّى يتصرف محاميه وعائلته.

ـ حسنًا سأفعل.

ـ وإنْ رفض أو تردّد كوني حاسمة، وأخبريه أنك ستذهبين بمفردك، وأنه ليس بصديق في وقت الشدّة.

ـ حسنًا سأقوم بذلك.

ـنحن في انتظارك.

وخرجت جومانة بعدما أخبرت أمّها أنها ذاهبة إلى الدرس، وقابلها مازن على مضض وذهبا معًا كي لا يتركا صديقهما وحيدًا، وبمجرّد أنْ دخلت جومانة ومازن القسم لم تتمهّل جومانة وقالت قبل أن ينطق أحدٌ من الحضور:

_هذا الوغد كان يبتزّ ميس "هنا" بصور زائفة قام بتصويرها هذا الوغد الآخر، والذي يملك الكاميرا التي عليها الصّور الأصلية، وإنّي مَن سجلت له هذا الاعتراف لأثبت براءة ميس "هنا" لأنه كان يحاول ابتزازي.

بدأ مازن يصرخ هلعًا بعد أنْ أدرك أنّه فخ بمجرّد أن رأى "هنا" أمامه..

_إنّك كاذبة، إنّك تدارين على علاقتك بآسر.

ثمّ جاء آسر من الحجز متفاجئًا بوجود جومانة ومازن فقال صارخًا: لم أفعل ذلك وحدي، إنّهم يعلمون وهو مَن قام بالتصوير، وهي مَن قامت باستدراج ميس "هنا".

واعترفوا على بعضهم البعض، فانْهارت جومانة بكاءً وخوفًا وندمًا، وانهار الفتيان.

وبعد عدّة ساعات أُخر، كان يمرّ الوقت فيهم زاحفًا كالظلام، كان والد مازن ووالد آسر يتوسّلان لـ "هنا" أن تتنازل عن المحضر، وألّا تتسبّب في ضياع مستقبل الأولاد، لأنّهم طائشون ولكنّهم ضعفاء، وسوف يردّون لها التعويض الذي يناسبها ويرضيها، ثمّ قالت لهم "هنا" بحسم وهي ترى بكاءهم كالأطفال:

_لقد علّمتكم ذاتَ يوم معنى قيمة الذّات، فلم تجعلوا لأنفسكم قيمة، علّمتكم معنى احترام النفس فلم تحترموا ذاتكم ولم تحترموا أحدًا، لم أندم على ما زرعته فيكم من أخلاق لم تعرفوها ببيوتكم، ولكنّي اكتشفت أنّني زرعت الأرض البور التي لا تطرح إلّا أشواكًا سامّة لا تثمر إلّا عطنًا وسوادًا، لقد ندمت أشدّ النّدم أنني وثقت بكلامكم كالرّجال وأنتم غير مؤهّلين أن تكونوا رجالًا، لا تحفظون عهودًا ولا تسترون

أنفسكم وتجمحون بالفساد الذي يمنحكم الشعور الواهي بالقوة الزائفة لأذى الغير لأنكم ضعفاء بائسون، سوف أترككم كي تراجعوا أنفسكم، لعلّ هذا الدرس يعلّمكم كم أنتم صغارٌ بأفعالكم، وكم يظلّ الإنسان ذو القيمة والسيرة الحسنة عاليًا وكبيرًا.

ثمّ أخذت تعهّدًا عليهم بعدم التعرّض لها ولا لجومانة، وإلّا ستكون العقوبة مشدّدة، وتمّ التحفّظ على هواتفهم والكاميرا، وتمّ الإفراج عنهم بضمان ذويهم الذين عرفوا مدى الكارثة التي وصل إليها أبناؤهم المراهقون المهملون، إلّا جومانة فقد ضمنتها "هناط بصفتها زوجةً لأبيها.

الحقّ دومًا ينتصر على الباطل في النهاية، مهْما علا الباطل وساد عندما يكون الإنسان نقيًّا من الداخل وعلى يقين بأنّ الله أبدًا لن يخذله ولن يضيّعه مهما اشتدت ظلمة الظلم ووحشة الباطل.

خرجت جومانة مع "هنا" ومع فارس وهي منهارة تمامًا، لا تصدّق أنّ كلّ ذلك قد حدث، ولم تعرف ماذا تقول لـ "هنا" بعدما أنقذتها من مصيبة كبرى.

احتضنتها "هنا" رغم الألم لأنّها لم تتوقّع أن تكون ابنة حبيبها وابنة شيرين الأمّ الصّالحة التي لم تقصّر يومًا في رعايتها قد وصل بها الحال إلى هذا التمرّد الذي أفقدها اتّزانها، تنفيثًا عن انشغال أبويها عنها بما يحملانه من مصاب لا تعرفه، فأشفقت عليها.

ثمّ شكرت فارس على وقفته النبيلة معها في هذا الموقف العصيب، واعتذرت له لأنّه ترك عمله وابنته ولم يتركها، فقال لها: المهمّ الآن أنكما بخير.. فأوصلهما وانطلق.

دخلت "هنا" وجومانة إلى البيت، وصعدت "هنا" إلى طابقها حيث أنّ ما مرّت به خلال هذين اليومين كان كافيًا ليدمّر أعصاب مدينة كاملة، فدخلت في سُبات عميق لم تشعر بعده بشيء.

مَن أنتِ؟

مَن رماك في طريقي؟

مَن حرّك المياه في جذوري؟

وكان قلبي قبل أن تلوحي

مقبرةً ميتة الزهور

وقبيل الفجر الجديد، عاد وليد من سفرته، وصعد إلى غرفة شيرين التي فرحت بعودته سالمًا، بينما هو كان يبدو منشغلًا أكثر ممّا كان يبدو مرهقًا، فوضع حقائبه ثمّ فتح واحدة وأخرج منها حقيبة صغيرة مليئة بالشيكولاتة قائلًا لشيرين ارتاحي أنت سوف أذهب لأتفقّد الأولاد وأضع لهم الشيكولاتة بجوارهم حتّى الصباح، لقد أخبرها بذلك لأنّه كان يشتاق لرؤية "هنا" التي لم تردّ على هاتفه منذ أيام.

هكذا يفعل بنا الشّوق في الغياب، يجرفنا، يعبث بنا، يلقينا تارة بين خفقات العشق وتارة بين الظنون التي تطفئها اللهفة في اللقاء.

دخل وليد إلى غرفة "هنا" التي كانت فاقدةً للوعي ولا تشعر بشيء حولها، ناداها فلم تردّ، حاول أن يوقظها فلم تستجب، فطبع قبلةً رقيقة على خدّها وجبينها، ثمّ وضع بجوارها الشيكولاتة وكتب ورقة عليها "اشتقت إليكِ" ثمّ تركها لأحلامها، وعاد هو إلى موطنه الأوّل الذي يكون دومًا في انتظاره.

إلى الآن لا تفهم الأنثى كيف يمكن أن يهوى الرّجل امرأتين في آنٍ واحد؟ إنّه أمر ضدّ فطرتها، ولكنّ أغلب الرجال يجزمون بأنّ ذلك يحدث.. لَمَ يحدث ؟ وكيف يحدث؟ إنّهم يجزمون أنّه فقط يحدث فحسب، بلا تفسير ولا منطق؛ يحدث قدرًا.

أمّا بعض الرجال الآخرين ينكرونه، فكلّ رجلٍ له قدره وطباعه وله عقله الذي يتحكم في قراراته واختياراته، ولكن إذا ما أخفق قلب الرجل بالحبّ لامرأة أو أكثر، مهما ادّعى مِن تجاهل ومهْما أنكر؛ لن يستطيع أن يمنع ذلك الخفقان، فإمّا أن يهرب من الوهج الجديد الذي خفق له قلبه بكلّ قوته، وإمّا أن يبوح به إنْ فاق حدود احتماله ولم يستطع كتمانه دون أن يفكّر بالعقل والمنطق، إنّما الأنثى فلا يخفق قلبُها إلّا لرجل واحد حين تشعر معه الأمان، لا تمنح قلبها كاملًا إلّا مرّة واحدة حتّى وإن تعدّد مرور

طيف الحبّ على قلبها باختلاف الظروف والزمان، فلم يحدث أبدًا أن تعشق امرأةٌ رجلين في آنٍ واحد، وبمجرّد ما أنْ تعشق المرأة رجلًا بعينه فإنّها لا ترى سواه وتسكنه وحده قلبها وتقبله بكلّ عيوبه قبل ميزاته ولا تنساه أبدًا مهْما دار الزمان وأنّها تدرك على الفور أنّ ما كان سواه لم يكن حقيقيًّا، بل كان محاولات للبحث عن الحبّ الحقيقي الذي يعني لها فقط شعور "الأمان".

استيقظت شيرين وكان وليد بجوارها نائمًا منهكًا منذ عودته، ثمّ تركته ليأخذ قسطه من الرّاحة، وخرجت بنشاطٍ وحماس تودّع بناتها، واستيقظت "هنا" لتجد الشيكولاتة والكلمة التي أدخلت على قلبها السّرور بجوارها، فابتسمت بفرح وخرجت هي الأخرى بنشاط غير عادي عندما عاد الوهج يضيء روحَها من جديد، وتقابلت الزّوجتان على طاولة الفطور بعد غياب أيام وكأنّهما يريان في بعضهما نفس الإشراقة، ربّما لم تفهم كلّ منهما مغزى هذه الإشراقة التي تنبعث من الأخرى، ولكن ما فعلته جومانة في الصّباح كان صادمًا لأمّها شيرين بكلّ المقاييس، حيث قبّلتها ثمّ قبّلت "هنا" قبلةً عميقة على خدّها لم تفهم شيرين مقصدها، ابتسمت "هنا" ابتسامة ساحرة ممّا أشعل الفضول والقلق في نفس شيرين، ولم تستطع السيطرة على توتّرها، ثمّ قالت لـ "هنا" بنبرةٍ حادّة مليئة بشيء من الترقّب:

_ هل أصبحت على ما يرام؟

_ إنّي أفضل اليوم.

_ هذا ما جعلك تبقين عند أمّك، ولا تردّين على الهاتف؟

_ كنت بحاجة إلى الراحة.

_ سمعت أنّك غميت بالمدرسة ألم تذهبي لطبيب؟

_ لم يكن الأمر يستدعي.

كانت "هنا" تجيب بهدوء لأنّها فطنت أنّ شيرين تشعر أنّ هناك شيئًا ما لا تعرفه، وهي لم تقرّر بعد أن تحكي لها ما حدث مع ابنتها ومعها، على الأقلّ في ذلك الوقت قبل أن تخبر وليد بنفسها أولًا.

ـ حسنًا، يمكنك اليوم المرور عند أمّك والبقاء معها طيلة اليوم، فوليد سيقضي اليوم بالمنزل معي حتّى ميعاد عيادته، لقد عاد إليّ فجرًا منهكًا من السّفر.

نزلت الكلمة على أذن "هنا" كالصاعقة، ثمّ خففت حدّتها بابتسامة ولم تجبها، وقامت لتغادر إلى عملها بنفس الابتسامة.

كانت جومانة وسلمى يشاهدان تحوّل طريقة أمّهما في الكلام مع "هنا" إلى العنف والضّجر، وكأنّها بدأت تمرّر لها رسالة أنّها لم تعدْ مرغوبة بينهم، ولكنّ جومانة شعرت بأسى مِن تصرّف أمّها بشكل فجّ بعضَ الشيء ألمها هي. فميس "هنا" أصبحت بطلة بالنسبة لها منذ الأمس.

غادرت جومانة بوجوم دون أي كلمة هي وسلمى..

لم يهدأ خفقان قلبِ شيرين بعدما رأت ابتسامة النّصر تعتلي وجه "هنا" بعدما قبّلتها جومانة، لقد بدأت تتغلغل مجددًا إلى قلب الأولاد، وهذا هو الخطر الأكبر.

استيقظ وليد، وكانت شيرين تجلس بجواره تفكّر في أمرٍ ما، وبمجرد أن أفاق، حسمت الأمر وقالت:

ـ وليد، صباح الخير.

ـ صباح الخير شيرين، كم الساعة؟

ـ الثامنة، هل ستخرج اليوم؟

ـ نعم، عندي محاضرة، ثمّ عمليات وسأنتهي من العيادة باكرًا لأنّني لن أصمد إلى آخر اليوم.

_أريد أنْ نتناول العشاء معًا اليوم في مكان هادئ، منذ متي ولم نقضِ بعض الوقت وحدنا، اشتقت إليك كثيرًا.

كان وليد صامتًا وكأنّ آماله التي بات يرسمها ويحلم بها منذ عودته أن تكون تلك الليلة مع "هنا" قد تبدّدت وذهبت مع الريح. ثمّ قال بهدوء:

_ ولكنّي أودّ الانتهاء من العمل مبكرًا لأنّني متعب، ولكن لا بأس سوف أهاتفك لنقرّر ذلك لاحقًا.

_الأولاد لديهم تمرين بالنادي ودروس، فاليوم كلّه لنا.

قالت شيرين متجاهلة تمامًا أن تنطق شيئًا عن "هنا".

_ حسنًا، الأمر لا علاقة له بالأولاد، قدر ما له علاقة بطاقتي، دعينا نحسمه لاحقًا.

_ "هنا" سوف تقضي اليوم أيضًا عند أمّها كما قضت الأيّام الماضية ولم أرها إلّا اليوم، ربما قد عادت قبل عودتك.

_ ألم تكن "هنا" بالبيت خلال الأيام الماضية؟

_ ألم تخبرك أنّها كانت عند أمّها، إنّها كانت تخرج ولا تخبر أحدًا، ثمّ عادت الليلة الماضية متأخّرة، وصعدت لطابقها دون أن تقول شيئًا.

_هل حدث شيء لا أعرفه؟

_ لا.. أبدًا، لم يحدث شيء، ظننت أن تكون قد أخبرتك هي بذلك، إنّي فقط أخبرك بما حدث بالبيت في غيابك فحسب، حتّى أنّ سلمى أخبرتنى أنّها كانت متغيبة عن المدْرسة.

توجّس وليد من طريقة شيرين الغامضة في الكلام التي أوحت بثمّة شيء ما مبهم تحاول إخفاءه بين السّطور، فسألها منتبهًا:

_لماذا؟

_لا أعرف، حاولت الاتّصال بها يوم جلستي، ولكنّها لم تردّ الاتّصال، والغريب أنني ذهبت إلى الجلسة وحدي فوجدتها بالمشفى، دون أن تمرّ لعندي.

_ احكِ لي بالترتيب وبوضوح يا شيرين، أنا لا أفهم شيئًا من هذا الكلام.

_ لا عليك وليد، أنت متعب اليوم ليست "هنا" بالشيء المهمّ الذي لا بدّ أن نضيّع وقتنا في الحديث عنها.

تجاهل وليد طريقتها التي رآها سخيفة في تقليل شأن "هنا" ثمّ استكمل كلامه بطريقة جادّة:

_ لماذا لم تحضر معك الجلسة؟ ولماذا جاءت إلى المشفى إذًا؟ ولماذا تغيّبت عن المدْرسة وبقيت عند أمّها؟ هل هي مريضة؟ أخبريني حقيقة الأمر.

بدأ بركانُ الغضب يتأجّج سريعًا من أعماق شيرين التي رأت كلّ هذه اللهفة في عينيه من أجل امرأة أخرى في لحظة لم تستطع احتمالها، فانفجر البركان:

_ ماذا دهاك!! لماذا تتلهّف عليها هكذا؟ هل هي بتلك الأهمية التي تجعلك شغوفًا بها وقلقًا عليها لهذه الدرجة!؟

_ أجيبيني يا شيرين، ما الذي تخفينه عنّي؟

_لا أخفي عنك شيئًا، اسألها هي ماذا تخفي، لقد رأيتها تخرج من المشفى مع رجل استقلّت معه سيارته، هذا ما شاهدته بالأمس وقد تغيّبت عن البيت بضعة أيام منذ سفرك، ولا أعرف مَن يكون الرجل، ولا إلى أين ذهبت معه.

اكفهرّ وجْه وليد بالغضب، ولم يستجبْ لنداء شيرين التي لم تستطع السيطرة على انفعالها من فرط الغضب، وخرج من البيت محترقًا ككرة لهبٍ تلتهم كلّ شيء في طريقها.

واتّصل على الفور بـ "هنا" فلم تجبْه، وأرسلت له تبلغه أنّها بالدّرس، وستهاتفه فور الانتهاء، ثمّ اتّصل بأمّها ليفهم منها إن كانت "هنا" مريضة، فأخبرته أنها كانت عندها منذ أيام وأنّها بخير.

فما كان هناك بدّ غير الانتظار، وما أصعب لحظات الانتظار على قلب العاشق المحترق بنيران التوجّس والغيرة ينتظر الأمل في كلمة واحدة تأتي إليه من قلب الحبيب كالسيل البارد على قلبه تثلجه وتطمئنه وتسعده.

لم تهدأ عاصفة الغضب بأعماق وليد، وأصبح ينفعل على كلّ مَن يعترض طريقه في هذا اليوم، وبينما كان يجلس شاردًا بمكتبه يفكّر في مَن يكون الرجل، وماذا تعرف شيرين وتخفيه بين طيّات هذه الكلمات الغامضة التي تخفي وراءها سرًّا أو حقيقة مُرّة..

"لا.. لا.. أرجو أن تخيب ظنوني، أرجو ألّا يكون هذا الفارس وابنته" قال الهاتف بالأعماق لقلب وليد المتأجج ألمًا ورجاءً.

دخل يوسف مرحّبًا بوليد بعد عودته فوجده على هذا الوجوم فقال:

_ ما الأمر؟ يجب أن تكون اليوم أسعد رجل في العالم.

_ ما المناسبة؟

_ لقد تحسّنت نتائج فحص شيرين الأخيرة بشكل هائل، مررت عليها بالأمس بعد انتهاء جلستها وتحدّثت مع الطبيب المعالج، وأخبرنا أنّ الورم استجاب للتقلص بصورة مذهلة ممّا يمكننا الآن من القيام بعملية تجميده واستئصاله، والأمل كبير في تلك المرّة ألّا يعود.

_ حسنًا أتمنّى ذلك، ولم يُبدِ وليد انفعالًا ملائمًا لحجم الخبر ممّا زاد من قلق يوسف فسأله عمّا به.

ـ هل رأيت "هنا" بالأمس في المشفى مع شيرين؟ (سأله وليد بترقّب)

ـ لا، لم أرها، لماذا؟

ثمّ حكى له ما قالته شيرين فتأسّف يوسف محاولًا تهدئته:

ـ ربّما شيرين لا تقصد سوءًا، ربما حكت لك فقط ما رأته.

ـلا يا يوسف، إني أعرف شيرين، وممّا زاد توجسي هو أنّ "هنا" بالفعل لم تكن تجيب اتّصالي مرارًا في الأيام الماضية، ثمّة شيء غريب لا أفهمه، بل وأخشاه.

ـ ما الذي تخشاه يا وليد؟

ـ لا أعرف.

ـ بل تعرف، إنّك تخشى ضياعها منّك، هذا هو الأمر الذي تخشاه، لقد أحببتها يا وليد.

ـ الأمر الآن لا يتعلّق بالحبّ، إنّه يتعلّق بكرامتي كرجل، قل لي كيف سيكون موقفك إنْ سمعت هذا الكلام عن غادة مِن شيرين أو منّي مثلًا؟

ـ سوف يساورني القلق بالطبع، ولكنّي سأسال غادة عن الأمر، ولن أكون بكلّ هذا الحزن الذي أراه على اقتضاب وجهك أيّها العاشق المحظوظ بحبّ امرأتين.

ـ لا أفيق لسخافتك يا يوسف.

ـ قلت لك اتّصل بها أو اذهب إليها وافْهم منها، أمّا شيرين ربّما قد خانها تعبيرها الممتزج بغيرة الأنثى فتفاقم بهذا الشكل، لا تلمْ عليها، إنّه شيء خارج عن إرادتها فليس سهلًا أن ترى زوجها يقع في حبّ امرأة أخرى أمام عينيها وفي هذه الظروف التي هي فيها في أضعف حالاتها، وفي أشدّ الحاجة إليك، وتنتظر منها أن تتظاهر بالتسامح!

_ هل حقًا أحببتها؟ أم أنّني اعتدتها لمجرّد أنها أصبحت جزءًا هامًّا من حياتي؟

_ مَن تقصد منهما؟

_ إنّي مشتّت لا أعرف تفسيرًا لذلك الشعور الذي يتملكني ولم أشعره من قبل.

_ إنّك تحبّهما معًا، لا تتجاهل شعورك يا وليد، هذا هو سبب الصراع بداخلك، ولكن عن قلقك وغيرتك على "هنا" بكلّ هذا الحزن، انظر إلى حالتك وستعرف أنّك أحببتها بجنون، حاول أن تفهم منها الأمر، واسعد من أجل شفاء شيرين أيضًا، أيّها الهارون الرّشيدي المحظوظ.

_ لا أطيق صبرًا لأن ألتقيها بالمنزل.

وطار وليد يركض خلف قلبِه المضطرب كي يتبين الحقيقة التي ستقطع هذا الشكّ القاتل باليقين.. وانتظرها على باب المدرسة، حيث تفاجأت به وتفاجئ الأولاد، لقد اضطربت جومانه بمجرّد رؤيته واندهشت سلمى التي قبّلته شكرًا على الشيكولاتة التي تركها بجوارها على وسادتها ليلًا، ثمّ سألته:

_هل جئت لتصحبنا إلى البيت يا أبي؟

_ لا يا حبيبتي، جئت لأصطحب ميس "هنا" فقط.

_إلى أين؟ (قالت "هنا" باندهاش تامّ).

_ إلى أمّك، ألست ذاهبة اليوم أيضًا إليها!؟

كانت طريقته جديّة في الكلام رغم افتعاله سببًا لدرجة أنّ جومانة ظنّت أنّ الخبر قد وصل إليه، ولكن "هنا" قد أنهت الموقف بحسم حين استقلّت السيارة.

انطلقت السيارة بعد أن ودّع وليد ابنتيه اللتين استقلتا الحافلة المدرسية.

ظلّت "هنا" صامتة في توجّس، وكان وليد يختلس النظر إليها بشوق حزين، ثمّ قال من بين جمود ملامحه:

_ مختطفة أنت.

ابتسمت "هنا" فرحًا وقالت:

_إلى أين؟

_ إلى القمر.

_ ومتى سنعود؟

_ طالما أنّك معي لن نعود.

ثمّ أمسك بيديها وقبّلها بلطف وشوق، وشعرت من بين القبلات حرارة أنفاسه المتوهّجة، فألقت برأسها على كتفه متشبّثة بيديه قائلة بحبّ:

_ كم أعشق جنونك يا وليد!

_ أنا الآن في لحظات الجنون البهي.

ثمّ وصلا إلى باخرة ساحرة على النيل، ثمّ سألها: ما أكلتك المفضلة؟ ضحكت ثمّ قالت:

_الملوخية، أعتقد أننا لن نجد رائحة ملوخية بهذا المكان الفخم، لذا علينا أن نغادره.

_ تعرفين أنّها أكلتي المفضّلة أيضًا!!

_لا.. لم أكن أعرف، إنّي أشتهيها الآن من يدي أمّي.

_ ها نحن نعرف بعضنا عن قرب في كلّ يوم، ويبدو أننا نتشابه في أمور كثيرة أساسية.

_ شيرين قالت إنّك ستمضي اليوم معها بالبيت، وكنت سأذهب بالفعل إلى أمّي، ما الذي جاء بك إلى المدرسة؟

_ شيرين قالت ذلك؟

توتّرت "هنا" قليلًا، وتلعثمت حينما أدركت أنّ الأمر كان من نسج خيال شيرين فقط، ثمّ قال:

_ ماذا حدث باليومين الماضيين يا "هنا"؟

_ عمّ تتحدّث؟

قالتها وهي تحاول تهدئة خفقات قلبها المتصارعة خوفًا وترقبًا.

_ سألتكِ سؤالًا، وأنتظر الإجابة.

***

كانت جومانة تشرد طوالَ الطريق يقتلها الفضول، لماذا استفرد أبوها بميس "هنا"؟ يبدو أنّه يعلم شيئًا، ولكن مَن أخبره؟ يستحيل أن تكون ميس "هنا" قد أخبرته، ثمّ وصلت إلى البيت، بينما كانت شيرين تستقبلهم أخبرتها سلمى بأنّ أباها قد مرّ على المدرسة ليأخذ ميس "هنا" معه.

انقبض قلبُ شيرين، وكانت على وشكِ البكاء بعد مرور تلك الغيمة القاسية على عينيها، ثمّ سألت سلمى عن السبب فأخبرتها أنّهما ذاهبان معًا لأمّها كما قال أبوها.

أغلقت شيرين على نفسها بابَ غرفتها كي ينفطر قلبُها الممزق في صمت، لقد وقع ما لم يكنْ في حسبانها، وقع بينهما ما كانت تخشاه من حبّ تسلّل خلسة من قلب أخرى إلى قلب زوجها، ثمّ قالت في أعماقها بحسم، لن تسلبك منّي يا وليد ولن تسلب منّي أولادي، فإنّي لن أستسلم للموت أبدًا، وسوف أحيا فقط من أجل أن أهزمها

وأستعيدك، فمعركتها معي خاسرة.

كان وليد بفطنته وذكائه الحادّ يلحظ علامات الاضطراب والتهرّب على وجه "هنا" التي حاولت أن تجد إجابة غير الحقيقة لتجيبه بها في هذه اللحظة لتخرج من هذا المأزق:

_ هل كان ذلك سؤالًا بالغ الصعوبة إلى هذه الدرجة ليحتاج كلّ هذا التفكير العميق؟ (سألها وليد مرتقبًا)

_ لا أبدًا، ولكني أشعر أنّ ثمّة شيئًا لا أفهمه وراء ذلك السؤال.

_ لا شيء، فقط أطمئنّ عليك، أوليس ذلك من حقّي؟!

_ بل من حقّك.

_ لماذا لم تردّي على اتّصالاتي إذًا في الأيام الماضية؟ ما الذي شغلك عني وأنا الذي كنت أركض بعد محاضرات المؤتمر وأترك تجمّعات الأصدقاء كي أتّصل بك لأسمع صوتك بشغف، وقد اشتقت إليك ولم تشتاقي إليّ؟

_ كنت مريضة، غميت بالمدرسة واحتجت للراحة.

_ لذلك ذهبتِ إلى نفس المشفى في يوم جلسة شيرين ولم تكوني معها؟

لقد صفعها وليد بهذه الكلمة صفعةً أطاحت بكلّ ترتيب لإخفاء الأمر أكثر من ذلك، لقد فطنت إلى أنّ شيرين قد رأتها، وأبلغته، وبدأت حربها ولكنّها عجزت أن تنطق لتشرح له ما حدث، فالتزمت الصمت.

بدأ غضبُ وليد يتفاقم وهو يحاول كظمَه جاهدًا، منتظرًا إجابة تشفيه، ولم تستطع "هنا" أن تحتمل نظراته الثاقبة الحانقة التي تحمل سهام الشكّ القاتل لقلبها الشغوف به أكثر من ذلك، وفي لحظة عفوية غير مبررة نهضت لتغادر المكان.

أمسك وليد بيديها بقوّة آلَمَتْها، ثمّ قال بنبرةٍ تكسوها الحدّة محاولًا السيطرة عليها كي لا يسمع المكان دويّها:

ـ مَن الرجل الذي خرجتِ معه من المشفى، أكان فارسك المتيّم، أليس كذلك؟

ـ اترك يدي من فضلك.

ـ أترك يدكِ؟ الآن أترك يدك؟ تلك اليد التي تشبّثتِ بها بقوّة الآن تتركينها.. من أجله؟

ـ إنّك تهينني، اتركني.

ـ الآن تقتلين باكورة الحبّ الذي لا تستحقّينه، ولكنني لن أتركك له، لتعي ذلك جيدًا، لست ذلك الضعيف الذي تسمحين لنفسك في غيابه أن تتلاعبي بقلبه وكرامته.

ـ اترك يدي.

تركها وليد بصعوبة في لحظةٍ تمنّى ألّا تتركه يداها، ولكنّها تركت، تركته وحيدًا، بيد تطبق على سراب، عطشة بعد ارتواء، سيقتلها الجفاء.. لماذا لا نستطيع أن نمسك بيدِ مَن نحبّ بأقصى قوّتنا في أشدّ الأوقات التي نتمنّى فيها ألّا تتركنا هذه اليد أبدًا.

لم تعدْ "هنا" إلى البيت وذهبت إلى أمّها في انتظار المصير الذي باتت تلوح من خلف الضباب ملامح نهايته الحزينة. وعاد وليد في قمّة التشتّت والألم، ألمٌ لمْ يشعر به من قبل، ألمُ الحبّ الذي استوطن القلب.

إنّ ألمَ الفراق بعد الحبّ لَمَن لم يعرف الحبّ لا يضاهيه ألم إلّا ألم الولادة الذي يخرج منه الإنسان حيًّا، إنّما الألم بعد الفراق يخرج منه الإنسان ميتًا على قيد الحياة.

***

إنّ الضباب كثيفٌ
وأنت أمامي، ولست أمامي
أحاول لمسك من دون جدوى
فلا شفتاك يقينٌ، ولا شفتاي يقين
يداك جليديتان، زجاجيتان، محنطتان
وأوراق أيلول تسقط ذات الشمال وذات اليمين
ووجهك يسقط في البحر شيئًا فشيئًا
كنصف هلالٍ حزين،

شتّان الفارق بين فراق الأحبّة وبين الموت، إن كان علينا الاختيار فالموت، إنه أكثر رحمة من الفراق، لأنّ الموت محسوم، محسوم بعدم الرّجوع، محسوم ببقاء الذكريات الحلوة فقط على جدران الذّاكرة نستدعيها وقت يغلبنا الشوق والحنين إليهم، فالذّكريات المؤلمة تذهب رمادًا كأصحابها، محسوم بعدم التوقّعات وعدم الانتظار للأمل الذي لن يعود، إنّما الفراق ليس محسومًا، وليس هناك أشقى من إنسان مسكين يحيا على الأمل الضائع بعد الفراق، مازال ينتظر أن يعود، مازالت تتصارع بأعماقه كلّ الاحتمالات وتتلاعب بروحه وقلبه كلّ الظنون. تتقاذفه بين جنّتها ونارها فتعصفه عصفًا وتمزّقه تشتتًا وحنينًا ورجاءً.

عاد وليد بعد يوم طويل من العذاب والألم، ولم يتّصل بشيرين كما وعدها ولم تحاول، لقد رفضت أن تستوعب أنّ هذا الوطن الذي كانت تسكنه وحدَها أصبح الآن وطنًا لأخرى رغمًا عنها.

_ أين كنت؟

سألت شيرين بحسمٍ لأوّل مرّة، منذ تزوّجا لم تتحدّث معه بمثل تلك اللهجة الحادّة..

_ لا أريد أن أتحدّث، من فضلك اتركيني الآن، إني مُنهك جدًّا.

ودخل إلى فراشه يرجو النومَ أن يرحمه من الحزن ومن الفكر اللعين.

لم تنمْ شيرين، وقد بدأ الألم يمزّق روحها بشراسة لم يفعلها المرض العضال، لقد اتّخذت الآن قرارًا مصيريًّا واحدًا، إمّا لتنتصر أو لتنهزم روحها موتًا إلى الأبد.

وفي الصباح، كان ميعاد الفحص الأخير بالأشعة بعد الانتهاء من جلساتها، والتي

هزمت الورم إلى حدّ كبير، وتحسّنت على إثرها نتائج فحوصاتها الأخيرة ممّا سمح بشعاع الأمل أن يتسرّب للروح من عتمة اليأس ليرى النورَ من جديد.

ولكنّها قرّرت وحسمت المجازفة الكبرى.. كان وليد معها ليطّلع بنفسه على الفحوصات وليحدّد مع الأطباء بداية المرحلة القادمة من العلاج، وبينما كانا بطريقهما داخل المشفى التقت عينا فارس بوليد، ولكنّه لاحظ اكْفهرارًا على ملامحه، حين همست إليه شيرين: أظنّ أنّ هذا الرجل الذي يحدق بنا هو مَن كانت "هنا" برفقته، ألم تخبرك مَن يكون؟

كان وليد صامتًا شاردًا، ومجرّد ما أنْ دخلت لتستعدّ لبدء الفحص خرج وليد متحدثًا بالهاتف، وبعدما أنهى مكالمته، قادته قدماه إلى غرفة فارس وابنته، ثمّ توقّف أمام الباب يتفحّصه بنظرة صارمة ولم ينطق..

انتبه إليه فارس الذي لم يستطع أنْ يخفي علامات الدهشة والعجب، ولكنّه بادره:

ـ مرحبًا دكتور وليد، كيف حالك؟

ـ هل تسمح ببعض الحديث بخارج الغرفة حتّى لا تنزعج الأميرة؟

ـ بالطبع، تفضّل.

ثمّ خرجا معًا من الغرفة إلى الاستراحة، حيث بادر فارس ليقطع الصمت المرتقب:

ـ تفضّل، إني أسمعك.

ـ ماذا تريد من زوجتي؟

ـ زوجتك!! أي زوجة؟

_ لا تتذاكي، ظننتك رجلًا تحترم حدودك، وتلتزم أخلاقيًّا أمام ابنتك المريضة.

_ حقًّا لا أفْهم عمّا تتحدث، إن كنت تقصد ما حدث بقسم الشرطة، فإنّك كنت مسافرًا ولم يكن هناك أحدٌ يمكن أن....

_ قسم شرطة!!

انزعج وليد، وانتبه عن آخره، وطلب منّه أن يحكي له ما حدث تفصيلًا، فأخبره فارس بكلّ شيء.

كان وليد واجمًا، منصتًا، متوتّرًا، ثمّ قال بعدما أنهى فارس حديثه:

_ أشكرك على ما فعلت من أجل زوجتي وابنتي، ولكنّي لست موافقًا على إخفاء أمر يتعلّق بهما عنّي، وأمّا هذا الولد الوغد وأهله فسوف...

قاطعه فارس وهو ينهض ليغادره مختتمًا كلامه:

_ لقد انتهى هذا الأمر، اسمعني جيدًا دكتور وليد، إنّي حقًّا لم أرَ امرأة تحبّ رجلًا (بعائلته) وتفكّر بهم جميعًا قبْلَ نفسها مثل هذه المرأة من قبل. ولنْ أنكر أنني تمنّيتها قبل أن أعرف أنّها زوجتك، قبل أن أعرف أنّها تحبّك كلّ هذا الحبّ، ونصيحة من رجل إلى رجل، لا تخسرْ قلب هذه المرأة التي تعشقك أبدًا، حافظ عليه بكلّ عناية؛ إنّه نادر لا يتكرّر.

ومضى فارس في طريقه إلى ابنته سدرة لا يعرف كيف نطق كلمات لم ينطقها حتّى بينه وبين نفسه من قبل، في لحظة تيقّن فيها أنّ هذه المرأة كانت حلمًا جميلًا مرّ كالطيف على قلبه لن ينساه.

أمّا وليد فقد هدأت سريرته وتراقص قلبه طربًا، وعادت روحه بين جنبيه تشعر

بالأمان بعدما زال شبحُ الخوف اللّعين الذي كاد أن يفقده حبيبته، ولأوّل مرّة ينطقها بلسان حاله على الملأ بلا تردّد ولا خوف..

_ "هنا"، أنتِ حبيبتي.

حبيبة القلب التي وجدت سكنَها والأمان في ذلك القلب، ولم تكنْ تطمح في أنْ تستحوذ عليه كاملًا، كان كافيًا أن يصبح لها فيه مكان، مكان يغمرها بالحبّ والأمان.

انتهت شيرين من فحْصها، وكانت تنتظر وليد الذي غاب عنها بالخارج، لكي يتناقشا مع الطبيب عن المرحلة القادمة، ولكنّ الطبيب كان معها مبشّرًا بأنّ الأمل أصبح كبيرًا في التخلّص من المرض بشكل قاطع، فالنتائج إيجابية جدًّا ومحفّزة، فسألته عن الاحتمالات الأقوى للانتكاس، فقال:

_وارد عودته بالطبع، تعلمين ذلك، ولكنّ هذا الأمر يتعلّق أكثر بإرادتك وصمود مناعتك.

_ إذًا، استئصال الرّحم والأنسجة المحيطة هو الحلّ الأمثل حتّى نضمن عدم عودته نهائيًّا.

_ ولكنْ يا شيرين، هذه عمليّة كبيرة وخطيرة، مازال جسدك لم يتعافَ بعد الجلسات، وتعلمين أنّ هذه العملية.

قاطعته شيرين حاسمة لأمرها كطبيبة هذه المرّة:

_ إنْ جاءتني كطبيبة حالة كحالتي سوف أفعل المستحيل وليس المتاح من أجل أن تشفى تمامًا، وإنّي عزمت على الخضوع لعملية الاستئصال الكاملة متحملة كامل المسئولية الطبّية مهْما كان الأمل ضعيفًا، يكفي أنّه موجود، وإنّي لأثق بربّ العالمين.

كان وليد يفتح باب الغرفة، وقد سمع جُملة شيرين الأخيرة، فوقف مندهشًا أمام هذا الحماس المتّقد الذي أضاءها في تلك اللحظة، سأله الطبيب عن رأيه، فردّت شيرين وهي تقف بثباتٍ على قدميها:

_ هذه حياتي أنا، وأنا المسئولة عنها لنهايتها.

ثمّ حدّد لها الطبيب الجرّاح ميعادًا للفحْص الشامل مرّة أخرى قبيل أن يحدّد ميعادًا للعملية ليمنحها وقتًا تكون قد تجهّزت فيه بدنيًّا، أمّا نفسيًّا فكانت مؤهلة لمصيرها تمامًا.

وفي طريق خروجهم من المشفى، قال وليد:

_ لماذا اتّخذت هذا القرار المصيري وحدك؟

_لأنّني قرّرت أن أهزم شبح الموت وأعود للحياة.

قالت بتحدٍّ واضح وكبرياء صامد، وكأنّ الأنثى بداخلها أعلنت نهاية الحرب، وهي مِن النصر موقنة.

صمت وليد أمام هذا الإصرار والحماس، ثمّ سألته وهي تمرّ من أمام غرفة سدرة:

_ هل عرفت مَن يكون ذلك الرجل؟

_ نعم، إنّه فارس، أب لابْنة مصابة بالمرض، وكانت "هنا" ترعاها في كلّ جلسة.

_ وهل أخبرتك تلك الأخرى بذلك؟

نظر إليها وليد نظرة ثابتة، فلم يستطعْ أن يخفي الحنق بداخله أكثر من ذلك، وردّ بهدوء:

_نعم، إنّ سدرة تنتظرها في ميعاد جلساتها، إنّها تتعلّق بها وتحبّها كثيرًا، و"هنا" كذلك.

_ يا لها من أمّ حنون لأطفال لم تنجبْهم ولم تتعب في تربيتهم كأمّهاتهم، فتأتي لتتبنّاهم على الجاهز.

_ سدرة يتيمة الأمّ، ويومًا ما سيرزقها الله بسدرة تنجبها وتتعب معها وتنشغل بها عن أطفال الآخرين.

صمتت شيرين، حين صدمها وليد الصدمة التي قسمتها، ولم تتنطق بعدها كلمة حتّى وصلت إلى البيت تجرّ أذيال الهزيمة التي تأبى أن تستسلم أمامها، ولكن وليد لم يذهبْ معها حين جاءته الاتصالات المتكرّرة على الهاتف بضرورة ذهابه إلى المشفى فالحالات في انتظاره، وبعد ساعات كانت شيرين لم تستطع السيطرة على شغبها وقلقها، تفكّر في خطّة تحسم بها هذا الأمر كي لا تخسر وليد، وقد تيقّنت أنه لا نيّة لديه لأن يترك "هنا"، فيجب أن تتركه هي.

عاد الأولاد من المدرسة ولم تعد "هنا"، التي كانت شيرين في انتظارها بفارغ الصبر في توتّر كي تتحدّث معها، ثمّ لم تجد بدًّا من أن تتصل بها لأنّها لم تستطع تحمّل ألم الانتظار:

_ كيف حالك يا "هنا"؟

_ بخير، وأنت؟

_ اليوم كانت آخر جلساتي، وقد تحسّنت بفضل الله أخيرًا، وقد انهزم المرض.

_ سعدت لسماع ذلك، إنّه حقًّا لخبرٌ سار.

_ حسنًا، لقد قابلنا أنا ووليد بالمشفى فارس وابنته سدرة، وقد سأل عنك، وقد رأيت في عينيه حزنًا عميقًا.

_ لماذا؟

_ ليس لأنّني شفيت بالتأكيد، ولكن اعتقدَ أنّه لن يراكِ ثانية.

_ ماذا تقصدين؟

_ أقصد أنّ سدرة حزنت كثيرًا لأنّها ستفتقد أمًّا لها تعلقت بها كثيرًا وهي في مثل هذه المحنة، وأعتقد أنّ أباها حزن لحزنها.

_ أنتِ أخبرت وليد بأنّك رأيتنا معًا، أليس كذلك؟

_ نعم، ولكن لا تسيئي الظنّ بي، لقد أخبرته بما رأيته فحسب لأنّه سألني عنك وكنتِ في هذه الأيام عند أمّك، ولم أعرف سببَ وجودك بالمشفى رغم علمك بجلستي، ثمّ شاهدت بالصدفة خروجَك معه.

_ بماذا تلمّحين يا دكتورة شيرين؟

_ حسنًا، سأكون واضحة معك يا أستاذة "هنا"، لقد حاربت الموت ومثلت للشفاء بفضل الله، ولنْ أترك زوجي وأولادي من بعدي يتعذّبون، لقد اخطأت في حقّهم حين أجبرتهم على اعتياد الفراق قبل أن يكون، لأنّه لن يكون، لقد حان وقت استردادهم، إنّهم كانوا في أمانتك حتّى أتماثل للشّفاء، فيجب عليك الآن ردّ الأمانة، أمّا بالنسبة لك فإنكِ لن تخسري شيئًا، فهذا الشاب الذي يبدو عليه إعجابٌ بك وابنته تحبّك كثيرًا وأنت تبادلينهم الرعاية والاهتمام؛ هو أولى الآن بوجودك معهم، فسدرة بالفعل يتيمة وتحتاج لأمٍّ ترعاها، وفارس يحتاج لزوجة لأنّه بلا زوجة، أمّا وليد فلم يكن بحاجة لكِ حين أصررت أنا عليه، إنّه فعلَ ذلك فقط من أجلي وأنت تعلمين ذلك، وبالنسبة لجومانة وسلمى فهُم لم يعودوا يرونْك في صورةٍ مثالية كما كانوا من قبل، وأظنّك تلاحظين ذلك بنفسك، ولن يقبلا بديلًا عن أمّهم مهْما كان، وها أنا كنت ومازلت وسأبقى سيدة هذا البيت، مملكتي التي تعبت في بنائها وساكنة قلب

زوجي وحبيبته الوحيدة، ولن أسمح لأحد بدخوله أبدًا ما حييت، هؤلاء الأولاد الذين أنجبتهم وسهرت عليهم وربّيتهم أثْبتوا لي ولك أنني أنا أمّهم الوحيدة، ولن يقبّلوا عنّي بديلًا، نحن أسرة متحابّة مترابطة مستقرّة لم ينقصها شيء ذات يوم ولن ينقصها شيء بعد الآن، لقد حان وقتُ إنهاء الصفقة بيننا حيث لن يخسر أحدنا أي شيء.

_حسنًا، أنت لكِ أسرتك وأنا لي حياتي، ولن أسمح لك بترتيبها كما يناسبك أنتِ مرّة أخرى، اطلبي من زوجك أن يتركني، كما طلبتِ منه أن يتزوّجني غصبًا، افعلي كلّ شيء وأي شيء معه لينصاع هو لكِ فإنّي لن أنصاع إليك مجددًا، واطمئني فإنّي لن أقبل أنْ أعود إلى مملكتك العظيمة مرّة أخرى.

وأغلقت الهاتف فورًا قبل أن تتمادى شيرين في إهانتها، وانهارت تئنّ بكاءًا وانفطارًا على الأحلام المتبدّدة هباءًا، وعلى الرّوح الهشّة المحطّمة الأمل، وعلى الحبّ الوليد قدرًا، المحكوم عليه بالإعدام.

حاول وليد الاتّصال بها مرارًا ليخبرها بأنّه قد عرف الحقيقة من فارس، إلّا أنّها قد أغلقت الهاتف نهائيًّا بعد اتصال شيرين. لم يصبر وليد وانتهى من عمله طائرًا على بيت أمّها فرحًا فأخبرته بأنّها غير موجودة، عاد إلى البيت ولم يكفّ عن محاولات الاتّصال بها دون فائدة، ولكنّه لم يفقد الأمل، ثمّ ذهب إلى جومانة ليتحدّث معها بهدوء عمّا حدث وما لم تخبره به، فحكتْ له ما حدث تفصيلًا، باكيةً نادمة، فاحتضنها وقبّل جبينها كي تطمئنّ وتشعر بأنّه لن يعاقبها بقسوة، ولكنّه كان قلقًا بشأنها ثمّ قالت:

_ لولا ميس "هنا" فعلت ما فعلتْ لكنت وقعتُ في هذا الفخّ يا أبي، أنقذتني منه لتقع هي فيه لتحميني، لقد ندمت لأنّي كرهتها يومَ زواجك بها يا أبي، وقرّرت أن أنتقم منها لي ولأمّي، ولكنّها لا تستحقّ أبدًا كلّ هذا الأذى.

ثمّ مسح دموعها عنها برفق وابتسامة حبّ عميق، ونظرت الابنة بعيني أبيها وهي ممسكة بيده، ثمّ سألته:

_ لماذا تزوّجتها يا أبي؟

_ لأنّها أنقذتني مثلك.

_ كيف؟

_ يومًا ما سأحكي لك كلّ شيء، لأنّك صديقتي المقرّبة، وإنّي حزنت كثيرًا لأنني لم أعدْ صديقك الذي تحكي له أسرارك وتأخذين برأيه في صعاب الأمور.

_ آسفة يا أبي، أرجوك سامحني ولا تحزن، أنت صديقي وحبيبي ولنْ أخذلك مرّة أخرى، أعدك بذلك.

_ حسنًا حبيبتي، وإنّي أثق بك دائمًا، ارتاحي الآن، وإنْ رأيت "هنا" بالمدرسة باكرًا أخبريها بأنْ تفتح هاتفها.

_ تخاصمتوا؟

_ لقد عنّفتها بقسوة على هذا الأمر، وأودّ أن أعتذر لها.

_ هل تحبّها يا أبي؟

ابتسم وليد في عيني ابنته وقال:

_ مثلما تحبّينها أنتِ، فإنّي أراها بعينيكِ أنتِ.

_ إنّي أراها جميلة حقًّا، ولكنْ تبقي أمّي هي الأجمل، أمازلت تحبّ أمّي يا أبي؟

_ لنْ يأخذ أحدٌ مكانة أمّك عندي أبدًا يا جومانة، ولكنّ الحبّ قدرٌ يأتينا بغتة بلا معاد ولا سبب، يومًا ما سيزور قلبك وستعرفينه وتشعرينه. وإلى أن يزور قلبك الحبّ الحقيقي الذي سيجعلك أميرة متوّجة بقلب مَن يحبّك ويحفظك، ويجعلك

شمسًا فريدة في أوْج السماء؛ لا تطلقي على أي شعور عابر بك حبًّا، لا تستنزفي مشاعرك الغالية وتستهلكينها وتمنحينها لَمن لا يعرف قيمتها ولا يقدّرها، أنت فقط مَن تستطيعين الحفاظ على بريقها ونقائها، لا تجعلي أحدًا يعبث بها ويخمدها ويطفئ روحك الرقيقة في مغامرة عبثٍ عابرة.

_لقد قالت لي ميس "هنا" نفس الكلام.

_لا تخفي عنّي أيّ شيء بعد اليوم يا حبيبة القلب.

_ لن أفعل أبدًا يا أبي.

ابتسم وليد وهو يقبّلها، ثمّ تركها تخلد إلى النوم وعاد إلى غرفته، وبعد أن بدّل ثيابه ليستلقي بعد يومٍ مرهق طويل، كانت شيرين صامتة تتهيّأ للنقاش معه بجديّة وحسم:

_ وليد، ما رأيك في فارس وابنته سدرة؟

_ لم أفهم، من أية ناحية؟

_ من ناحية أنّه مناسب لـ "هنا"، لتترك "هنا" تكمل حياتها معه، إنّ سدرة يتيمة الأمّ وتحتاج إلى رعايتها في مثل هذه المحنة العصيبة كما أنّها تحبّها وتتعلّق بها كما أخبرتني، وأظنّ فارس يحتاج إلى زوجة تهتمّ بابنته، وهذا ما تحتاج إليه "هنا" أيضًا لذلك تذهب إلى المشفى لتكون بجوار سدرة، إنّها لا تشعر بالاستقرار بيننا، من حقّها أن تعيش حياة مستقرّة.

_ مَن أخبرك أنّني سأترك "هنا" لفارس، أو لسواه؟

_ بل ستتركها يا وليد، فإنّنا لم نعدْ بحاجة إليها، ها نحن عدْنا إلى حياتنا الأولى، لقد انتهى الخوف وانتهى الأمر.

ـ لم تعودي أنتِ بحاجة إليها.

بدأ قلبُ شيرين يزلزل بخفقانه المدوّي أرجاءَ روحها المعتصرة من الألم، بدأت أنفاسُها تتلاحق، تخرج صهدًا ثمّ تعود إليها بلا هواء، بدأت سحابة من الحزن تتساقط جمرًا على الوجْنتين، ولكن كلّ ذلك مهْما كان وقعه قاسيًا على روحها لن يخضع كبرياءها، ولن يحطّمه للنّفس الأخير، ثمّ قالت بصوت متهدّج:

ـ وهل أنت بحاجة إليها لأنّني أصبحت بنظرك مريضة؟ لم يعدْ منها فائدة.. هل سلبتك منّي، واغتصبت وطني الوحيد؟ أمات الحبّ الكبير بيننا يا وليد؟

ـ أنتِ مَن تقتُلين الحبّ يا شيرين، منذ البداية وأنت ترسمين وتخطّطين حياتنا، ونحنُ ننصاع لرغباتك خوفًا عليك، و"هنا" انصاعت لكِ لأنك استغللت ظروفها؛ وحدتها وكبر سنّها وحبّها للأولاد، وانصعت أنا لكِ حبًّا، والآن تفعلين نفسَ الشيء، أنت من تقرّرين، تأمرين وتنهين، وما علينا إلّا القبول والطاعة، وكأنّنا دُمى بلا روح بين يديك تحرّكينها كيفما شئتِ، تتحدّين القدر وتتحكّمين بمشيئته، وكأنّك نصّبت نفسك إلهًا يعلم الغيب، لأوّل مرّة أدرك كم أنّك أنانية، وكم أنّ هذا الحبّ الكبير تحوّل إلى سجنٍ موحش، سجن تكبّلينني فيه بقيد التملّك.

ـ أنانية! لأنني أحافظ عليك وأصارع الموت من أجلك، أكون أنانية؟ لأنني أستردّ بيتي وعائلتي التي أفنيت حياتي من أجلهم، وليس لي من دونهم حياة؛ أكون أنانية؟ لأنّني تحمّلت كلّ هذا الألم الذي نخر جسدي في معارك ضارية تحمّلتها وحدي مع المرض حتّى هزمته لكي لا أبتعد عنكم وأترككم للعذاب أكون أتحكّم بالقدر؟ ما الذي سأحيا من أجله إذًا، إذا كان مقدّرًا أن أتحمّل المرض والألم لأحيا من أجلك، وأنت تقتلني بلا رحمة، وتخبرني بحبّك لامرأة سواى، أهذا جزائي منك يا وليد؟

_ أنا أحبّك يا شيرين، وأحبّها، هذه حقيقة لا أستطيع أن أتجاهلها أو أخفيها، وإن كان مقدّرًا لك تحمّل كلّ ما تحمّلته من أجلي، فإنّك لا تستطيعي أن تقفين أمام مشيئة القدر، أنا أحتاج إليها بقدر حاجتي إليك.

_ ماذا كان ينقصك يا وليد لتتمسّك بها إلى هذا الحدّ؟ أنت تعرف أنّها كانت مجرّد صفقة متبادلة أعترف اني أخطأت بها من فرط خوفي عليكم، ولم تكنْ أنت راضيًا عنها منذ بدايتها.. وها هي قد جاءتها فرصتها العادلة لتستقرّ بحياة جديدة أفضل ولنعود نحن إلى حياتنا.

_ لن أتركها يا شيرين، يجب أنْ تحترمي قراري مثلما احترمت قرارك.

_لن تتركها! وهي التي بمجرّد أن أتيحت لها فرصة أفضل منك ركضت إليها؟ اتركها يا وليد، سوف أغفر لك تلك النّزوة العابرة يا حبيبي، ونمزّق هذه الصفحة من الألم نهائيًّا، ولن نتذكّر سوى صفحاتنا الجميلة البيضاء التي عشناها، والتي سنكملها معًا لآخر العمر.

_ لا تهينيها يا شيرين من فضلك، لن أسمح لك.

_ ماذا تقصد يا وليد؟ تقصد أنْ أتركك أنا؟ أتركك لها!! لَمن عبثت بك وبكرامتك.

صرخ وليد منفعلًا:

_ اصمتي، قلت لن أسمح لك بإهانتها.

_ أتهينني من أجل امرأة أخرى سلبتك منّي يا وليد بعد كلّ هذا العمر، لا أصدق..

_ لم تسلبني منك، لم تأخذ أكثر من حقّها بل أقلّ، لقد كانت بجانبك وكأنّك أختها ولم تتأخّر عنك في محنتك، وإنّك بلا مراعاة لا تشعرين أنك تتمادين في حقّها،

تتلاعبين بكرامتها وبحياتها ولا يحقّ لك ذلك، يجب أن تعودي إلى عقلانيّتك يا شيرين، لم أعهدك هكذا من قبل.

ـ حقّها! وهل أنت من حقّها؟ أتريدني أن أستسلم وأنا أرى زوجي وحبيبي ووطني الوحيد تخطفه امرأة أخرى أمام عيني وتشاركني فيه؟ أتنتظر أنْ أباركَكما؟ ونسيت أنّي ضحّيت بنفسي من أجلك أنت، من أجل سعادتك.

ـ هل تنتظرين مقابلًا للتّضحيات العظيمة والهبات الثمينة التي منحتها لي ولأولادك بأنْ يكون ولائي لكِ دومًا، منفّذًا لرغباتك أنتِ، وأنْ أظلّ ممتنًّا متذكّرًا دومًا أنكِ فعلتِ كلّ ذلك من أجلي؟

ـ بل انتظرت أن تكونَ مكتفيًا بي، ولا أرى امرأة آخرى تشاركني قلبك.

ـ هذا قدرٌ مقدّر، لايمكننا أن نمنعه أو نغيّره.

ـ أنا مَن تسبّبت فيه، وأنا الآن مَن أنهيه.

ـ ربّما كنتِ سببًا في لقائنا ولكنّه قدر مكتوب، كنّا سنلتقي بسببك أو بآخر، وإنك لا تملكين أن تنهيه.

ـ إذًا، حان وقت الاختيار يا وليد، إنّي لن أقبلها في حياتي من اليوم، ولن تشاركني فيك أبدًا، هذا قراري المحسوم، فعليك الآن أن تختار إمّا أنا وإمّا هي.

أطال وليد الصمت ناظرًا بأسفٍ في عينيها المليئتين كؤوسًا من الحزن، وقد أطاحت الكلمة برأسه، وزلزلت قلبه المعتصر ألمًا، وعصفت بروحه الممزّقة عصفًا.

إنّه أصعب اختبار، أنْ يوضع الرجل في اختيار فعلي بين استقراره وحياته التي بناها بعمره وجهده وتعبه وشبابه، وبين الحبّ الذي اجتاح قلبه قدرًا فأزهرَ به ربيعًا رأى من خلاله ألوانًا للحياة، لا يمكن أن نقول على الحياة الأولى فقط هي القدر

الأبدي، كلّ ما يعبر حياتنا ويمرّ من خلال أرواحنا سواء أدركنا حكمته أو لم ندرك؛ هو قدر مكتوب يتحقّق في معاده بمشيئتنا أو بدونها، برضانا أو بدونه؛ هو واقع.

عندما يصيبنا الحبّ الحقيقي، والذي هو قدر قدْ لا يصيب كلّ البشر، لا نستطيع مهْما تجاهلناه أن نسمّيه بغير اسمه، لا نستطيع أن نئده لنمنعه مهما حاولنا من البداية، لا نستطيع أن نقتلعه من قلوبنا بعد أن سكنها واستقرّ، وقد فتحت له الأبواب الموصدة لترى من خلاله الشمس، إنه سيزهر رغمًا عنّا ويلوّننا بالفرح، لا نستطيع حينها أن نسمّي حالة الاستقرار والمودّة والعشرة التي عشناها قبله مهْما كانت طويلة أو هادئة؛ حبًّا، فالحب لا يعرف الاختباء وراء الأقنعة والأسباب، الحبّ لا يعرف إلّا بخفقان القلوب، ربّما يكتفي الإنسان الذي لم يزره الحبّ فقط بالعشرة، ولكنّه لن يكتفي منها أبَدا إنْ زار قلبه الحبّ بغتة، وإنْ كان حبّ العشرة يعرف بالاستقرار والاكتفاء؛ فحبّ القلب لا يعرف إلّا الفيض والارتواء.

ترك وليد الغرفة، وصعد إلى غرفة "هنا" التي هجرتها، ولم يكن العاشق الحزين يعرف أنّها قد اختارت النهاية، حاول الاتّصال بها دون فائدة، فوضع رأسه على وسادتها يختبئ بها من سهام الألم، يودّ لو أنْ يخرج منها ذراعان حانيتان يحتضناه في تلك اللحظة االتي يحتاج فيها إلى أن يعود طفلًا يبكي ويرتوي ويسكن.

أمّا شيرين فلم تستطع أن تمنع السيلَ الجارف الذي اجتاح كلّ مواطن الألم التي ضمّدتها من المرض، لقد كان المرض أكثرَ رحمة على روحها من خنجر وليد القاتل الذي غرسه بصميم قلبها الحزين.

وفي الصباح الذي لم يفرق كثيرًا عن الليل البارد الطويل لم تخرج شيرين من غرفتها بينما خرج وليد مبكرًا جدًّا ليلحق بـ "هنا" قبل خروجها من بيت أمّها إلى المدرسة بعدما باءت كلّ محاولات الاتّصال بالفشل، ولكنها لم تنزل من البيت وقد فات الميعاد

فاضطرّ أن يصعد إلى أمّها في الصباح الباكر لتخبره بأنّ "هنا" قد سافرت بعد أن قدّمت أجازة لبضعة أيام، حاول وليد معرفة مكانها فطلبت أمّها منه أن يتركها لبضعة أيّام وحدها لأنّها مجهدة تمامًا، وتحتاج إلى راحة، ربما كان ذلك في مصلحتهما لاتّخاذ قرار سليم دون ضغط أو اندفاع، فطلب منها لطفًا أن تخبره عند عودتها.

مرّت الأيّام، وظلّ كلّ منهم بواديه، يحسم قراره منفردًا، ويمضي بطريقه وحيدًا، فالقارب لا يسبح آمنًا إلّا بقائد يوازن بين الدّفتين، يمسك بالمجدافين دون ميل لأحدهما عن الآخر، وإلّا لو مال عن المنتصف لفقد توازنه فغرق بهم جميعًا، فهل يوجد قائد يعدل ولا يميل؟

وبعد أيام، عادت "هنا" إلى المدرسة لتستكمل حياتها وحيدة من نقطة الصفر تواري هزيمتها بالعمل الكثيف، تقف بثبات على أطلال حزنها أمام الرياح العاصفة تصمد بما تبقّى بها من بقايا روح باهتة، وإنْ كان يقتلها الشّوق إليه فإنّما يكبلها الكبرياء.

حتى أغشي عليها ذاتَ يوم فجأة وهي تشرح الدّرس داخل القاعة، صرخ الأولاد، نادوا على مشرفيهم، نقلوها إلى مكتبها، من ثمّ إلى المشفى، حيث استفاقت لتسمع من الطبيب تلك الكلمة التي انتظرتها طويلًا لتصبح على قيد حياة جديدة، حياة تحقّق فيها حلمها الكبير، الأخير:

_ مبارك، ستصبحين أمًّا.

لم تصدّق "هنا" ما سمعت، بكت، ضحكت، تنهّدت، تسحب الهواء بشدّة كالعائد من الموت البعيد إلى الحياة، ثمّ سجدت واقتربت، ولكنّ الطبيب حذّرها وشرح لها تفصيلًا وضْعَ هذا الحمل لأنّه جاء في وقتٍ متأخّر؛ لذلك فهو حمل حرج، وإنّ هذا الطفل ثمين ولا بدّ وأن تحافظ عليه بعناية، وإنْ لم تلتزم بالرّاحة التّامة والابتعاد عن الانفعال حيث أن ذلك يعتبر ضررًا على الجنين، وعليها إن لم تلتزم أيضًا بالرياضة

والنظام الغذائي والدوائي والمتابعة الدقيقة في ميعادها أو لو جدّ طارئ عليها، انصاعت "هنا" إلى أوامر الطبيب الصارمة وهي تمسح عنها دموع فرحها وامتنانها العميق، وقالت له بحماس كبير وفرحة غامرة:

_أعدك أيّها الطبيب أنّي سأحافظ على ولدي ما حييت، سأفعل كلّ ما تقوله لي تمامًا.

عادت "هنا" تزفّ البُشرى إلى أمّها بفرحةٍ عارمة، فضمّتها إلى صدرها وهي تبكي بكاءًا عميقًا امتنانًا لربّ العالمين الذي كانت تناجيه في كلّ صلاة أن يعوّض ابنتها بأفضل ما تستحقّه كي تقرّ عيناها وينشرح قلبها.

_ هل أخبرت وليد يا "هنا"؟

_ لا، لم أخبره بعد.

_ يجب أن تعودي إلى بيتك ليربّى ولدُك ببيت أبيه.

_ لماذا أعود إليه بعد الإهانة يا أمّي؟

_ إنّها غيرة الرّجل يا ابنتي، لو لم يكنْ يحبّك كلّ هذا الحبّ لما قسي عليك كلّ هذه القسوة، لقد كان يخشى ضياعك من بين يديه.

_لقد تعبت من الحرب يا أمّي، حرب كانت تحمل لي الهزائم المتوالية، ولكن الآن سوف أحارب فقط لأحافظ على ولدي، هذا الذي تحمّلت لأجله كلّ ذلك العذاب.

_يجب أن تخبريه يا "هنا"، هذا حقّه، ثمّ افعلي ما يريحك يا بنتي.

دقّ جرس الباب، وقد كانت "هنا" على وشك الاتّصال بوليد، ولكنّه كان هو الطارق:

_ إنّك لابن حلال يا دكتور، كانت "هنا" ستزف إليك الخبر السعيد.

_أيّ خبر يا أمّي؟

تساءل وليد وهي تمسك بيده تسحبه إلى غرفة "هنا".

_ها هي أمّ ولي العهد تحمل وليَّ العهد.

قالت الأمّ في سعادة وهي تربت على كتفه.

_ حقًا يا "هنا"! سأصبح أبًا!! وأنت أمّ لولدي؟ كم أنت كريم يا الله، أحمدك وأشكرك.

نظرت "هنا" إلى عينيه العميقتين، وقد انْهمرت الدموع من عينيها كمطرٍ لؤلؤي دافئ حيث عجز اللسان عن الكلام فبات ينبت بالأعماق زهرًا يفوح فرحًا بالوجدان، ثمّ خرجت أمّ "هنا" وتركتهما معًا وأغلقت الباب.

قبّل وليد يديْها بحرارة أنفاسه، ثمّ قال بابتسامة رائعة لا تكون إلّا على وجه عاشق:

_ أرأيتِ!! إنّ القدر الذي جمعنا لا يريد أن يفرقنا.

_سأصبح أمًّا حقيقية يا وليد، حلم قد ضاع في طريق اليأس الطويل، ولكنّه أبدًا بقلبي لا يموت.

ضمّها وليد إلى صدره الشّغوف مقبّلًا جبينها، قائلًا من أعماق روحه:

_"هنا"، إنّي أحبّك.

_ سوف يصبح لي ولد، قطعة منك ومنّي، يقول لي أمّي، طفل أعتني به أكثر ممّا اعتنيت بأولاد الآخرين، أتصدّق هذا الكرم الذي أغدقني الله بعد هذا العمر والتمنّي يا وليد؟

ـ إنّي أحبّك، ولم أعرف معني الحبّ الحقيقي إلّا معك.

كانت "هنا" تبكي كلّما كرّر هذه الكلمات على مسامعها، تبكي لأنّ الحبّ الذي سكنها إليه وإلى قطعه منه بأحشائها صار أعمق وأكبر من أن تصفه الكلمات، وقد كانت قبل تلك اللحظة الفاصلة حاسمة لقرارها بالرحيل النهائي من حياته، ولكنّ القدر حسم مشيئته.

ـ لقد أخبرني فارس بالحقيقة، أخبرني كمْ أنت كالطيف الفريد يظهر في عتمة الظلام. قال لها وهو يربتُ على شعرها برفق بأصابعه الحانية.

ـ وماذا فعلت مع جومانة وشيرين؟

ـ احتويت ابنتي، لقد أخطأت بحقّها حين أهملتها رغمًا عنّي بسبب كلّ الضغوط التي شغلتني عنها، أدركت في لحظتها كم حُرمت أنتِ الأمان والحنان يوم فقدت أباك مبكرًا وصمدتِ أمام الرياح العاتية وحدَك كلّ هذا الصمود، أدركت في لحظتها لماذا كنت أشعر بفيض هذا الحنان والأمان وأنا بين أحضانك.

ـ وشيرين ماذا كانت ردّة فعلها؟

ـ لم أخبرها بالأمر، إنّها على مشارف عملية كبرى، عملية خطرة قرّرت الخضوع لها أملًا في الشّفاء التام.

ـ سيتمّ الله شفاءها لتعود الحياة بينكما كما كانت قبل المحنة العاصفة.

ـ لن تعود الحياة بيننا كما كانت من دونك.

ـ لا تقلْ ذلك يا وليد، عندما تهدأ العاصفة ويرحل الأغراب، سوف تعود بينكما الحياة بعد هذه المحنة أكثر دفئًا وسلامًا وترابطًا.

ـ أستتركيني يا "هنا"؟

_ سوف أبق "هنا" يا وليد، هذا الطفل هو أملي الأخير في الحياة، لو ضاع مني سأنتهي، سأموت.

_ حبيبتي، سوف يربّى طفلُنا مع إخوته، وشيرين ستتقبّل الأمر، و..

_ لا تخدع نفسك بغيد الأماني، شيرين لن تتقبّل الأمر أبدًا، وأنت تعلم ذلك، فلا تحطّم حياتك الأولى بيديك، هذا الحبّ بيننا مستحيل، ورغم استحالته فإنّني أحبّك ولكني أريد العيش في سلام أنا وولدي، وابقَ أنتَ في سلام مع عائلتك، وتأكّد إنّي لن أكفّ عن حبّك أبدًا.

_ هذا ليس عدلًا، أنت جزء من عائلتي، هذا الولد ولدي، وأنت زوجتي، لماذا أتخلّى عنكما؟ أيّ شرع وأيّ دين يقول ذلك؟!

_ وقال تعالى: ولن تعدلوا، لقد حسم الله الأمر يا وليد.

_ حسنًا، ألم يكنْ محمدًا عليه الصلاة والسلام عادلًا؟ والصحابة والصالحون؟ هل أتاح الله الزّواج مثني وثلاث ورباع ظلمًا لكم أيّتها النساء أم ليحفظنا من الخطيئة وليعفّكم أنتم منها؟ حاشا لله أن يكون سبحانه قد حلّل الظلم.

_ لا أعلم لماذا حلّل الله هذا الأمر الشاق؟ (قالت)

_ لأنّه أعلم بخلقه، أنّ الرجل يهوى ويميل رغمًا عنه إلى النساء، كي لا تنتشر الفتنة والخيانة، وأنا لست كهؤلاء الذين يخونون زوجاتهم الأولى بعلمهنّ تحت غطاء من التّجاهل العمد لتستمرّ الحياة، ثمّ يدّعون السّعادة المزيفة أمام الناس، ولست ممّن يتزوّجون سرًّا كالفئران، ولا من اشباه الرّجال الذين يَعِدون وعودًا كاذبة ويخوضون مغامرات محرّمة، ولا ممّن يكسرون ملل زواجهم الطويل بنزوات عابرة بالتلاعب بقلوب وأحلام فتيات لا ذنب لهنّ ظلمًا كانوا يحلمون مثلك بفرصة عادلة للحبّ والاستقرار بدلًا من أن يلقون بأنفسهن إلى الموت مع مَن لا يتقون الله فيهنّ هربًا من

ألسنة الناس المسمومة باتّهام مَن تنتظر حياة كريمة بالعجز والكبر والجنون واتّهامات أخرى تهوي بهم في النّار لحرمانيتها، إنّ كلّ ذلك لهو الظلم الحقيقي يا "هنا".

إنّما الحبّ السّاكن بقلبي لم يكن أبدًا ظلمًا أو حرامًا، عندما سطعت بقلبي كالشمس أدركت أنّكِ أنت النور الذي أضاء ركنًا معتمًا بأعماقي قد نسيته، أدركت أنّه كان ينتظرك أنت، كان لك وحدك. هذا الحبّ الذي أدركته معك كم خبّأته وانتظرته طويلًا بأحلامي، ولا يعني ذلك أنّني لا أحبّ شيرين، أحبّها ولكن ليس بمثل هذا الشعور المختلف معك.. أنت قدرٌ يا "هنا" تمنّيته ولم أبحثْ عنه، بل أصابني مثلما أصابك فجمعنا ولا يشاء أنْ يفرّقنا.

_ هذا المجتمع الجائر يتقبّل الخيانة ويسمّيها نزوات عابرة، ولا يتقبّل شرع الله وحلاله الذي لا يحثّ على إكراه ولا ظلم، أعلم ذلك وأعلمُ أنّك لست بخائن، ولكني لن أستطيع أن أحارب مجتمعًا عقيمًا يحارب الحلال ويتغاضى عن الحرام ويبرّره، ولن أستطيع أنْ أحارب زوجتك الأولى التي بدأت حربَها لاستعادتك ياوليد، إنّ حربي للحفاظ عليك خاسرة وإنّي أريد الهدوء من أجل أن يبقى ولدي لي وأبقى لأجله.

_ اسمعي يا "هنا"، أنا لست بعابث وأنت لست كذلك، ربّما زواجنا كان رغمًا وغصبًا في البداية، ولكنّ بقاءنا الآن سويًّا هو اختيار حرّ، وأنا اخترت أنْ أبقى معك، ستعودين إلى بيتك معزّزة مكرّمة، ولن يعترض لك أحدٌ.. ثقي بذلك، وشيرين عليها أن تتقبّل الامر، ربّما هي مَن بدأته وليس من حقّها أنْ تنهيه، لسنا دُمى بلا إرادة تضعنا أينما وكيفما تشاء.

ثمّ أعاد ضمّها إلى صدره ليجترع مِن أنفاسها عطرًا كالنّسيم العليل ليبرد توهّج أشواقه..

_ الطبيب أخبرني أنّ هذا الحمل صعب، وأوصاني بشدّة أن أرتاح تمامًا، لا أعلم ما الذي يجب عليّ فعله، فالاختبارات النهائية للمدرسة على الأبواب، ولا يجب أن أتغيّب.

_ سوف أقدّم لك أجازات مرضية لا تقلقي، ماذا سنسمّي ولي العهد؟

_ أتمنّى أن تكون "سدرة".

_إنّك تعلّقتِ بسدرة كثيرًا، وهي أيضًا تعلّقت بك كثيرًا.

_سدرة هي أمنيتي الوحيدة التي طالما تمنّيتها عند الغروب.

_يمكننا معًا زيارتها مع سدرة صغيرتنا لنسعدها.

ثمّ جالَ بنظره في الغرفة المتواضعة بابتسامة مشرقة:

_ هذه غرفتك؟ لأوّل مرّة أدخلها..

_ نعم، هُنا طفولتي وشبابي، وعلى هذه الجدران حفرت ذكرياتي الحلوة والموجعة، ومِن هذه النافذة كنت أراقب أحلامي المضيئة التي علقتها عاليًا فوق نجفة الأمنيات كي لا تسقط على الأرض فتحترق، وهذه كتب أبي أحتفظ بها بمكانها منذ عهد طويل، وهذه أوراقي ورسوماتي، التي رسمت بكلّ صفحة بها جزءًا من روحي.

_ أهذا رسمك؟ غير معقول، كم أنّه بديع، إنّك فنانة عبقرية.

ثمّ نظر إليها في حنان، قائلًا:

_ كيف لي ألّا أحبّك وأنت تملكين هذا القلب الأخضر النّقي يا "هنا".

_إنّك لم تكنْ تحبّني يا وليد، في تلك المرّة الأولى التي جئتني فيها لتتخلّص من همومك، وتلقي مِن على عاتقيك حزنَك الذي فاق احتمالك، وجئت تنتقم فقط

لكبريائك كنت تكرهني، أو بمعنى أدقّ كنت لا تشعر بي مِن الأساس، تمنّيت من الله أنْ تحبّني في تلك اللحظة فقط، لحظة واحدة في العمر، خشيت ألّا تتكرّر، كانت كافية لتمنحني الحياة، فدعوت الله بانفطار قلبي أنْ يقذف بقلبك الحبّ لي في هذه اللّحظة لأنني منحتك فيها كلّ ما بقلبي من حبّ لم يعرف النور إلّا في عينيك لأظلّ أذكرها أوّل وأجمل لحظة احتواء حقيقيّة عشتها كاملة حتّى الارتواء، وإنْ كنت لن تعدْ بعدها أبدًا.

_ولكنّها ستتكرّر كثيرًا، بهذه الغرفة التي تبعث على الراحة، كم جميل أنْ أشارك حبيبتي عالَمها الصغير وفِراش الطفولة، هيّا.. تنحّي جانبًا كي أتمدّد بجوارك "هنا".

_ماذا تفعل أيّها المجنون!! سوف تدخل أمّي في أيّ وقت.

_ أنت لا تعلمين كيف يعصف بي الشّوق إليكِ، تعالي لأجعلك تعرفين.

وبينما بدأت الأعين تتلألأ بنداء الشّوق العميق والأيدي العطشة تتشابك بالحنين والأنفاس الدافئة تتعانق والنّهر العذب بين القلوب يتدفّق ليفيض ليغمرهما فرحًا وارتواءً؛ سمعا رنينَ الباب، فاعتدلًا في جلستيْهما حين دخلت الأمّ تخبرهما بأنّ جومانة قد حضرت للاطمئنان على "هنا".

_ نحن هُنا يا جومانة ادخلي.

ناداها وليد بصوتٍ مرتفع لتعرف بوجوده.

دخلت جومانة إليهما، وتفاجأت بوجود أبيها، الذي كان سعيدًا برؤيتها دون اتّفاق، ثمّ بادرت:

_ميس "هنا"، علمت أنّك غميت بالصفّ، وقالوا إنّها أعراض حمل، فجئت لأطمئنّ عليك.

أمسك وليد بيدِ ابنته وسحبها إلى جواره، وأحاطها بذراعه، ثمّ قبّل جبينها قبلة عميقة امتنانًا لها.

ابتسمت "هنا" وقد غمرتها السّعادة إلى حدٍّ لم تستطعْ أن تعبّر عنها بالكلمات.

ثمّ قالت الأمّ:

_ لقد حضرت لكم الطعام.

فقالت جومانة متلهّفة وهي مازالت بحضن أبيها:

_الملوخية التي أحببتُها يا جدّتي؟

نظر وليد إليها مندهشًا، فقالت له:

_ لقد تذوّقت الملوخية الرّائعة هُنا من يدِ الجدّة من قبل، وأعرف هذه الغرفة جيدًا، إنّه عالم ميس "هنا" الصّغير، وقد رأيت أيضًا رسومَها البديعة.

ردّت الأمّ العجوز في سعادة بالغة، ربّنا يجمعكم دومًا ولا يفرقكم أبدًا.

وعلى المائدة وهُم يتناولون الطّعام، كان جوّ من الألفة يسود بينهم، جوّ العائلة الجديدة، لم تشعرْ جومانة بالغربة، ولم يشعر وليد أنّه يجب عليه أن يحمل هَمّ المُحافظة على شعور ابنته، أو شعور زوجته، كلّ شيء كان تلقائيًّا عفويًّا لم يكنْ له ترتيب، وإنّ أجمل اللقاءات دومًا، هي تلك التّلقائية بلا ترتيب ولا حسبان، التي يقودنا إلى سحرها القدر.

_ ما اسم أخي الجديد؟

سألت جومانة وهي تأكل الملوخية بنَهَم.

_ اختاري له اسمًا؛ فأنت أخته الكبرى. (ردّ وليد).

_حسنًا، نسمّيه حمزة الثّاني، إنّه سيزجّ بحمزة الأوّل الولد الوحيد المدلّل للجيش، هل تعلم أمّي ذلك؟

تلاشت الابتسامة من على وجه "هنا" سريعًا، بينما شرد وليد في كلمتها قليلًا وهو يعرف أنّها خرجت بعفوية ولم يكن من ورائها مقصد، ثمّ قال مداعبًا، محاولًا تجاوز الأمر وتخفيف حدّة التوتر:

_ إنْ علمت أمّك أنّك تأكلين الملوخية بهذا النّهَم، وأنت لا تأكلينها عندها؛ سوف تلقي بك إلى الشارع، وأنا معك، ونصبح أبًا وابنتَه مشرّدين كأنور وجدي وفيروز.

ضحكت جومانة، ثمّ أكملت مداعبة لأبيها:

_ لو علمَتْ أنني أنا وأنت هُنا؛ سوف تطلق علينا الرصاص.

استمرّ وليد في المزح:

_ ونموت شهداء الملوخية، نموت نموت وتحيا الملوخية.

_ حسنًا لن أخبرها، كم ستدفع؟

_ آه، كنت أتوقّع هذا الابتزاز، هذه حقًا ابنتي، تلك الشّبلة من ذاك الأسد.

كانت جومانة تضحك مع وليد، بينما كانت "هنا" تبتسم ألمًا وهي تعرف أنّ هذا الأمر لن يمرّ على شيرين بهذه البساطة.

وبعد انتهائهم من الغداء، طلب وليد من "هنا" أن تجهّز نفسها للعودة معه إلى البيت،

وكانت هذه هي لحظة الفصل، اللحظة المرتقبة، العصيبة، الحاسمة.

***

لأنّ الشوق جرحي ومعصيتي
قد يبرأ الجرح والتّذكار يحييه
قلبي وعيناك والأيام بينهما
درب طويل تعبنا من مآسيه
إن يخفق القلب كيف العمر نرجعه
كلّ الذي مات فينا كيف نحييه
اشتاق ذنبي ففي عينيك مغفرته
يا ذنب عمري ويا أنقى ما فيه
ماذا يفيد الأسى
أدمنت معصيتي
لا الصفح يجدي ولا الغفران أبغيه
إني أرى العمر في عينيك مغفرة
قد ضلّ قلبي فقولي كيف أهديه

لم تستوعب شيرين ذلك المشهد المزلزل لكيانها، والذي رأته بعينيها الذابلتين خلف غيمة ألمٍ انهمرت بدموع القهر والانكسار، وهي ترى زوجَها وابنتها يدخلان في صحبة امرأةٍ أخرى غريبة عنها، لم تعدْ تطيق أن ترى ملامحها، يفرضها على حياتها القدر فرضًا..

ظلّت عالقة بنظرات ثاقبة حادّة إلى عيني وليد ترشق بهما سهام الغضب الأليم والحزن الشّديد على العمر الذي ضاع، وصرح الثقة الذي تصدّع، ومملكتها التي بدأت في الانْهيار وقت رأت تلك الأخرى عائدة بيده لتغزوها، منتصرة على كبريائها.

ثمّ طلب وليد من جومانة أنْ تصعد إلى غرفتها، ففعلت بعدما رأت أنّ حربًا ضروسًا يلوح غبارها في الأفق أوشكت على الاندلاع، ثمّ بادر وليد قائلًا لشيرين بهدوء:

_ "هنا" حامل.

وكأنّ جدران الروح تهدّمت وسقطت في زلزال الكلمة التي ضربت صرح الحبّ الكبير الذي تشقّق، ثمّ انْهار وكأنّ الليل خيّم بوحشته زاحفًا على الأمل الأخير يغتاله غدرًا في قلب آمن، قلب نازف بات يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولكنّه لن يموت في تلك اللحظة أبدًا منهزمًا، فابتسمت شيرين ابتسامة حنق قاسية، قائلة:

_ لذلك عدتَ بها إلى بيتي؟

_ شيرين..

قاطعته ووجّهت كلماتها إلى "هنا" بتهكّم يكظم ثورة بركانها:

_ أظنّك الآن قد حصلت على نصيبك كاملًا من الصّفقة المبرمة اللعينة، وأصبح لكِ ولد يغنيك عن أولاد الآخرين بعد فوات الأوان، يا لسخرية القدر.

ـ أظنّ أنّ كلانا قد أخذ ما يريد من هذه الصّفقة، لقد رعيت لك زوجك وأولادك حتّى شفاءك التّام، وقد حظيت بولدٍ لي قبل فوات الأوان، لا شيء في الحياة بلا مقابل.

أجابت "هنا" بهدوء لتتجنّب الانفعال الخطر على جنينها.

ـ إذًا، لك ولدكِ ولي حياتي، زوجي وأولادي، اخرجي من حياتنا كي تعود كما كانت قبل وجودك الخاطئ بها. إن كنت حقًا تلتزمين أخلاقيًّا بالوفاء بالعهود.

ردّ وليد منفعلًا:

ـ كفى شيرين..

وهُنا انفجرت ثورة شيرين عن آخرها، فاندفع وابلُ الكلمات منها كالحمم الحارقة تنصهر على مسامعهم بلا هوادة:

ـ لن أصمت، ولن تشاركني امرأة أخرى مملكتي، حتّى وإنْ كان لها ولدٌ ضمِنَ لها حقوقًا مادية أكبر من طموحاتها في هذه المملكة.

ـ لم أعدْ إلى هُنا من أجل حقوق ولدي المادية يا دكتورة، لا أحد يضمن الحياة والموت مثلك، عدت ليربّى ولدي بين عائلته وبين إخوته، لا أريده أنْ يعرف اليتم والحرمان، وأبوه وإخوته على قيد الحياة، هذا شعورٌ لن تعرفيه أنتِ فإنك لم تعرفي اليتم مثلي.

ـ لن تثيري شفقتي بهذه الدّراما الرخيصة، فالتي باعت كرامتها في أوّل مرّة من أجل صفقة متبادلة المصالح، وقبلتْ أن تكون زوجة ثانوية مهمّشة لرجل له زوجة تكفيه وقت كان لا يطيق أنْ يراك ربما كان ينفث عن همومه باستخدامك لأنه كان يرعاني، ولا يحمّلني فوق طاقتي وقت المرض، وها قدْ شفيت وانتهى دورك،

وعاد زوجي إليّ، لن أصدّق أنّ التي قبلت وضعَ المهانة يومًا قد أصبحت اليوم ملاكًا بأجنحة وأصبح لها كبرياء تدافع عنه، إن كان هناك شيء من الكرامة باقٍ عندك فخذي ولدك وربّيه بعيدًا، واحمدي الله على أنّه منحك الولد في هذا السنّ اليائس، ولا تخربي حياتنا ظلمًا فيردّه الله إليك.

_قلت لك اصمتي يا شيرين..

قال وليد وقد بدأ يفقد شعوره بالاتزان، وقد تأجّج البركان بداخله إلى حدّ لن يستطيع أن يمنعه من الانفجار.

ثمّ ردّت "هنا" بغضب لم تستطع كبحَ زمامه:

_ عن أيّ ظلم تتحدّثين؟ انظري إلى نفسك وأنت تتحكّمين بمقاليد القدر من البداية وكأنّك تملكينه وحدك، تتحكّمين بحياتنا من أجل أن تستقرّ حياتك، تحرّكيننا كيفما شئت، وكأنّنا بلا شعور أو مسلوبي الإرادة، ألم يكنْ هذا ظلمًا؟ كلّ ما تفعلينه لن يغيّر أبدًا مشيئة القدر لصالحك وحدك.. وستخضعين للمشيئة الواقعة عاجلًا أم أجلًا، وإنّي كنت حاسمة للأمر ولازلت... سوف أرحل بولدي وأعيش بسلام، فإنّي لن أستطيع أن أتنفّس هُنا.

_ ليس قرارك وحدك يا "هنا"، إنّه ولدي أيضًا. (قال وليد)

_إنك أنتِ الظالمة، ارتضيت أن تهدّين صرحًا عظيمًا وبيتًا مترابطًا لتبني فوق حطامه سعادتك المؤقّتة لأنّي أثق أنّها سوف ستزول وتنتهي ومصيرها بالنهاية إلى نسيان. (قالت شيرين بأسًى وتحدّ).

_ أنتِ مَن بدأت الظلم يا دكتورة، أنت مَن تلاعبت بحلمي الكبير واقتحمتِ سكوني واستغللتِ حاجتي للأمان، ولا يحقّ لك أن تحسابينني الآن على حبّي لزوجي الذي سكنني ولن أنكره أبدًا، لا أريد محاربتك ولن أتعاطف معك مرّة أخرى

كي لا أظلم نفسي مجدّدًا، ورغم حبّي الكبير لوليد إلّا أنّني سأكتفي منه بولدي، قطعة منه ستكبر معي تسعدني إلى آخر العمر لن تزول.. ولن يزول هذا الحبّ بيننا مهما حاولت أنْ تقتليه.

_كفى، اصمتا أنتما الاثنتان..

انفجر وليد، وقد انفلت زمام الغضب بداخله:

_ لستُ ملكًا لأحد منكما لتتقاذفاني بينكما بكل استخفاف وكأنّني بلا إرادة ولا شعور، مَن سمح لكما أنْ تتلاعبا بكرامتي وشعوري بهذه الطريقة المقيتة، بأيّ حقّ؟ أنت أيّتها الطبيبة العظيمة التي ضحّت وضحّت ومنّت عليّ بحبّها، وتذكّرني دومًا بالتّضحيات العظيمة وكأنّني وغدٌ خسيس لم أمتنّ أبدًا لهذه التضحيات، وكأنّني من الأساس لم أضحّ مثلها لقيام هذا البيت صامدًا أمام العواصف، ألم تشعري يومًا كم تحمّلت من آلام وحيدًا، ومن المشقة والجهد في حياتي وعملي من أجلك ومن أجل هذا البيت؟ لم أفكّر يومًا في أنْ أخونك كما يفعل كلّ هؤلاء الذين يصيبهم الملل من زواجهم بعد بضعة سنوات لأنّي أتّقي الله، ألم يكنْ ذلك دليلًا على حبّي لك؟ إنْ كان الحبّ الذي تؤمنين به مشروطًا بالامتنان الدائم لتضحياتك العظيمة ومنحك الحقّ المُطلق في التملّك والتّحكم بقلبي وقراراتي على حساب شعوري وكرامتي؛ فلا أريده.

_وأنتِ أيّتها المضحّية الأخرى التي ظلمت نفسها بزيجة ثانوية وضحّت بنفسها بكلّ مثالية من أجل أنْ ترعى عائلةً تواجه الموت لمجرّد أنّها تحلم بأولاد ترعاهم لظنّها أنّ الله قد نساها بين البشر، ها قد رزقك الله بالولد وحقّق حلمك الكبير الذي تحملت من أجله كلّ هذا العذاب، الآن تتركين كلّ شيء ببساطة وتكتفين به تجاهلًا لألمي بكلّ ارتياح!!؟ وكأنّني لم أعنِ لك شيئًا، إنْ كنت قد حقّقت رغبتك على حساب

حبّي لك وتمسّكي بك وأنت لا تفعلين أيّ شيء لتتمسكين بي واكتفيتِ فقط بولدِك من دوني فإنّني أدركتُ الآن كم خدعتِني بالحبّ الزّائف.

_أيّ أنانية أراها من زوجتيْن لم أقصّر ناحيتهما في أيّ شيء، أيّ حرب شعواء تشتعل من أجل كبرياءٍ وهمي، لو كنت خائنًا لكنت في وضع أكثر إنصافًا ممّا أنا فيه الآن، وكنتما ستتغاضيان عمدًا عن الخيانة، إنّي لا أرى ما تفعله كلّ منكما سوى مُتاجرة وضيعة بحقّي أنا في الأمان، وشعوري لكما بالحبّ، وتمسّكي بكما للاستقرار، لتحتكر واحدة قلبي بأكمله بقبضتها وحدها، وتبيعني الأخرى بكلّ بساطة، وتتركني رغم حبّي لها من أجل الاكتفاء بولدها. لن أسمح بهذا الوضع المهين أن يستمر، هذا قراري الآن الحاسم والأخير، ولن أقبل بعده كلمةً منكما..

"إمّا أنتما الاثنتان معًا بحياتي، وإمّا ولا واحدة منكما ستبقى بحياتي بعد الآن".

نظرت شيرين إلى وليد نظرة عتبٍ مريرة أخيرة تحطّم بها آخرُ أمل ضعيف، نظرة طويلة حزينة على انْهيار صرح الحبّ العظيم في لحظة اختيار صعب، والدّموع تتساقط كالجمر في صمتٍ قاتل تحرق زهور العمر البائد، ثمّ قالت بصوت متهدّج بالألم:

_ إذًا.. لقد حانت النهاية يا وليد، لن أكون بحياتك بعد اليوم.

ثمّ نظرت إلى "هنا" في انهزام تامّ، وهُرعت تلملم شتات روحها المحطمة بغرفتها التي تساوتِ اليوم بالمقبرة من شدّة ظلمتها.

ثمّ نظرت "هنا" إلى وليد، وكادت دموعها تحفر مجرى من الألم على وجنتيها قائلة:

_إنّي أحببتك يا وليد قبل أن تحبّني، حتّى وإنْ لم تصدّق ذلك، وإنّي لا أتخلّى عنك ببساطة، ولكنك أولى بحياتك الأولى، وأظنّ أنّنا وصلنا للنهاية التي حسمتها أنت الآن، فنحن الاثنتان أصبح لنا نفس المصير.

خرج وليد من البيت مختنقًا، واستقلّ سيارته إلى حيث اللا طريق، ثمّ صعدت "هنا" لتحزم حقيبتها للرّحيل الأخير بما تبقّى فيها من روح للحفاظ على ولدها.

أحيانًا ما نوضع في تلك الاختبارات الصعبة في اللحظات العصيبة، ولا يكن أمامنا سوى الاختيار بين السيئ والأسوأ، ورغم ما ننطقه من كلمات كالرصاص لنخفي ما بداخلنا من خوفٍ وصراع ومِن ألم نتمنّى في تلك اللحظات أن نسمع من بين تلك الكلمات كلمة واحدة فقط تعيدنا إلى الطريق الصحيح، تنير لنا العتمة التي ضللنا بها، كلمة تنقذنا من الموت تعيدنا على قيد الحياة، تعبُر بنا هذا السدّ المنيع من المستحيل، كلمة واحدة من قلب المحبّ هي "إنّني باق" ولنْ أرحل وأتركك وحيدًا تصارع الأيام الظّلماء بدوني، تموت وحيدًا بين وحشتها، تعود إلى الملل يقتلك ببطء يسحب روحك منْك في استسلام تامّ لأنك فقدت الأمل الذي كان بإمكاني أن أظلّ أحْمله لك كشمعة تضيء طريقك المُعتم كي لا تتعثّر في أحزان الطريق، فتصبح كيانًا محترقًا من بقايا الأمنيات، ممزّق الرّوح، منفطر القلب، تعتاد الألم بلا اكتراث، وما أسوأ أن يمضي الإنسان بقيّة حياته باهتًا معتادًا للألم.

مرّت الأيام ولم يعدْ وليد إلى البيت، وقد عادت "هنا" إلى بيت أمّها، ولم يحاول أحدٌ منهم الاتّصال بالآخر، وأمّا شيرين فقد كانت تتأهّب لمعركتها الكبرى التي تخاطر فيها بنفسها للانْتصار على المرض وهزيمته الهزيمة الأخيرة أو الاسْتسلام الأخير للموت، وقد تحدّد ميعاد عمليّتها بعد أيام.

عاد وليد ليمارس عملَه بالمشفى بعد أن نحّى الحزن جانبًا عمدًا، عاد صامتًا واجمًا يعمل طولَ اليوم متواصلًا في صمتٍ حتّى يسقط من التّعب، فينام هاربًا من الصراع ومِن الألم.

كان يوسف يحاول طيلةَ غيابه الاتّصال به، ولكنّه كان لا يردّ على أحد، حتّى جلس معه في ذلك اليوم بعد انْتهاء العمليّات متأخّرًا:

_ ماذا حدث يا وليد؟

_لا أريد أن أتحدّث يا يوسف، لقد انتهى الأمر.

_ ليس بهذه البساطة تنتهي حياة طويلة وصرحًا من الودّ والعشرة، وينهار بيتًا كان قائمًا على الحبّ منذ بدايته.

_ لا، لقد كان قائمًا فقط على حسن الاختيار، إنّك لا تعرف الحبّ، لا تعرف كيف يباغت القلب في أيّ وقت، وأيّ ميعاد دون أسباب ولا ترتيب ولا حسبان.

_ حسنًا، ولكن "هنا" لا تحبّك بهذا القدر.

_ مَن أخبرك بذلك؟

_ ولنفرض أنّها تحبّك وأنت تحبّها، ما ذنب شيرين؟

_ لا ذنب لها، ولا دخل لها في القدر، لا هي ولا "هنا" ولا أنا، ولا أيّ أحدٍ على وجه الأرض، لماذا لا تفهمون أنّ الحبّ الحقيقي ليس نزوة عابرة؟ لماذا لا تفهمون أنّ الإنسان يمكن أنْ يضحي بمال أو بجاه أو بأيّ شيء يستطيع تعويضه إلّا قلبه؟ لماذا نتبع القطيع في الفكرة الرّاسخة بمعتقداتنا العقيمة أنّ الزوجة الأولى هي الحبّ الأوّل والأخير، وأنتم تعلمون جيدًا أنكم تخدعون أنفسكم، وإلّا لماذا يخون أغلب الرجال حبّهم الأوّل والأخير؟

إنّي عشقت يا يوسف، وهذا قدرٌ ملكني ولا أملكه، لست خائنًا لأتلاعب بإحداهما أو بكلتيهما، وكان على الاثنتيْن اللتيْن تدعيّان حبّهما لي أنْ تتسامحا لأنهما تعرفان أنّ الحبّ مقرون بالتسامح، كان عليهما أنْ تسعدا لسعادتي معهما، فإنّي لم أقصّر، ولكنّهما تريدان كلّ شيء كما خطّطا هُما له دون أي اعتبار لإرادتي وشعوري.

ولكنْ لا أحد يتسامح عندما يتعلّق الأمر بمصالحه ورغباته، لنْ أنصاع لأفكار المنطق الغبي التي تؤمنون بها ظاهرًا وتفعلون عكسَها باطنًا في هذا المجتمع المختلّ،

وإنّي رجلٌ قوي كفاية، سوف أتجاوز محنتي وأمضي في الحياة بلا قيد يكبّلني وأسر يخنقني لمجرّد أنّني كفرت عندما أحببت.

إنْ كان الحبّ كفرًا بأعرافكم العقيمة التي تبيح لي الخيانة سرًّا لتقبلها الزوجة الأولى وتتجاوزها فوق كبريائها ولا تقبل الحلال واضحًا من أجل ألّا يمسّ كبرياءها فإنّي كفرتُ بأعرافكم.

_اهدأ يا وليد، لم أرَك بمثل هذه الحالة من قبل، وإنّ شيرين في حالةٍ نفسية أسوأ جدًّا، لا أدري كيف ستخضع لتلك العملية بعد بضعة أيّام، هذا ما جعلني أتحدّث معك.

_ هل تحدّد ميعاد العملية؟

ألم يكن لديك علم؟ لقد أخبرتْ شيرين كلّ العائلة، وسوف تبقى غادة وأمّك مع الأولاد. والوضع أصبح صعبًا ومتوتّرًا لدرجة كبيرة يا وليد، تعلم أنّها بهذه الحالة ربّما لا تنجو.. فإنّي أرجوك أن تبقى بجانبها في هذه المحنة العصيبة كي تمرّ منها بسلام.

_حسنًا يا يوسف.

_ وأمّا عن "هنا"، فربّما الأيام القادمة قادرة على جعلها تتجاوز محنتها، وتجعلك ترى الحقائق بشكل أوضح عندما تعود إلى حياتك الأولى، ووضع الاستقرار.

_ أخشى عليها كثيرًا، حملها حرج، إنّها تحمل طفلًا ثمينًا لن تتنازل عنه حتّى ولو دفعت حياتها ثمنًا.

_ لا تخشَ عليها، الله يرعاها ويدبّر لها أمرها.

دقات الساعة الصاخبة تُصدر ضجيجًا مرعبًا كلّما تقفز من دائرة الزمن قاطعة جزءًا من أرواحنا في أصعب لحظات الانتظار، هكذا كانت ترهبها شيرين وهي

تستعدّ لخوضِ المعركة الأخيرة، وهي تواجه اللّحظة الأصعب من الموت، وهي مواجهته، وما أضعف الإنسان في لحظةِ مواجهة الموت حتّى وإنْ كان يتظاهر أمامه بالقوّة والشّجاعة.

دخل وليد إليها فانْهارت فرحًا وخوفًا، قبّلها وضمّها إليه بقوة حتّى تهدأ، ثمّ قال لها متحمّسًا:

ـ إنّك عزمتِ على هزيمة ذلك المرض نهائيًّا، وستفعلين، إني أثقُ بك.

ثمّ طلبت من الجميع الخروجَ من الغرفة وبقيت معه تنظر إليه بشوق بليغ قائلة من بين دموعها المنسابة على وجهها:

ـ وليد، إنْ كنت تحبّها فاذهبْ إليها إنْ فارقتُ الحياة، سوف أتمنّى لكما حياةً سعيدة معًا.

ـ لا داعِ لهذا الكلام الآن يا شيرين.

ـ بل هو الآن، إنّ أصدق الكلمات لا تقال إلّا في اللحظات الأخيرة، اسمعني يا وليد، لن أحتمل أن أراك معها إنْ شُفيت، إنّ الموت أهون، صدّقني هذا الأمر ليس بيدي، إنّي أحبّك وأحتاج إليك وليس لي وطن سواك، أمّا هي فحقّقت حلمها بالولد، ويمكنها أن تستكمل حياتها مع فارس أو غيره، لن ينساها الله.

ـ الله لا ينس أحدًا يا شيرين.

ـ وليد، هذا آخر ما أطلبُه منك قبل استسلامي لمصيري، آخرُ شيء في حياتي يا وليد، لا تتركني.

ـ لن أتركك.

ـ ولا تُبقيها معي، اتْركها من أجل أن أعيش من أجلك أو أموت مرتاحة، طلّقها.. وإنْ هزمني الموت عدْ إليها كما تشاء.

صمتَ وليد صمتًا موجعًا، ثمّ حاول أنْ يقول شيئًا ولكنّ توسّلات شيرين كانت قاسية جدًّا على نفسه، كانت مكبّلة لأنفاسه، محطّمة لأمله، منهكة لقلبه.

ـ هل تذكر يا وليد كلّ يوم حلوٍ مرّ علينا في حياتنا الكبيرة معًا، والتي لم نعرف فيها الخوف من الفقد والألم يومًا، أرجوك لا تقتلني لتعيش هي على حطامي.

وبعد صمتٍ ووجوم كان يحطّم قلبه المسكين، وصخب الساعة النّاخر للروح، وإشارات القدر المحتوم؛ قال وليد مستسلمًا:

ـ حسنًا، سأفعل.

ابتسمت شيرين ابتسامة فرحٍ عميق من بين كلّ الخوف، وانْهمرت الدموع الغزيرة، ثمّ احتضنته للمرّة الأخيرة، قائلة:

ـ عِدني بذلك، وإنّي أعرف أنّك لن تخذلني.

ـ أعدُك شيرين.

ـ قل لي إنّي حبيبتك.

صمت وليد برهةً قاسية على نفسه، ثمّ قال باستسلام:

ـ أعدُك حبيبتي.

في تلك اللحظة، اندفع الأمل الجديد يتدفّق بروح شيرين بقوّة اجتاحت اليأس والألم وهزمهم على أعتاب القلب المجروح عندما أشرقت الشمس الغائبة بالأعماق.

مرّت السّاعات الطّوال بغرفة العمليات تتضرّع فيها القلوب الخائفة الراجفة إلى الله حتّى تنقشع الغيمة الحزينة وتعود الشمس إلى الحياة.

ـ أبي، هل أمّي في خطر كبير؟

قالتها جومانه وهي تذرف دموعها الحارة خوفًا من الفقد..

ضمّها وليد إلى صدره قائلًا بيقين:

_ سوف تكون بخير يا حبيبتي، مِن أجلنا.

وبعد تفكير عميق في قلب المحنة بقلبٍ مهزوم وأملٍ أخير يأبى أنْ يموت، اتّصل وليد بـ "هنا" وقد تفاجأت باتّصاله، وكانت في تلك الفترة تلتزم الرّاحة التّامة بالبيت حسب تعليمات الطبيب:

_ كيف حالك يا وليد؟

_ لست بخير يا "هنا".

_ ما الأمر؟

_ شيرين بغرفة العمليات الآن تجري العملية الأصعب والأخيرة، أخشى عليها، وعليك، لا أستطيع أن أعيش بدونكما يا "هنا"، ما الحلّ؟

_ الحلّ بيدك يا وليد.

_ لماذا يمنحنا القدر أصعب الاختيارات التي تمزّق الروح وترهق القلب، لماذا يسلبنا السّعادة التي لم نكنْ نعرفها بعد أنْ عرفناها وتذوّقناها كي تبقينا على قيد الحياة لنعود إلى وضع الظّلام بعد النور، لنضلّ الطريق بعد أن اهتدينا، لنعطش بعد أن ارْتوينا، إني ضائع مشتّت، لا أستطيع أن أختار شيئًا بحياتي في تلك اللحظة وأنا الذي أتّخذ أصعبَ القرارات في حياة الآخرين.

_ لا تتركها يا وليد، هي في أمسّ الحاجة إليك.

_ وأنتِ؟

صمتت "هنا" كي تخفي حرقة دمعاتها، صمتت لكي لا تستسلم لضعفها أمامَ قلبه الحزين.

كان وليد يريد أن يسمع كلمةً واحدة منها، تجعله يخلفُ وعدَه لأوّل مرّة، كلمه واحدة منها كانت كافية لأنْ تروي عطش قلبه المتمسّك بساكنته..

_ لماذا تسكتين؟

_ ماذا أقول؟

انفعل وليد من فرط الضّغط الهائل على أعصابه..

_ قولي أيّ شيء، أيّ شيء يجعلني أشعر أنّ ما عشته معك كان حقيقيًّا، ولم يكن عابرًا زائفًا لغرض ودونَ حساب.

_ كان حقيقيًّا لدرجة أنّه لن يتكرّر يا وليد، ولكنّنا الآن في مفترق طرق، طرق تقاطعت قدرًا ولكنّها لم ولن تصبح طريقًا واحدًا، وعليك أن تخضع لعقلك لا لقلبك وتمضي في الطريق الذي قطعته من البداية وحقّقت فيه كلّ أحلامك الكبيرة، وبنيت فيه صرح حياتك الأولى حتّى لا تخسر كلّ شيء في النهاية.

_إنّك تحكمين علينا بالموت بكلّ قسوة، وإنّك للمرّة الأخيرة تتركين يدي.

_الحبّ الذي يجعلني أحافظ على قطعةٍ منك بحياتي كي أحيا، هو نفسه الحبّ الذي ملأها هي كي تصارع الموت من أجلك، هو ذاته الحبّ الذي سكنك أنت لتشعر بطعم وقيمة الحياة، الحبّ باق فينا حيّ لا يموت، وإنّما الفراق لا ينهي الحبّ يا وليد، ولا يقتله، بل يحفظه نقيًّا لنحيا به، وإنْ كان من الفراق بدٌّ كي تستمرّ الحياة ويستمرّ الطريق لنهايته؛ فيجبُ الفراق.

_ حسنًا يا "هنا"، يجب الفراق.

هكذا غربت شمس أضاءت القلبَ قدرًا في عتمته لتعود شمس أخرى قبل مغربها على قيْد الحياة.

عيناك كنهْري أحزاني

نهرَي موسيقي قد ضاعا

ثمّ أضاعاني

هل أرحل عنّك وقصتنا

أحلى من زهرة جاردينيا

في عتمة شعر إسباني

إني نسيان النسيان، إني مرساة لا ترسو

جرح بملامح إنسان

فأنا لا أملك في الدنيا

إلّا عينيك وأحزاني

ضيّعني دربي ضيّعني، اسمي، ضيّعني عنواني

أأقول أحبّك يا قمري، آهٍ لو كان بإمكاني

خرجت شيرين الى الحياة بعد مرور الوقت العصيب، وقد كتب لها الله النجاة، ثمّ خرج الطبيب يخبرهم بابتسامةِ الحمد والطمأنينة أنّ المرض قد هُزم أخيرًا.

مرّت ساعات الانتظار العصيبة، حتّى استفاقت شيرين تحملُ في قلبها الشمس تشرق على الدّنيا بعمر جديد، وما أن أمسكت بيد وليد ونظرت في عينيه نظرة حبّ طويلة، سألته:

_ أوفّيت وعدك يا وليد؟

_ نعم، وفّيْت.

مرّت الأيّام ودبّت الحياة في البيت الباهت تضفي لونًا من السعادة بعد غياب طويل، وأشرقت الرّوح بالأمل في وجهه وبهائه، وعاد الخفقان يسري في قلب الجسد الهزيل، وعادت الابتسامة الحقيقيّة ترتسم على الوجه الهادئ المضيء بألوان الحياة، عادت شيرين بكامل طاقتِها تستأنف حياتها الطبيعية بنشاط يعوّضها عن أيام الوهن والاستسلام، عادت لعملها، لرعاية أولادها بطاقة حبٍّ أكبر وفيض أكبرَ من الحنان، عادت للاهْتمام بوليد بصورةٍ فائقة، لقد أصبحت إنسانًا جديدًا محبًّا للحياة والتي عرفت قيمتها عندما واجهت الموتَ بشجاعة، لقد عادت الحياة المستقرّة إلى طبيعتها بعدما انتهت العاصفة، ورحل الغرباء، ولكنّ وليد الذي قد تظاهر بعودته إلى الوطن الأمّ؛ هو الذي لم يعدْ.

مرّت الأشهر وكانت "هنا" قد بدأت تعتادُ الفراق وتخمد الألم الذي أحرق قلبها، وقد هزمته بعناءٍ بعد الطلاق، تصبّر نفسها بحلمها القادم في الطريق، لينير العتمة بقلبها ويملأ الفراغ بروحها، بل ويلوّن الحياة الباهتة بأنفاسه المنتظرة، كانت تقوّي نفسها بعزيمة قصوى من أجل هذا الأمل الأخير ليصل سالمًا إلى عالمها ليشاركها به، ليتجسّد الحلم الباقي من الحبّ الكبير، وهي في أمّس الحاجة إليه.

وفي زيارة الطبيب الأخيرة للمتابعة، صدمها بما لم يكنْ بالحسبان، طعنها في مقتلٍ بلا رحمة في صميم قلبها:

_ للأسف مدام "هنا"، أعلم كم أنّ هذا الطفل ثمين جدًّا بالنسبة لك، إلّا أنّنا نواجه الآن خطرًا كبيرًا على حياتك وحياته، فإنّ أولى علامات تسمّم الحمل تظهر أمامي بوضوح، ارتفاع بضغط الدم سيحتاج إلى متابعة دقيقة حذرة، وأعتقد أنّ ذلك الخطر لن يمنح الجنين الحياة طويلًا، خاصّة إنْ تأثرت المشيمة والتي في وضعٍ غير طبيعي، وربّما كان خطرًا عليك أنت إن اكتملَ هذا الحمل لوجود احتمالية عاليةً لحدوث نزيف حادّ لشريان الحياة بينكما أثناء الولادة، وربّما الاسوأ من ذلك ألا وهو انفجار الرحم، إنّي آسف أنْ أخبرك بذلك، ولكن يتحتّم عليّ أنْ أخبرك بخطورة الوضع.

بكتْ أمّ "هنا" مستسلمة لمشيئة القدر، متضرّعة إلى الله، سائلة الرحمة والثبات على هذا المصاب، وأنْ يهوّن على قلب ابنتها وقْعَ الصدمة، بينما كانت "هنا" تسمع الطبيب بشيء من الوجوم، لقد رفض عقلُها أن يصدق أنّ حلمها الاخير لن يكتمل.

ثمّ سألته بوهنٍ وصوت مُرتجف، بقلبٍ يخشى أن يصدق أنّ الحلم أوشك على الرحيل قبل أن يتحقّق وتلمسه:

_ ما مدى خطورة الأمر يا دكتور؟ هل سأفقد ابني؟

_ في حالات الخطر الواضح على حياة الطفل أو على الأمّ يجب أن ننهي ذلك الخطر الذي سيودي بحياةِ أحدكما أو كلاكما معًا قبل فوات الأوان يا "هنا".

صرخت "هنا" صرخةً مدوّية اهتزت لها الجدران والسماء:

_ لا، لن يموتَ ولدي، أسمعت!! لن أفقده، ولن أموتَ حتّى آراه، لن يأخذه الموت منّي أبدًا.

ثمّ غادرت وهي في حالةٍ من انعدام الرؤية والوعي، في حالة من الضّياع التّام، عادت إلى البيت، أغلقت غرفتها عليها، تختبئ من الظنون، من شبح الموت اللعين، تطاردها الكوابيس بأنّ هؤلاء الأطباء عديمي القلب يجرّونها جرًّا ليذبحونها ويبقرون بطنَها بلا رحمة، ويئدون حلمَها الوحيد وأدًا أمام عينيها، كلّ ليلة كانت تصرخ في عتْمة الليل وفي وضح النهار، تقاوم بما تبقّى بها من قوّة تتلاشى أمام الخوف والانهيار.

لم تعدْ تخرج من غرفتها، لا إلى العمل ولا إلى سواه، لم تعدْ تفعل أيّ شيء سوى أن تتوسّل إلى الله تضرّعًا في جوف الليل وأطراف النهار ألّا يحرمها أملها الوحيد الذي تحيا من أجله، وبعده لا تريد شيئًا من هذه الحياة.

بدأت جومانة تلحَظ تغيّر حال أبيها منذ عاد الاستقرار إلى البيت الكبير؛ فقد أصبح واجمًا شاردًا صامتًا في أغلب الأوقات، يبتسم بحزن أو بلا مبالاة، وكأنّه لم يعدْ يشعر بشيء مِن حوله، فقط يعيش ويتعايش من أجل أن تمضي الحياة، في وقتٍ عادت أمّها مشرقةً أكثر ممّا كانت، تملأ البيت بهجة وحنانًا، وكانت أيضا تحزن لما أصاب "هنا" من طلاقٍ وفراق، ولكنّ سعادة أمّها كانت تهزم ذلك الحزن. أمّا وليد فقد كان يمرّر الأيّام مدفونًا في غرفة العمليات، غارقًا بين الكتب والحالات والسّفر كي لا يتبقّى هناك دقيقة خالية تدفع فيها الأعماق المكبّلة بأغلال الألم كلّ الذكريات دفعًا فيتوهّج القلب بالشّوق القاتل عندما ينبض بالحبّ البعيد المستحيل، ورغم أنّ شيرين قد أغدقته بفائضٍ من الحبّ المضاعف والاهتمام الفائق والجهد الكبير الذي كانت تبذله كي ترعاه وتراه سعيدًا بعدَ هذه الأزمة، وقد غفرت له ما أسمتها نزوة عابرة، إلّا أنّها أدركت بحدْسِها الذي لا يضلّ أنّ جزءًا ما قد انطفأ في قلب هذا الرجل، ولا يستطيع ثانية أن يرى النور.

وفي ذات يوم على الغداء، عزمت جومانة السّؤالَ عن أخيها وعنْ "هنا" التي لم

تعدْ تذهب إلى المدرسة منذ انتهت أشهر الأجازة الصيفية والعودة إلى الدراسة؛ حيث أخبرتهم أنّها سمعت من أحد المدرّسين أنها تقدّمت بأجازة طويلة.

تغيّرت ملامح وليد من اللامبالاة المعتادة إلى التوجّس والقلق الذي لم يفلح أنْ يخفيه، ثمّ سألها في ريب:

ـ هل زرتها قريبًا؟

توقّفت شيرين عن تناول الطعام عندما صدمها السؤالُ المباغت من وليد.

ثمّ قالت باستنكار:

ـ زارتها قريبًا؟ وهل زارتها من قبل؟

ردّ وليد بهدوء:

ـ نعم، زرناها من قبل أنا وجومانة.

ثمّ سأل ابنته:

ـ هل تعرفين شيئًا وتخفينه؟

ـ لا يا أبي، ظننت أنّك تعرف فسألتك، لأنّني أظنّها على وشك الولادة.

ـ وتعرفين بالولادة؟ ما شاء الله، وماذا تعرفين أيضًا أخبريني كي أعرف.

(قالت شيرين باستنكار).

ـ لا أعرف شيئًا أكثر ممّا قلت يا أمّي.

ثمّ أكملوا طعامهم في صمتٍ وقد بدا وليد قلقًا وقتَ نظرت إليه شيرين نظراتٍ ترقبه.

وبعد ساعات، دخل وليد إلى شيرين ليتحدّث معها:

ـ يجب أنْ أطمئنّ على "هنا".

كانت شيرين تنظرُ إليه في صمتٍ تعزّي به نفسها على ما فقدته فيه من شغفٍ منذ عادت بينهما الحياة إلى مجْراها، ولم تستطع رغم كلّ ما فعلته من جهد لاستعادته أنْ تحْييه من جديد، إنّه القلب الذي أحبّ، ومازال يسكنه ذلك الحبّ رغمًا وقدرًا، وقد خاب ظنّها في أنْ يكون مجرّد نزوةٍ عابرة، لم يطوِها النّسيان كما راهنت على الزّمان. ثمّ أجابته في أسى:

_ اشتقتُ إليها، أليس كذلك؟

_ أخبرتك لأنّني لنْ أفعل شيئًا مِن وراء ظهرك، إنّما لو أردتِ ذلك فسأفعل.

_ لا داعٍ للتّهديد يا وليد، اذهب أينما شئت، إنّك لم تعدْ ذلك الذي أحببته وتمسّكت بالحياة من أجله، لقد سئمت خداعَ نفسي، افعل ما تريد.

قالت له مُستسلمة للأمر الواقع، وللقدر الذي لم يعدْ بيديها شيء لتغيّره، لم يجبْها وخرج إلى حيث يسبقه قلبُه العطش يركض إلى المطر.

ثمّ ذهبت شيرين إلى غرفة جومانة لتعرف منها لماذا أخفت عليها زيارة "هنا" مِن قبل، فأخبرتها جومانة بكلّ شيء فعلته "هنا" معها، وكيف أنقذتها- هي وفارس- من آسر، وكيف كادت تفقد كرامتها ووظيفتها، كما أخبرتها أنّها زارتها يوم كان أبوها هناك لأنّها عرفت أنّ حملها صعب، وكانت تطمئنّ عليها ردًّا لجميلها، ثمّ قالت لأمّها جملةً أخيرة:

_ إنّها لم تكن لتستحقّ كلّ ذلك الألم يا أمّي، إنّنا لم نحبّها لأنّها أخذت منّا أبي، ولكنّها أحبّتنا لأنّها تحبّ أبي، وإنّي رأيت أبي مازال يحبّها، ولم ينسَها من بعد الفراق.

صمتت شيرين تمامًا، وقد حسم القدرُ مشيئته وقال كلمته الأخيرة.

وفي بيت "هنا"، أخبرته أمّها بكلّ ما حدث، وأنّ "هنا" تتمسّك بوليدها للنفس الأخير، وترفض نصائح الأطباء بالتّضحية به أو إنْهاء الحمل قبل ميعاده، وترفض أن يقترب أحدٌ منها بهذه الأفكار، لقد أصبحت عصبيّة بشدّة، لا تتحدّث إلى أحد، ولا تخرج من غرفتها إلّا للضرورة، وبقيّة اليوم تستسلم للحلم وللنوم.

دخل وليد إليها وكانت مُستلقاة على ظهرها بفراشها أمام النافذة المفتوحة تراقب نجمتها المضيئة بالسّماء، نظرت إليه نظرة خاطفة بطرف عينها، ثمّ أطالت النظر عبر النّافذة، قال لها وليد وهو يشعر بارتجافِ قلبه الذي فقدَه منذ الفراق:

_ كيف حالكِ يا "هنا"؟

_ بخير، سوف أظلّ بخير من أجْل سدرة حتّى يحين الغروب.

_ "هنا"، يمكننا أن نعوّض الولد، ولكنّنا لا يمكن أن نعوّض العمر الذي يضيع في الفراق، لقد جئت إليكِ لأنّني لا أستطيع أنْ أحيا من دونك، فإنّي بدونك تائه بلا وطن وبلا حياة.

كانت "هنا" تنصتُ إليه ولا تجِبْه، ثمّ أمسك يديها ومسح بيده عليها برفق، ثمّ قبّلها من أعماق قلبه العاشق:

_ في هذه المرّة لا أستطيع أنْ أفلت يديك من بين يدي أبدًا.

استسلمت "هنا" للنوم العميق وللهرب من كلّ ما يوجعها في يقظتها إلى ما يسعدها في حلمها، ووليد بجوارها ممسكٌ بيديها لا يتركها، وكأنّها كانت لا تتمنّى شيئًا أكثر من ذلك، وكان هو يرى بعينيه ما آلَ إليه حالها من سوء.

خرج بعد فترة من نومِها العميق، وكأنّها لم تخلد إلى النوم قبل هذا اليوم منذ الفراق الطويل إلّا حين أصابها الأمان المفقود في وجوده، خرج إلى عمله على عودةٍ ووعدٍ

جديد باللقاء. مرّت الأيّام وكانت "هنا" على حالها تتمسّك بقرارها بإكمال الحمل تنتظر المصير الذي تتضرّع كلّ يوم من أجله كي ترى قرّة عينها على قيْد الحياة، وفي كلّ يوم يمرّ كان يزداد الوضع سوءًا وخطرًا على حياتها، وبالتالي على حياة جنينها، فكان قرارُ طبيبها قاطعًا بعد اطّلاعه على فحوصاتها الأخيرة بأنْ ينهي هذا الحمل قبل اكتماله لأنّ كلّ تأخّر ستكون عواقبه غير محمودة.

كان وليد ينجز عملَه بالمشفى نهارًا، ويعود ليطمئنّ عليها في الظهيرة، ثمّ يعود ليلًا بعد انتهائه من عيادته ليبقى بجوارها محاولًا إقناعها بخطورة الأمر على حياتها وحسْم القرار معها قبل أن يعود إلى منزله الأوّل الذي أصبح به ضيفًا لا يطيل البقاء. وقد لاحظت شيرين ذلك وآثرته بنفسها، وذات يوم سألته عن أحوالها تعمّدًا وقد كانت تتردّد في أنْ تسأله من أجل إصرارها على تجاهلها حفاظًا على كبريائها، ولكن حزن وليد العميق الذي أصبح واضحًا جعلها تسأله لمعرفة ما آلت إليه الأمور، فأخبرها بسوءِ الوضع تفصيلًا ولأنّها اختصاصية نسائية فقد أفادته بالمعلومات الطبية عن مثل هذه الحالات، وأنّ احتمالات اكتمال الحمل في حالتها ضئيلة جدًّا، وإلّا سينتهي الأمر بفقد الجنين والأمّ معًا، ثمّ نصحته بمحاولة إقناعها بالرّضا بقضاء الله، وانتظار العوض منه بعد التعافي.

فقال لها وليد في حزن عميق:

_ كلّ إنسانٍ يصارع الموت من أجل شيء ما لن يستطيع من دونه الحياة.

شعرت شيرين بالأسى والأسف، وقالت له:

_ نعم، لقد أدركت ذلك حين صارعت الموت من أجلك.

وفي وقت متأخّر من صمت الليل الطويل، في برودة تسلّلت في تلك الليلة إلى الروح الحالمة، قبضت القلب الحزين قبضة أخمدت فيه شمعة الأمل الوحيدة، المضيئة

في وحْشة الظلام، حين جاء طارق الليل الحزين يحمل فاجعة الخبر، يحمل مشيئة القدر.

ردّ وليد على هاتفه فزعًا، فكانت أمّ "هنا" تصرخ وتستنجد به لينقذ "هنا" التي جاء وضعها قبل ميعاده حين وجدتها تصرخ من الألم، ثمّ بدأت تنزف نزيفًا حادًّا، انتفض وليد من فراشه وخرج يقطع الزمنَ بسيف الأمل راجيًا الله ألّا يريها ذلك المكروه الذي لن تحتملَه في هذه اللحظة العصيبة، وألّا يراه فيها فيفقدها للأبد. وفي الطريق استدعى طاقم العمليات الأكفأ إلى المشفى، ثمّ اتّصل بطبيبها يخبره بخطورة حالتها ليلحقه بمساعديه على وجْه السّرعة إلى المشفى، بينما هُرع هو ليحضر "هنا" في لمح البصر قبل فوات الأوان.

كان وليد يسابق الرياحَ العاتية التي عصفت بقلبه رهبةً في تلك الليلة العصيبة، يحارب زلزال اليأس الذي بدأ يحطّم أمله الباقي بداخله باليقين، كان ممسكًا بيديها في سيارة الإسعاف، قائلًا بكلّ حزم وحسم:

ـ لن أتركك يا "هنا"، لن تتركيني.

وكانت "هنا" تصرخ صراخَ آلام الوضع المعتصر للروح، ولا تعي شيئًا ممّا حولها، كانت المحاربة الضعيفة بدون أسلحة بيديها تصارع الظّنون والخوف والرهبة بداخلها كي لا تفقد الوعي فتفقد أملَها الذي قاومت من أجله، وتحمّلت كلّ العذاب والإهانة لأجله، وفقدت كلّ شيء من أجل الاحتفاظ به وحده لبقية العمر، كانت تتمتم في وهن بعد كلّ صرخة مدوّية:

ـيا ربّ، لا تحرمني أملي الأخير.

دخلا إلى المشفى يستبقا الزمن، الكلّ على قدم وساق، على أهبة الاستعداد القصوى في انتظارهم، فتحت غرفة العمليات الطارئةً التي تجهّزت لاستقبال الولادة العسرة فورًا، فبات أمر استخراج الجنين حيًّا أمْ ميّتًا محسومًا لإنقاذ الأمّ.

و"هنا" تلك الأمّ المتشبّثة بحلمها الذي حملته بوهنِ روحها في خريف عمرها حتّى أزْهرَ لتلمسه، المتشبّثة بأملها حيًّا لنهاية الحياة، كانت لا تتوقّف عن الصراخ بعدما دخلتْ في نوبةٍ هيستيرية من البكاء المَرير تصارع الاستسلام إلى ألم الولادة العسير:

_ابتعدوا، لن يقترب أحدٌ من ولدي أبدًا.

كان وليد متماسكًا بالكاد أمام انْهيار حبيبته التي لم تعدْ تخشى أن تفقد حياتها قدْرَ ما كانت تخشى فقدان جنينها، أملُها الوحيد بالعتمة لترى النور في عينيه، ثمّ قال لها متوسّلًا:

_ أرجوك يا "هنا"، إنّها علامات الولادة المبكّرة لجنين حرج، إنّك تنزفين، ويجب أن نتدخّل لنوقف النزيف.

_ ومَن سيوقف النزيف بقلبي إنْ فقدته، لن أترك الموت يأخذه منّي أبدًا.

_ يمكننا تعويضه يا "هنا"، إنّما لا يمكنني تعويضكِ.

_ أتوسّل إليك يا وليد، أقبّل يديك، لا أريد أن أفقده، لنْ أعيش يومًا من دونه، قلْ لهم أن يتركوه لي مشوّهًا، ناقصًا، سأكمله بروحي، سأقبله كما هو، سأسعد به على ما يكون عليه، لن أتركه للموت حتّى أموت قبله يا وليد.

_"هنا"، أرجوكِ ليس لدينا وقت، إنّها المشيئة الإلهية.

_لا.. لا تخبرني أنّها نهاية الحلم الذي كبر بداخلي، وأضاء ظلمتي، وأحياني بعد موت طويل، إنّ الله لن يحرمني منه، اتركوني بين يديه، هو أرحمُ عليّ من أيديكم التي تعرف الطبّ ولا تعرف معنى الألم الذي لا يندمل، ولا معنى الموت حيًّا. ابتعد عني، ابتعدوا جميعًا، لن يقترب أحدٌ من أملي الأخير ليئده باسم الرحمة.

كانت شيرين تقف بالباب ترى ذلك المشهد المؤلم المفطر للقلب، فلم تحتملْ أن ترى كلّ هذا الوجع والانكسار بقلبِ هذه الأمّ المسكينة، فقالت لهم:

_ اتركوها، لها ربّ يحميها ويحمي ولدها، في مثل هذه الحالات يجب أن يتوقّف الطبّ عند باب الرحمة خاشعًا، ويتنحّى أمام المشيئة الإلهية الرحيمة.

صرخت "هنا" بها وهي على وشك الانهيار:

_لا تقتربي من حلمي، لقد تركت لك حلمكِ، ولم يعدْ لي سواه.

صرخت بعدها صرخةً مدوّية صدعت لها الأرجاء والسماء، صرعت الرّوح الممزقة من الرهبة والألم والرجاء، لقد بدأ الرّحم في الانقباض بعنف ليخرج أملها من ظلمته بأحشائها إلى نور الحياة إنْ كتب له القدر الحياة، وبدأت الأمّ المسكينة تصارع أنفاسها الأخيرة بالتضرّع والرجاء من أجل تلك اللحظة الفارقة بعمرها، أن ترى فيها حلمها الوحيد يدلج إلى النور.

بدأت الولادة العسرة، ولادة الأمل البعيد، الأمل الأخير، بزوغ الفجر الجديد من كهوف الظلام، تلك اللحظات التي تنفخ فيها الروح وتولج للحياة بعد طول انتظار لحظات عصيبة نشعر فيها بأنْ لا نجاة إلّا بيد الله، فنناجيه، ونناديه بكلّ عزمنا من رجاء، راجين البقاء، فتتجلّى يدُ الله العليا لتنجينا وحدها من الغرق، وتربت على قلوبنا المستسلمة في لحظة الانفطار، تلك اللّحظات التي لا يعلم أحدٌ كيف ينشطر فيها القلب من الحزن ويمزّقه ألم فقدان أمله الحي الأخير، إنّه لألمٌ مبرح يكسر الرّوح، ينهشها، يسكن بقاياها، يحفر جرحًا غائرًا لا يلتئم ولا يزول، فيداويه سبحانه بـ "كنْ فيكون" ويمحي أثره وكأنّه يومًا لم يكن، إنّه الله الرحيم الذي تحقّ مشيئته فوق مشيئتنا وأقداره هي خير الأقدار، الله اللطيف الذي خلقنا من ضعف ليقوّينا بقوته، ثمّ يعيدنا إليه في كلّ لحظة فقط ضعفاء من جديد ليقوّينا برحمته مرّة أخرى من لدُنْه عندما نعود ونلجأ إليه

بقوّة الدّعاء واليقين، ليمنحنا مع العسر اليسر، ويغمرنا بلطفه ويهدينا إلى طريق النور من بعد ظلام، إنّه الله الذي لا يمكن أن تمرّ فوق كلمته كلمة أخرى اسمها "محال"، ولا تغيّر مشيئتَه مشيئةٌ أخرى، ولا تعترض حكمته حكمة أخرى، ولا تفوق رحمته رحمة أخرى، وهو أرحم الراحمين، وأقرب إلى الروح في هذه اللّحظة من حبل الوريد.

مرّ الوقت العصيب زاحفًا على نتوءات الألم النّاخر بالروح وقد تخدّرت، العابر فوق صروح الصّبر المتكسرة وقد انهارت، بزغ الفجرُ المنتظر طويلًا في عيني الأمّ المنهكة كالطيف اللؤلؤي، أضفى لونه الأبيض على بهتة الروح وعتمتها، وضمّد الجرحَ الغائر بالقلب المسكين المسكون طويلًا بالحنين في أوّل لحظة سمعت الأمّ صريخ وليدها الضّعيف يتغلغل إلى أعماقها الجرداء ليزهر بها الربيع في قلب الخريف، يتدفّق نغم صوته كالسّيل العذب ليروي عطشها، يتغلغل نور عينيه البريء يضيء عتمة قلبها فتشرق شمسُها الخامدة، ويبعث في الروح أكسير الحياة، لقد طال انتظارُ هذا الأمل الوحيد في الحلم البعيد، لطالما كانت تراه كسدرة المنتهى، وترجوه كأمنية الغروب.

في أوّل لحظة اتّضحت ملامحُه الباهتة بعينيها الذابلتين من الرّجاء، وأوّل لمسة لوجهه الرقيق بخدّها الشاحب تتحسّسه، تستشعره، تحتضنه بأنفاسها بحبّ غامر تفجر من الأعماق ينابيعَ وهي تفيض بآخر ما تبقّى في روحها المستسلمة من حنان، حتّى بكت بكاءًا عميقًا ضعيفًا من بين الوهن يفطر القلب، صمتت أمامه كلّ الكلمات.

لم يبقَ صوتٌ يقطع رهبة الصمت البليغ في هذه الغرفة سوى صوت بكاء الروح الصّغيرة التي خرجت بمعجزة القدر إلى الحياة، وبكاء الروح الأمّ بكاء العودة إلى الحياة، حتّى التقيا قبل الوداع في مشهدٍ يعجز عنه الكلام، في لحظة كانت هي كلّ الحياة.

دمعت عينا شيرين بكلّ أسى على حال "هنا" ووليدها، والذي أراد الله له حياة في هذه اللّحظة العصيبة رغم كلّ قوانين المستحيل، كي يقرّ عيني أمّه ويربط على قلبها المختلج بالتمنّي، ويسكن روحها قبل النهاية باليقين.

قد تستمرّ أو لا تستمرّ الحياة بعد تلك اللحظة الفارقة، ولكن يكفي أنّها جاءت بعد رجاءٍ طويل ويقين بعد طول انتظار، يكفي أن تحقّق فيها حلمٌ بعيد المنال، وأصبح حقيقة لمستها ولو لمرّة واحدة، أحيَتْ فيها الروح الباهتة حياةً كاملة حتّى نهايتها.

كانت "هنا" في وهنها الشّديد تقاوم لحظة الاستسلام الأخير، وهي تلامس بخدّها الحنون خدَّ صغيرها الضعيف بشغف وحبّ غمرها وسقاها، لقد تلاشى في تلك اللحظة أثر الألم الطويل، وكانت تردّد بشفتيها الباهتتين الباردتين بصوتها الضئيل الذي صار يخبو شيئًا فشيئًا: الحمد لله، أنْ حقّق لي أمنية الغروب.

قالت كلماتها قبل السّكون من صميم قلب توقّف عن البكاء في لحظة فرح فريدة صارعت من أجلها لآخر أنفاسها، ثمّ توقّف بعدها عن الألم، ثمّ استسلم خاضعًا للقدر ولفقدان الوعي والغياب.

أمّا وليد فظلّ متشبثًا بيديها، كأوّل لقاء جمعهما، لا تستطيع أن تتركها يداه، حينها خرج الجميع في صمتٍ بليغ تاركينه وحدَه معها، ظلّ بجوارها ملقًيا رأسه على كتفها السّاكن مستسلمًا لمشيئة القدر وكلمته، مردّدًا من أعماقه المنفطرة بصوت حزين متهدّج بأنفاس الحبّ الكبير، متّشحًا بغيمة حزن عميق أبياتِ شعرٍ قالتها له "هنا" في آخر لحظة جمعهما فيها القدرُ والعشق والجنون الكبير، والتي بعدها لم تتكرّر..

التقينا وما التقينا
وأطالت أعيننا الهرب
وأجادت ألسننا الكذب
رغم حبّ لا ينضب
وانتهينا وما انتهينا.

تمّت

د/ هند فؤاد

• الأشعار (فواصل الفصول):

للرّاحل الكبير نزار قباني

الشاعر الكبير فاروق جويدة

• أبيات النهاية لـ هند فؤد